رحلة ابن بطوطة

رحلة ابن بطوطة

المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الأول

سنة ١٩٥٨ م — سنة ١٣٧٧ ه

روجعت وصححت على عدة نسخ صحيحة
بمعرفة لجنة من الأدباء

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص. ب ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد فى سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى المعروف بابن بطوطه رحمه الله ورضى عنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا . وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتا وإعادة وإخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهاد للعباد . وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد . وأطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر . وجعل القمر نوراً والشمس سراجا . ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات . وأنبت فيها من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا . وملحا أجاجا .وأكمل على خلقه الأنعام بتذليل مطايا الأنعام . وتسخير المنشئات كالأعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا . وطلع نور هدايته وهاجا . بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الذمم البالبات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين تقاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين ازروه على جهاد الأعداء وظاهروه على إظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ، ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد فى سبيل الله المؤيد بنصر الله - أبى عنان فارس ابن موالينا الأئمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصراً يوسع الدنيا

وأهلها ابتهاجا * وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا * كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا * وجمل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا (وبعد) فقد قضت العقول وحكم المعقول والمنقول * بأن هذه الخلافة العلية . المجاهدة المتوكلة الفارسية . هي ظل الله الممدود على الأنام وحبله الذي به الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الأيام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها وانقضت حكام البغي عند استقلالها وشادت مباني الحق على عماد التقوى واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه والعدل الذي على أهل الإيمان مديد أطنابه والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار والباس الذي فيه غمامه الدر الموار والنصر الذي تفض كتائبه الأجل والتأييد الذي يعض غنائمه الدول والبطش الذي سبق سيفه العذل والأناة التي لا يمل عندها الأمل والحزم الذي يسد على الأعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والأعمال بالنيات .

(ولما كانت حضرته العلية) مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخى الزمان خدمتهما ببدائع تحفه وروائع طرفه فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العدات وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذي عليه مدار العالم وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة بسند صحاح الآثار كل مسلم وبا كمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدى أوشال البلاد إلى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبدالله ابن محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطه المعروف في بلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الأرض معتبرا وطوى الأمصار مختبرا وباحث فرق الأمم وسبر

سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة اللحاق بالطائفة التي فغمره من إحسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ماشاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر . وبهجة المسامع والنواظر . من كل غريبة أفاد باجتلائها . وعجيبة أطراف بانتحائها . وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم . محمد بن محمد بن جزي الكلبي أعانه الله على خدمتهم . وأوزعه شكر نعمتهم ان يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملا في تصنيف يكون على فوائده مشتملا . ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطيء في فك معماها معهود القياس وانا لأرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الأغضاء عن تقصيره المأمول فعوائدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

(قال الشيخ أبو عبد الله) كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . منفردا عن رفيق آنس بصحبته وراكب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم * وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فجزمت أمرى على هجر الأحباب من الأناث والذكور . وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور. وكان والدى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزى أخبرنى أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجه فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة .

(رجع) وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده موصولة الإسناد بالاسناد . وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد. وتحلت الأيام بحلى فضله . ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله . الإمام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه وأطفأت نار الكفر جداول صارمه . وفتكت بعباد الصليب كتائبه . وكرمت فى إخلاص الجهاد مذاهبه. الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهتانه . وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين . وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان. ووافقت بها رسولى ملك إفريقية السلطان أبى يحيى رحمه الله وهما قاضى الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن على بن إبراهيم النفزاوى. والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزبيدى - بضم الزاى نسبة إلى قرية بساحل المهدية - وهو أحد الفضلاء وفاته عام أربعين وفى يوم وصولى إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار على بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل فى ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا فى قضاء مآربى وخرجت أجد السير فى آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك فى إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضى نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدى إلى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى فتوجهنا جميعا على متيجة إلى جبل الزان ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبى عبد الله

الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ، ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته أصابتنى الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء منى فأبيت وقلت إن قضى الله عزوجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لى أما إن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير خوف غارة العرب فى الطريق ففعلت هذا وأعارنى ماوعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك أول ماظهر لى من الالطاف الالهية فى تلك الوجهة الحجازية وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسطنطينة فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبى الحسن فنظر إلى ثيابى وقد لوثها المطر فأمر بغسلها فى داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه إحراما بعلبكيا وصر فى أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول مافتح به على وجهتى ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها ما كان فى صحبتنا من التجار لأجل الخسوف فى الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد وأصابتنى الحمى فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكننى النزول من الخوف إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفزاوى فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم فوجدت من ذلك النفس مالم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج فأقبل على بالسلام والايناس وما زال يؤنسنى بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين — قال ابن جزى أخبرنى شيخى قاضى الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد ابراهيم السلمى هو ابن الحاج البلفيقى أنه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبى عبد الله ابن الكماد وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وانا

فى ناحية لايسلم على احد فقصد الشيخ من اهل المدينة المذكورة واقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت إليك فرأيتك منتبذا عن الناس لايسلم عليك احد فعرفت انك غريب فأحببت إيناسك جزاه الله خيرا (رجع)

﴿ ذكر سلطان تونس ﴾

وكان سلطان تونس عند دخولى اليها السلطان أبايحيى ابن السلطان ابى زكريا يحيى ابن السلطان ابى اسحاق ابراهيم ابن السلطان ابى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابى حفص رحمه الله. وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضى الجماعة بها ابو عبد الله محمد بن قاضى الجماعة ابى العباس احمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصارى الخزرجى البلنسى الأصل ثم التونسى هو ابن الغماز، ومنهم الخطيب أبو اسحق ابراهيم بن حسين ابن على بن عبد الرفيع وولى ايضا قضاء الجماعة فى خمس دول ومنهم الفقيه ابو على عمر ابن على بن قداح الهوارى وولى ايضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوائده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض اساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل فلما افتى فى اربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلنى بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا فى اجمل هيئة واكمل شارة ووافى عيد السلطان ابو يحيى المذكور راكبا وجميع اقاربه وخواصه وخدم مملكته مشاة على اقدامهم فى ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس إلى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبى يعقوب السوسى من اهل اقل من بلاد إفريقية واكثره المصادمة فقدمونى قاضيا بينهم وخرجنا من تونس فى اواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا إلى بلدة سوسة وهى صغيرة حسنة مبنية على شاطىء البحر بينها وبين مدينة تونس اربعون ميلا ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الإمام ابو الحسن اللخمى المالكى مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه قال ابن جزى فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخى (كامل)

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
محى القصير إلى الخليج فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين تزوره اهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا

صب يريد زيارة فاذا رأى الرقباء ولى

وفى عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبدالله محمد بن أبى تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة حل ساحتها عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها فكلما هم أن يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرا لتوالى نزول الأمطار قال ابن جزى فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبى عند تذكارها جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيد وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الأضحى فى بعض تلك المراحل وفى الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعى أهلى وفى صحبتى جماعة من المصامدة وقدرفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ماراموه من إذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابد إلى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ماشئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين ؛ كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة فى تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها

وكل طرفة فإليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا . وصنفوا فى عجائبها فأغربوا وحسب المشرف إلى ذلك ما سطره أبو عبيد فى كتاب المسالك .

﴿ ذكر أبوابها ومرساها ﴾

وللمدينة الاسكندرية أربعة أبواب . باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب . وباب رشيد . وباب البحر . والباب الأخضر وليس يفتح إلا يوم الجمعة فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر فى مرسى الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها .

﴿ ذكر النار ﴾

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهـــة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عندى عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت من إتمامه .

﴿ ذكر عمود السوارى ﴾

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى وهو متوسط فى غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفيـة وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . قال ابن جزى أخبرنى بعض أشياخى الرحالين أن أحد الرماة بالاسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفى على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول

إلى قصده لغرابة ما أتى به . وكيفية احتياله فى صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية الرامى فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوسطه من إحدى الجهتين فى الأرض وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم فى كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى واسكندرى وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبدالله بن ياسين . وبالاسكندرية توفى اللحيانى المذكور وولده الاسكندرى وبقى المصرى بها . قال ابن جزى من الغريب ما اتفق من صدق الزجر فى اسمى ولدى اللحيانى الاسكندرى والمصرى فمات الاسكندرى بها وعاش المصرى دهراً طويلا بها وهى من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة

ذكر بعض علماء الاسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب . ومنهم فخر الدين بن الريغى وهو أيضاً من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

(حكاية)

يذكر أن جد القاضى فخر الدين الريغى من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشى وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسناً فقعد قريبا من بابها إلى أن دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه وقال متهكما أدخل يا قاضى فقال قاض إن شاء الله ودخل إلى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق أن توفى قاضى الاسكندرية وبها إذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك

فأمر خديمه ان ينادى فى الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فانى عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجى من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسى فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبدالله الفاسى من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات

﴿ كرامة له ﴾

أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله ﷺ فى النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله ﷺ وقعد مستنداً إلى بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد وأفراد العباد لقيته أيام مقامى بالاسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثا

﴿ ذكر كرامة له ﴾

دخلت عليه يوما فقال لى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم إنى أحب ذلك ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ولم أحتاج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من أفراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

﴿ كرامة لأبى الحسن الشاذلى ﴾ أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المرسى

أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير إلى بلده فلما كان فى بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فاسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولم ذا يا سيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن على رضى الله عنه.

(ذكر حزب البحر المنسوب إليه) كان يسافر فى كل عام كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان إذا ركب السفينة يقرؤه فى كل يوم وتلامذته إلى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا – يا ألله يا على يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربى وعلمك حسبى فنعم الرب ربى. ونعم الحسب حسبى. تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم. نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شىء يا من بيده ملكوت كل شىء كهيعص حم عسق انصرنا فإنك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فإنك خير الراحمين وارزقنى فإنك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك انشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا فى سفرنا وخليفة فى فى أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجىء إلينا ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس إلى فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما

برزخ لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حم حم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو اليه المصير باسم الله بابنا تبارك حيطاننا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة إلينا بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

﴿ حكاية ﴾

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى فذهب إلى حماية الروم وأمر المسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا إلى منزل الوالى فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالى ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال أنه كان يعبد الشمس فدخلا اسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك وسواهم وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للأميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فأنكر الأميران قوله وقالا إنما تريد الثورة على السلطان وقتلاه وإنما كان قصده رحمه الله إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام إقامتى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدى وهو من كبار الأولياء المكاشفين أنه منقطع بمنية بنى مرشد

له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولاصاحب ويقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى فيأتى لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك فى غير إبانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولى ويعزل وذلك كله من أمر مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجه (وضبطها بفتح الفاء الفوقية وواو وجيم مفتوحة) وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبدالوهاب وأضافنى ناظرها زين الدين بن الواعظ وسألنى عن بلدى وعن مجباه فأخبرته أن مجباه نحو اثنى عشر الفا من دينار الذهب فعجب وقال لى رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وإنما عظمت مجابى ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهى مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى بسبب الواقعة التى قصصناها وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين الف درهم وصرفها من دنانير الذهب الف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا إلى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة (وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى الذى قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الأمير سلف الدين يلملك وهو من الخاصكية وأول اسمه ياء وآخر الحروف ولامه الأولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامة تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلى وعانقنى وأحضر طعاما فواكلنى وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمنى للصلاة

إماما وكذلك لكل ما حضرنى عنده حين إقامتى معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لى اصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك اوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لى وما منا إلا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

﴿ كرامة لهذا الشيخ ﴾ رأيت ليلتى تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركنى بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت فى نفسى إن كاشفنى الشيخ برؤياى فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى إماما لهذا ثم أتاه الأمير يلملك فوادعه وانصرف وودعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغاراً ثم سبحت سبحة الضحى ودعانى وكاشفنى برؤياى فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبى ﷺ وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها دلشاد الهندى ويخلصك من شدة تقع فيها ثم زودنى كيعكات ودراهم وودعته وانصرفت ومنذ فارقته لم الق فى أسفارى إلا خيرا وظهرت على بركاته ثم لم الق فيمن لقيته مثله إلا الولى سيدى محمداً الموله بأرض الهند ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية وهى رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراء ين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند وسنذكره وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر إلى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين ورحلت منها إلى مدينة ابيار وهى قديمة البناء أرجة الأرجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف والف وراء) وهى بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بابيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها ولقيت بابيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى وهو ريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه أن يجمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك

النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين بن الأشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمى ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيراً وهي الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب … والريح تثني ذوائب القصب
كأنها والرياح تعطفها … صب قنا سندسية العذب
والجو في حلة ممسكة … قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) — والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة وقيده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين — وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه أن قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة إلى النيل فبينما اسبغ الوضوء وصلى على ماشاء أن يصلي إذ سمع قائلا يقول :

لولا رجال لهم سرديصومونا   وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا   لأنكم قوم سوء لاتبالونا

قال فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما رأيت أحدا ولا سمعت حسا فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها ثهم باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن على الرشاطى وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبدالمؤمن بن خلف الدمياطى امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطى وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده ومدينة دمياط على شاطىء النيل وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر فى المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى وكلابها غنم وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الألبان الجاموسية التى لا مثل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البورى يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا ، ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هى التى خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكرورى

﴿ حكاية ﴾

يذكر أن السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوى إلى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه فى الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدى أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه إلى ولدى وأحب أن تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدى ان لولدى زوجة وهى باسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين

بابى الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى أن لاخلاص له قال لها انى حيث تريدين فاريني بيت الخلاء فأرته إياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك فبقى على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما إلى جنازة بعض الأعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضى الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضى وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له إياى تعنى وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضى ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانيا فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثا ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضى يده وتلمذ له وبنى له زاوية حسنة وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضى وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره ، وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام فى السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام إقامتى بها وال يعرف بالمحسنى من ذوى الإحسان والفضل بنى مدرسة على شاطىء النيل بها كان نزولى فى تلك الأيام وتأكدت بينى وبينه مودة ثم سافرت إلى مدينة فارسكور وهى مدينة على ساحل النيل (والكاف الذى اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقنى هنالك فارس وجهه إلى الأمير المحسنى فقال لى إن الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث إليك بهذه النفقة ودفع إلى جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجم) ونسبت إلى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل إلى مصر وهى مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلد قاضى القضاة ووالى الولاة ثم سافرت عنها إلى مدينة سمنود وهى على شاطىء

النيل كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهملة والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة المتصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد ثم وصلت إلى مدينة مصر هى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ومجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الأمم وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم ولها خصوصية النيل الذى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر : (طويل)

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها وروضها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطىء مصر جنة ما مثلها من بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلهـــا المطرد
وللرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها داودها بمبرد
سائلة هواؤها يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بــين حادر ومصعد

(رجع) ويقال أن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وأن بها ثلاثين ألف مكار وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل

مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

﴿ ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا ﴾

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ــ وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ــ يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم ــ وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب * ومن عوائدهم فى الطعام أنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان فى اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أى البلاد أتى وباى الزوايا نزل فى طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله ادخله الزاويه وفرش له سجادته فى موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتى إلى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم *ومن عوائدهم أنهم إذا

كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرؤا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

﴿ ذكر قرافة مصر ومزاراتها ﴾

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهاراً بالأصوات الحسان ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ويخرجون كل ليلة جمعة إلى المبيت بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الإتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم إلا من بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق

﴿ ذكر نيل مصر ﴾

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل

وليس فى الارض نهر يسمى بحراً غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم فسماه يما وهو البحر وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وصل ليلة الاسراء إلى سدرة المنتهى فاذا فى أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفى الحديث أيضا النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافا لجميع الأنهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها ونهر السند مثله فى ذلك وسيأتى ذكره وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب فى العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى بنجاب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيذكر ذلك كله فى مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا فى السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها فاضت على المزارع .

﴿ ذكر الأهرام والبرابى ﴾

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها ويزعمون أن العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منف وهى على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله

عنه مدينة الفسطاط فهى قاعدة مصر إلى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر فى شانها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤياهالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم والجثة الملوك وأنه سال المنجمين هل يفتح منها موضع فاخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الإنفاق فى فتحه فامر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق فى فتحه واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة كتب عليها بنينا هذه الاهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فاشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها إلى اليوم ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

﴿ ذكر سلطان مصر ﴾

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بالف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج من الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين المصرى والشامى وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله فى ارضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه ابوعنان ايد الله امره واظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها فى المعمور فى إتقان الوضع وحسن البناء والنقش فى الجص بحيث لا يقدر اهل المشرق على مثله وسيأتى ذكر ما عمره ايده الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

﴿ ذكر بعض أمراء مصر ﴾

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك ، ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين وبينهما شين معجم) وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالى بفتح الجيم. ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك . ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد . ومنهم بهادر الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) . ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا . ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه فخر الدين القبطى وكان نصرانيا من القبط فاسلم وحسن إسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل . ومن عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ يصحبه إلى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ماقدر له ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه

﴿ ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى إليها ﴾

فمنهم قاضى القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عزالدين هو الآن متولى ذلك

* ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الاخنائى . ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى . ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

﴿ حكاية ﴾

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله فى ذلك مسلكا لم يسبق إليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله أن يحضرها سواه أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين عبد الحق الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه وذكروا أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك

﴿ ذكر بعض علماء مصر وأعيانها ﴾

فنهم شمس الدين الاصبهانى إمام الدنيا فى المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القويع التونسى من الأئمة فى المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ومنهم برهان الدين الصفاقسى ومنهم قوام الدين الكرمانى وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرسون فنون العلم ويفتى فى المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والتنزاهات منفرداً عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين

ابن حناء ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائى نسبة إلى أقصرا من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعى مجد الدين بن حرمى ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

﴿ ذكر يوم المحمل ﴾

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤن على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك فى رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التاهب لذلك والاستعداد ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة ودعها فيه وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذى كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين على بن ابى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة الف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الاثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها إلى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة واحدة شين معجم) وهذه المدينة اكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الدنيا المصرية وإلى افريقية ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهملة) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التى ذكرناها قبلها ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر وإفريقية ثم سافرت منها إلى مدينة بنا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط

اسمها بفتح الموحدة وإسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطىء النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب

﴿ حكاية خصيب ﴾

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولي عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصدا لإرذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والإيثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم وأن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال إنما قصدي سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فأنشد (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له إن هذه لا تصلح إلا للخليفة فرفعوا أمرها إلى الخليفة فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب إلى أن توفي وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها

فخر الدين النويرى المالكى وواليها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على واتيته فأعلمته بذلك فأمرنى لاأبرح وأمر بإحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب إلى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعى وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل بنى احدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكراً فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة إلى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

﴿حكاية﴾ أخبرنى أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به فى النيل ليجاز إلى بحر جدة ثم إلى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى احتمله إلى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لاينهض بهم المركب فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر رحمه الله فأمر ان يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع فى هذه المدينة شبه العسل يستخرجه من القمح ويسمونه النيدا يباع باسواق مصر وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب اشتهر به وأصله ان القضاة بديار مصر والشام بايديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها فيعطيه ماقدر له فكان القاضى إذا أتاه الفقير يقول له حاصل ماثم أى لم يبق من المال الحاصل شىء فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافنى بزاويته وسافرت منها إلى مدينة اخميم وهى مدينة عظيمة اصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربى المعروف باسمه وهو مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة

للاوائل لا تفهم فى هذا العهد وصور الأفلاك والكواكب ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هـذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هـذه البرابى وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابى ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله إلى صلاة العصر فإذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم إلى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف ابو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين (كرامة له) دخلت إلى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألنى عن قصدى فأخبرته إنى أريد البيت الحرام على طريق جدة فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت فى طريقى حتى وصلت إلى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام وكان طريقى فى أول حجاتى على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به ثم سافرت إلى مدينة قنا وهى صغيرة حسنة الأسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية حفيدة شهاب الدين احمد وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص (وهى بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة وأسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة وهى منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطى وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الأندلسى له زاويه عالية ثم

سافرت إلى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهى صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى وعليه زاوية وسافرت منها إلى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية) وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافنى قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافنى وأكرمنى وكتب إلى نوابه بإكرامى وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسى وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها إلى مدينة ادفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة اسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء ثم جزنا النيل مدينة ادفو إلى مدينة العطوانى ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) فى صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبيل وفى بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى وقد ذكرنا كرامته فى أخباره أنه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقا مأكولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا إلى مدينة عيذاب وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاه لملك البجاة وهو يعرف بالحدربى (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشى زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش وأن سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا فى البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر فوصلنا إلى مدينة قوص التى تقدم ذكرها وانحدرنا منها فى

النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت إلى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهى مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة بكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهى (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحرف مفتوحة وألف والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب، والشهود ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوزعليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطاً على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتى الأمير صباحا فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء وكان بها فى عهد وصولى إليها عز الدين أستاذ الدار اقماري من خيار الأمراء أضافنى وأكرمنى وأباح الجواز لمن كان معى وبين يديه عبد الجليل المغربى والوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا . ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزه وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها وكان بها جامع حسن والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها بناة الأمير المعظم الجاولى وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض وقاضى غزة بدر الدين السلختى الحورانى ومدرسها علم الدين ابن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضى القدس ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهى مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر فى بطن وادو مسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامى الارتفاع مبنى بالصخر المنحوت فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً ويقال إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه

وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هى قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق يفضى إلى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال إنها محاذية لها وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقله من كتاب على بن جعفر الرازى الذى سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب أسند فيه إلى أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بى إلى بيت المقدس مر بى جبريل على قبر إبراهيم فقال انزل فصل ركعتين فإن هنا قبر أبيك إبراهيم ثم مر بى على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبرى أحد الصلحاء المرضين والأئمة المشهورين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لى كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن فى ذلك إلا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه * ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى هذه القبور هو قبر إبراهيم فأشار له إلى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فأشار له إليه ثم دخل صبى فسأله أيضا فأشار له إليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر إبراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام وبشرقى حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهى تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط هى أجاج يقال إنها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمة وفى المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض فى حجر صلد قد هيىء فيه صورة محراب لا يسع إلا مصليا واحدا ويقال أن إبراهيم سجد فى ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ فى الأرض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه

وفى اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات

اسكنت من كان فى الاحشاء مسكنه بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الائمة بنت الانجم الزهر
ياقبر مافيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس فزرت فى طريقى اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت ايضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه اشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه إلى السماء والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيتمنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء فى هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز امير دمشق .

﴿ ذكر المسجد المقدس ﴾

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال إنه ليس على وجه الارض مسجدا كبر منه وان طوله من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة إلى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله ابواب كثيرة فى جهاته الثلاث واما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام والمسجد كله فضاء وغيره مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف فى النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفى المسجد مواضع سواه مسقفة

﴿ ذكر قبة الصخرة ﴾

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة ابواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة مايعجز الواصف واكثر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها فى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار فان النبى صلى الله عليه وسلم

عرج منها إلى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شبا كان اثنان محكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

﴿ ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف ﴾

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون أن قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهى التى يكذبون عليها ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم انفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

﴿ ذكر بعض فضلاء القدس ﴾

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد ابو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن ابن مصطفى من أهل ارز الروم وهو من تلامذه تاج الدين الرفاعى صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ماجمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع واصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين ابن على عليه السلام قبل أن ينقل إلى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لامثل لها فى الحسن وهى ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام ينزل اليها فى

درج متسعة ويدخل منها إلى بيوت وفى كل ناحية من جهاتها الاربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء مالا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ـ ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الابيض ويقال إن فى قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن وفى وسطه بركة ماء عذب ـ ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهى بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ـ ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل ـ وبتنا هنالك ليلة ـ ثم وصلنا إلى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافر على الساحل فوصلت إلى مدينة عكة وهى خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقها عين ماء تعرف بعين البقر يقال إن الله تعالى أخرج منها البقر لادم عليه السلام وينزل اليها فى درج وكان عليها مسجد بقى منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ـ ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهى خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضا فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه فى فعله فقال لى إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شانا

منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها وكان عليها الحراس والأمناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار ـ ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري وهو حسن الأخلاق كريم النفس ـ ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبيء عن ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهوداو قبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذي القى فيه يوسف عليه السلام وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا إلى مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد ويقال أن السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكانوا من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها .

﴿ حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور ﴾

يحكى أنه دخل مدينة دمشق فرض بها مرضا شديدا وأقام مطروحا بالأسواق فلما برىء من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره أن يأتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال إنما أستأجرتني على الحراسة لا على الاكل فاتى الوكيل إلى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قدرأى فى المنام انه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه اجلسه إلى جانبه ثم احتمله إلى مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فاراً بنفسه فى أوان البرد الشديد فاتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فاتاه بها وبخبز شعير فاكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم فى تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتنى به فأتاه به فقال له استعر من جيرانك ماأمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فاوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابا إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ويرضى أصحاب النحاس ويعطى صاحب البيت كفايته وقال له فى آخر الكتاب وان كان ابراهيم ابن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب بعد أن أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمور مثله — ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهى احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والأشجار ويكنفها البحر بمرافقة العميمة والبر بخيراته المقيمة . ولها الاسواق العجيبة . والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها وهى حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوائده أن يركب فى كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل امير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء

الدين بن غانم احد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق . ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال . ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من اعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمى وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ـ ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار بأعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمى نسبة إلى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحق الآن اسمه ـ ثم سافرت إلى مدينة حمص وهى مدينة مليحة أرجاؤها مونقة واشجارها مورقة وانهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفى وسطه ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضى هذه المدينة جمال الدين الشريشى من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة ثم سافرت منها إلى مدينة حماة أحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصى ولها ربض سمى بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزى إذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة قال ابن جزى وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين ابو الحسن على بن موسى بن سعيد العبسى العمارى الغرناطى نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه (طويل)

حمى الله من حماة مناظرا	وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل	وتزهى مبانى تمنع الواصف الوصفا
يلومنى أن أعصى الصون والنهى	وأطيع الكأس واللهو والقصفا
إذا كان فيها النهر عاص فكيف لا	أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها	وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا

تئن وتذرى دمعها فكأنها تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى وقد عاينت قصدى من المنزل القاصى
بكت رحمة لى ثم باحت بشجوها وحسبك ان الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتاخرين فيها ايضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم ماحلت عن تقوى وعن اخلاصى
والطرف بعدكم اذا اذكر اللقا يجرى المدامع طائعاً كالعاصى

(رجع)ـ ثم سافرت إلى مدينة المعرة التى ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع)ـ والمعرة مدينة كبيرة حسنة اكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل إلى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له * وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضى الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه ـ ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين وهى حسنة كثيرة البساتين واكثر شجرها الزيتون بها يصنع الصابون الآجرى ويجلب إلى مصر والشام ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها واهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالاسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمساراً ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح ـ ثم سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال ابو الحسين بن جبير فى وصفها قدرها خطير وذكرها فى كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس اثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع تنزهت حصانة من ان ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام

والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين امراؤها الحمدانيون وشعراؤها فنى جميعهم ولم يبق إلا بناؤها فياعجبا لبلاد تبقى ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضي هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها فى خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان انث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالعذر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظما ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متدانى الابراج وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك ابن طوق التى على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة اياما ونكص عنها خائبا قال ابن جزى وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من يرومها … بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الحواجيب غمامة … ويلبسها عقدا بأنجمه الشهب
إذا ماسرى برق بدت من خلاله … كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد ماتت بغصة … وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها … وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها … أرضا توطا قطريه مواشيها
إذا الغمامة راحت غاض ساكنها … حياضها قبل ان تهمى عواليها
يعد من انجم الافلاك مرقبها … لو أنه كان يجرى فى مجاريها
ردت مكايد اقوام مكايدها … ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن ابى المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها … تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا … ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا … وجلا فما يمسى لديها حاضرا

(رجع) ويقال فى مدينة حلب حلب إبراهيم لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع وإتقان الترتيب واتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائما فى ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسنا وكبرا وهى تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد فى صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والآبنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع وإتقان الصنعة ينسب لأمراء بنى حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط افيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به والبساتين على شاطىء نهرها وهو النهر الذى يمر بحاه ويسمى العاصى وقيل انه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها وهى من المدن التى تصلح للخلافة قال ابن جزى اطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب وذكر دخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحترى (كامل)

يا برق أسفر عن قويق مطالى حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صيغة فى كل ضاحيـــة ومجنى الآس
أرض إذا استوحشتكم بتذكر حشدت على فأكثرت ايناسى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ بها إذ بها العيش لم يستطب
إذا نشر الزهر أعلامه بها ومطارفه والعـــذب
غدا وحواشيه من فضة تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى : (خفيف)

حلب للوارد جنة عـــدن وهى للغادرين نار سعـــير
والعظيم العظيم يكبر فى عيـــنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق فى انفس القوم بحر وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس :

ياصاحبي أذا أعيا كما سقمي   فلقياني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنا   فيها وكان الهوا العزرى من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم : (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة   كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ماتشتهي   فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى المغربى . (خفيف)

حادى العيس كم تنيخ المطايا   سق بروحى من بعدهم فى سياق
حلب إنها مقر غرامى   ومرامى وقبلة الأشواق
لك خلا جوشن بطياس والعبد   ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب   فيه سق المنى بكاس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح   وتثنى غصونها للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت   انجم الأفق حولها كالنطاق

(رجع) وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة فمنهم القاضى كمال الدين بن الزملكانى شافعى المذهب عالى الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الأخلاق متفنن بالعلوم وكان الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفى ببلبيس وهو متوجه إليها ولما ولى قضاة حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله محمد بن نباتة القرشى الأموى الفارقى فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها (كامل)

اسفت لفقدك جلق الفيحاء   وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلى دمشق وقد رحلت كآبة   وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها   حتى غدت ولنورها لألاء
ياساثرا سق المكارم والعلى   ممن يبخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه   تنعم فثم الفضل والنعماء
قاضى القضاة أجل من أيامه   تغنى بها الأيتام والفقراء
قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى   شرفت به الأدباء والأبناء
من الاله على بنى حلب به   لله وضع الفضل حيث يشاء

كشف المعمى فهمه وبيانه فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
ياحاكم الحكام قدرك سابق عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التى فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها والفضل ماشهدت به الأعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ اسفت قال ابن جزى وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد وإليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشىء الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله (كامل)

علقتها غيداء حالية العلى تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب (كامل)

تراه إذا ماجئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لاأذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لاأذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين بن العجمى وأقاربهم كبراء مدينة حلب — ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهى حديثة اتخذها التركمان واسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلانى وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق إلا رسومها ثم سافرت الى مدينة انطاكية وهى مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لانظير له فى أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصى وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة

ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين إلا أنه محدودب الظهر لايستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا — ثم سافرت إلى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لايرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل إلى بلاد سيس وهى بلاد كفار الأرمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون إليه مالا ودراهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبيزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيبانى وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الأول) ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

(حكاية)

شكا الأرمن مرة إلى الملك ناصر من الأمير حسام الدين وزوروا عليه أمور لاتليق فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقا له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال ياخوندان الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى انفذ أمرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأقوش وكان لا يبعث إلا فى مهم أمره بالاسراع والجد فى السير فسار من مصر إلى حلب فى خمس وهى مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذى يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد إلى موضعه ولقيت هذا الأمير ومعه قاضى بغراس شرف الدين الحموى بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت إلى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين الكردى وقاضيه شهاب الدين الأرمنتى من أهل الديار المصرية ـ ثم سافرت إلى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم وإسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع فى الرأس شاهق أميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من اصحاب ابن تيمية ـ ثم سافرت إلى مدينة صهيون وهى مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمى وقاضيها محى الدين الحمصى وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل

وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتى ما يراد منه فهى له وإن أصيب فهى لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب إلى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم .

﴿ حكاية ﴾

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقربه القرار واشتدت اواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا إظهاراً للأخذ بثأر أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر إلى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا فى عشرين الفا وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا فى قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة فى عنق نفسه ونادى الجوار يا أمير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك واجرنا من معك فقال إنما أطلب أولادى ومالى فقالت له لك ما تحب فانزل فى جوارنا ففعل ذلك وآتى مهنا فاحسن نزله وحكمه فى ماله فقال انما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبنى عمه فشاورهم فى امره فمنهم من أجابه إلى ما اراد ومنهم من قال كيف نحارب الملك الناصر ونحن فى بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما أنا فافعل لهذا الرجل ما يريده واذهب معه إلى سلطان العراق وفى اثناء ذلك ورد عليهم الخبر بان أولاد قراسنقور سيروا على البريد إلى مصر فقال مهنا لقراسنقور اما أولادك فلا حيلة فيهم واما مالك فنجتهد فى خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين الفا وقصدوا حلب فاحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم

يتعدوا إلى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا إلى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى منها عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الأفرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم وعاد مهنا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقى قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضرب به وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبداً ولا ينام إلا فى البيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمرطاش إلى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبى سعيد فلما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا فى داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة وهى ذات أنهار مطردة وأشجار البحر على نحو ميل منها وبها قبر الولى الصالح الشهير إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه وهو الذى نبذ الملك وانقطع إلى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس إنما ورث الملك عن جده أبى أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

﴿ حكاية أدهم ﴾

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال أدعى لى صاحب المنزل فقالت أنه لا مرأة فقال استأذنى لى عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهى على مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان فى موكبه فأخبره الخبر واستحله فامره أن يعود إليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت

وحببت إليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هـذا ياتى من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة فرغبت فى تزوجه فلما أتاه من الغد قال لاأحلك إلا أن تتزوج بنتى فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد إلى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحله فقال لاأحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام إلى الصلاة فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت إبراهيم ولم يكن لجده ولد فاسند الملك إليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها إبراهيم الجمحى من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر اقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من ياتى من الزوار لهذه التربة يعطى لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة واكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون ان على ابن ابى طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر الزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما اوت إليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن إلى للصلاة فيقولون لا تنهق علفك ياتيك وعددهم كثير

﴿ حكاية ﴾

ذكر لى ان رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد يامرهم بالخروج إليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فإنها كالأوامر لكم فإذا خرج احدهم إلى بلد احضره اميرها فيقول له إن الإمام المهدى أعطانى هذا البلد فيقول له أين الأمر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم إن امرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وان يبدأوا بمدينة جبلة وامرهم أن ياخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم انها تصير فى ايديهم سيوفا عند القتال فغدروا مدينة جبلة واهلها فى صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا وتصل الخبر باللاذقية فاقبل اميرها بهادر عبد الله

بعساكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فاتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء والقى له انهم عمال المسلمين فى حراثة الأرض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم - ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون أنها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت إنما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الأسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائى ويحيى السلاوى وهما بمسجد علاء الدين ابن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

(حكاية)

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لايسلم احد من لسانه متهم فى دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول امورا شنيعة وعاد إلى اللاذقية فكتب طيلان إلى القاضى جلال الدين ان يتحيل فى قتله بوجه شرعى فدعاه القاضى إلى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم ايسرها يوجب القتل وقد اعد القاضى الشهود خلف الحجاب ليكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضى وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم اخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه أخوة ابن المؤيد شاكين القاضى جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا أو امر بخنقهم واخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد تحت مخنقته ونزعت عمائمهم ومن عادة امراء تلك البلاد انه متى امر احدهم بقتل احد من الناس يمر الحاكم من مجلس الامير سبقا على فرسه إلى حيث المامور بقتله ثم يعود إلى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا ايها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقبل الامير شفاعتهم وخلى سبيلهم

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والبكر ومينا. هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهي من أحسن المراسي بالشام - ثم سافرت إلى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من يدي الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت إلى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والأنهار وسافرت منه إلى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

﴿ حكاية ﴾

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار مايشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ به إني كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه في هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف الينا فقبضناه وأتينا به أصحابنا وذبحناه وأشوينا لحمه في تلك النار وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق وبينهما مسيرة يوم المجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها إلى دمشق *

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها وأخرى فى جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة فى جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة وكان دخولى لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغد ولفرط اشتياقى إلى دمشق وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا ابدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها قال واما دمشق فهى جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام متى استقر بناها . وعروس المدن التى اجتليناها . قدتحلت بأزاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين . وحلت موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت فى منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة منها ذات قرار معين . وظل ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل . ورياض يحي النفوس نسيمها العليل . تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء . حتى اشتاقت إلى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم والصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد احدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والآكام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجانبها الأربع نضرته اليانعة قيد البصر . ولله صدق القائلين عنها . ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيها . وان كانت فى السماء فهى تسامتها وتحاذيها ، قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها فى هـــذا المعنى فقال : (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادىاشى نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف

منها وأجاد . وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا وإن لم تكن له بها إقامة . فيعرب عنها بحقيقة علامة . ولاوصف ذهبيات أصيلها . وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان جفولها المنوعات . ولأوقات شرورها المنبهات ، وقد اختص من قال الفيتها كما تصف الألسن . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . قال ابن جزى والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لايحصر كثرة وكان والدى رحمه الله كثيرا ماينشد فى وصفها هذه الأبيات وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح ... وإن لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء درر وتربها ... عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهومطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشق الكلبى (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما ... إنسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضى ... ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضا فيها :

أما دمشق فجنات معجلة ... للطالبين بها الولدان والحور
ماصاح فيها على أوتاره قمر ... إلا يغنيه قمرى وشحرورى
ياحبذا ودروع الماء تنسجها ... أنامل الريح إلا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبيع بن خلف الاسدى (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا ... من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها ... فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها ... منها ولا تعزى الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة ... وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم روضها متى ما قد سرى ... فانك اخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع فى ربوعها ... وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسام العيون والأنوف من ... رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا للقاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يا برق هل لك فى احتمال تحية ... عذبت فصارت مثل مائك سلسلا

باكر دمشق بعشق الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكللا
واجر ريجيرون ذيولك واختصص مغنى تأزر بالعلا وتسربلا
حيث الحيا الربعى محلول الحيا والوابل الربعى مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى سعد العنسى الغرناطى المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره وكل روض على حافاته الخضر

وقال أيضا فيها

خيم بجلق بين الكاس والوتر فى جنة هى ملء السمع والبصر
ومتع الطرف فى مرأى محاسنه وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها واسمع الى نغمات الطير فى الشجر
وقل لمن لام فى لذاته بشرا دعنى فانك عندى من سوقة البشر

وقال أيضا فيها (كامل)

أما دمشــق فجنة ينسى بها الوطن الغريب
لله أيام السبوت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى الا محبــا أو حبيب
فى موطن غنى الحمام به على رقص القصيب
وغدت أزاهر روضه تختال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق فليرجع إلى كلام الشيخ أبى عبد الله

﴿ ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية ﴾

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثنى عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد

رضى الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى إلى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجداً وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا له كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من ايديهم وكانوا يزعمون ان الذى يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم واكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسفساء تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهى ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب سعة كل بلاط منها ثمانى عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قدصور فيها أشكال محاريب وسواها وهى تقل قبة الرصاص التى أمام المحراب المسماة بقبة النسر كانهم شبهوا المسجد نسرا طائراً والقبة رأسه وهى من أعجب مبانى الدنيا .

ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ومن الأرجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبها يجتمع اهل المدينة بالعشايا فمن قارىء ومحدث ذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة وإذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له اسرع كل منهما نحو صاحبه وحط راسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى قبة عائشة ام المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص .

ويقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى ان فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الأخرى إلا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على اربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه انبوب

نحاس يمج الماء إلى علو فيرتفع ثم ينثني كانه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبو طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك .

وفى قبلة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها امام الشافعية وفى الركن الشرقى منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر أهل التاريخ انه أول محراب وضع فى الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم إمامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع إحداها بشرقيه وهى من بناء الروم وبابها داخل المسجد وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون المسجد ويتوضئون .

والصومعة الثانية بغربيه وهى أيضا من بناء الروم .

والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفى شرقى المسجد صومعة كبيرة فيها صهريج ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم فيه مكتوب بالأبيض (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحى) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى ان الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين الف صلاة وفى الأثر عن النبى ﷺ أنه قال يعبد الله فيه بعد خرابه الدنيا أربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر ﷺ ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم أثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليه كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون

عن ذلك ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك ، وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب إلى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة تمتد مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا ، وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانا للشافعية وسائرها لأصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد وفي الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطنا ويقال أن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب

النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاة تعرف بالشميعانية فى وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجرى فيها الماء ويقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة .

﴿ ذكر الأئمة بهذا المسجد ﴾

وأئمته ثلاثة عشر إماما أولهم الشافعية وكان فى عهد دخولى اليها إمامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت دينا عليه بدمشق وإذا سلم أمام الشافعية من صلاته أقام للصلاة أمام مشهد على ثم إمام مشهد الحسين ثم إمام مشهد الكلاسة ثم امام مشهد أبى بكر ثم امام مشهد عثمان رضى الله عنهم أجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبى القرطبى الأصل الغرناطى المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الإمامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاه الخانونية وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى ثم إمام الحنابلة وكان ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف احد شيوخ القراء بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من اول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر الجامع المبارك .

﴿ ذكر المدرسين والمعلمين به ﴾

ولهذا المسجد حلقات للتدريس فى فنون العلم والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى وإنما يقرؤن القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعى ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر

جلال الدين القزوينى وجه إلى أبى اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الإمام العالم شهاب الدين ابن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين على السخاوى رحمة الله عليهم أجمعين

﴿ ذكر قضاة دمشق ﴾

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعى بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى وأما قاضى المالكية فهو شرف الدين خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة وإليه يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل إذا سمع اسم القاضى الحنفى انصف من نفسه قبل الوصول إليه وأما قاضى الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة يتصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله ﷺ لما توجه للحجاز الشريف

﴿ حكاية ﴾

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون إلا أن فى عقله شيا وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر باشخاصه إلى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة وقال قاضى القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا إله إلا الله فأعاد عليه فاجاب بمثل قوله فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه البحر المحيط فى نحو اربعين مجلداً ثم إن امه تعرضت للملك الناصر وشكت إليه فأمر باطلاقه إلى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وانكر ما تكلم به فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدى والنعال ضربا كثيراً حتى سقطت عمامته وظهر على راسه شاشية

حرير فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الأمراء وصلحائهم فكتب إلى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعياً على ابن تيمية بأمور منكرة ، منها أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة ومنها المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك ما يشبهه وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن .

﴿ ذكر مدارس دمشق ﴾

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضى ومن نوابه فخر الدين القبطى وكان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لأمر أوجب عزله.

﴿ حكاية ﴾

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتلمذ له ويعظمه فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبنى بحضرتك فقال له الأمير احكم عليه وسلمه اليه وظنه أنه يرضى بذلك فلا يناله بسوء فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الإنكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مذهبه فإن التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد وقال قاضى المالكية شرف الدين قد حكم بتفسيقه فكتب إلى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضى الحنفية والمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية وبها سكن قاضى قضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشى التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها النجمية .

(ذكر ابواب دمشق)

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزى لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله (رجز)

دمشق فى أوصافها جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

(ذكر بعض المشاهد والمزارات بها)

فمنها بالمقبرة التى بين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرنى وقبر كعب الأحبار رضى الله عنهما ووجدت فى كتاب المعلم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة إلى الشام فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا فى أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزى ويقال أن أويسا قتل بصفين مع على عليه السلام وهو الأصح إن شاء الله ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب.

(حكاية فى سبب تسميته بذلك)

يحكى أن الشيخ الوالى أحمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بقرية من مدينة واسط وكانت بين ولى الله تعالى أبى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال إن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان فى إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخى شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ احمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن أمرك ياسيدى آتيه به فاذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما فاخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء وبغربى دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبى الدرداء وزوجه أم الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر واثلة بن الأسقع وقبر سهل بن حنظلة من

الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف المنيحة شرقى دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقربه قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبى ﷺ أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وعليه مسجد كبير وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن على عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غرب البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبى مسلم الخولانى وقبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الاقدام وهو فى قبلى دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا والاقدام التى ينسب اليها هى أقدام مصورة فى حجر هناك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى ﷺ فى النوم فيقول له هاهنا قبر أخى موسى عليه السلام وبمقربة من هذا المسجد موضع يعرف بالكثيب الأخضر وبمقربة من بيت المقدس واريحاء موضع يعرف بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود .

﴿ حكاية ﴾

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر ربيع الثانى سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخون بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ـــ ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى

الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال وعادوا إلى البلد وصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد وبالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال انها التى ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم .

﴿ ذكر أرباض دمشق ﴾

وتدور بدمشق من جهاتها ماعدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها أملح من داخل دمشق لأجل الضيق الذى فى سككها وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهى مدينة عظيمة لها سوق لانظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه

﴿ ذكر قاسيون ومشاهده المباركة ﴾

وقاسيون جبل فى شمال دمشق والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهى بمقربة من بلد ذى الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثرا محمرا وهو الموضع الذى قتله أخوه به واجتره الى المغارة ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد فى المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر أنه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد

مبنى والسرج توقدفيه ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهى مدفن الأنبياء والصالحين وفى طرفها مما يلى البساتين أرض منخفضة غاب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من أن يدفن فيها أحد

﴿ ذكر الربوة والقرى التى توالبها ﴾

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ذات القرار المعين ومأوى المسيح عيسى عليهما السلام وهى من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة والمبانى الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس إلى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وساقية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب فى شاذروان فى الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء وهذه الربوة المباركة هى رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ فى جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة واندفع فى الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهى مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ماليس لسواها وتلك الأنهار السبعة تذهب فى طرق شتى فتحار الأعين فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد وبأسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها إلا ماسما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية رائعة الحسن ومطهره فيها بيوت عدة يجرى فيها الماء وفى القبلى من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبى المزى وكثير سواه من العلماء وهى من أعظم

قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الاهبة وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان يجلب فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام

﴿ ذكر الأوقاف بدمشق و بعض فضائل أهلها وعوائدهم ﴾

والأوقاف بدمشق لاتحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهى اللواتى لاقدرة لاهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

﴿ حكاية ﴾

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاوانى فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان او أمانة طاحونة او كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ومن اراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة

والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالى ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك وقال لى احسب دارى كانها دارك أودار أبيك أوأخيك وأمر باحضار طبيب وأن يصنع لى بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أوغذاء وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى .

وقد كان ماعندى من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لى جمالا وأعطانى الزاد وسواه وزادنى دراهم وقال لى تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى من عاداته انه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسى له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه إذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ان احد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم فى كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها ويقف بهم أئمتهم كاشفى رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته الى أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون

أمام الجنازة والقراء يقرؤن القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لهارقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وادخلوا الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرءون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز ايضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالاكسية الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعلون صيوانا يظلل الناس نحوه ويأتى القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءا فاذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بابيات شعر ويذكرا أقاربه ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبدأ القاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه ثم يؤتى بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به فإذا اعطى السلطان أحداً منه فهو اعظم من اعطاء الذهب والخلع وإذا مات الميت لم يأكل اهله التنبول إلا فى ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها لولى الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتى ذكر التنبول ان شاء الله تعالى .

﴿ ذكر سماعي بدمشق ومن اجازنى من اهلها ﴾

سمعت بجامع بنى أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الإمام ابى عبد الله محمد بن اسمعيل الجعفى البخارى رضى الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الافاق ملحق الأصاغر بالاكابر شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن ابى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين

مقرىء الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في اربعة عشر مجلسا أولها يوم الثلاثاء منصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين ابى محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالى الاشبيلي الأصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغربل ابن عبد الله بن الغزال الصير في سماع الشيخ ابى العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الإمام سراج الدين ابى عبد الله الحسين بن ابى بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن على بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدى الحنبلي فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته فى جميع الكتاب من الشيخين ابى الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعى المؤرخ وعلى بن ابى بكر بن عبد الله بن روْبة القلانسى العطار البغدادى ومن باب غيرة النساء ووجدهن إلى آخر الكتاب من ابى المنجا عبد الله بن عمر بن على بن زيد بن اللتى الخزاعى البغدادى بسماع اربعتهم من الشيخ شديد الدين ابى الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزى الهروى الصوفى فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادى قراءة عليه وانا اسمع ببوشنج سنة خمس وستين واربعمائة قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن ايمن السرخسى قراءة عليه وانا اسمع فى صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة قال اخبرنا عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربرى قراءة عليه وانا اسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال اخبرنا الإمام أبو عبد الله بن محمد بن اسمعيل البخارى رضى الله عنه سنة ثمان واربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية وبعدها سنة ثلاث وخمسين وممن اجازنى من اهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو الباس الحجازى المذكور سبق إلى ذلك وتلفظلى به - ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن محمد المقدسى ومولده فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدى - ومنهم امام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبى حافظ الحفاظ ومنهم الإمام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى والشيخ الإمام الشريف محى الدين بن يحى بن على العلوى ومنهم الشيخ

الإمام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبدالله بن المعلى الدمشقي ومولده سنه أربع وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري . ومنهم الشيخ الإمام ولى الله تعالى شمس الدين بن عبدالله ابن تمام والشيخان الإخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني . والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الوحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء اجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء وقاضيه شرف الدين الأذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفري مع طائفه من العرب تدعى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها اربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه وإلى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بنى عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون إلى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤن في النوائب وله لجأ الملك الناصر لأنه ولى الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج فلما وصل عقبة أيلة لجأ إلى الحصن واقام به اعواما إلى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان الملك في تلك المدة بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس إلى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأتى به إلى الملك الناصر

فأمر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا إلى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التى يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حسيان لا عمارة بها . ثم إلى وادى بلدح ولا ماء به . ثم إلى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشىء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضا منها جادت بالماء المعين ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤن الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته بشىء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفى وسطها الوادى الأخيضر كأنه وادى جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها وفى الخامس من ايام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحجر حجر ثمود وهى كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك فاسرع براحلته وامران لا يسقى منها أحد ومن عجن به اطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الأحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت إن فى ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما اثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم او دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين

النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة واليها ينتهى تجار نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون فى غد رحيلهم الوادى المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت السنين على الركب فلم يخلص منها إلا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالقى ومنه ينزلون هدية وهى حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفى اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

﴿طيبة مدينة رسول الله ﷺ وشرف وكرم﴾

وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حن الى رسول الله ﷺ وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبى الهاشمى الأبطحى محمد ﷺ تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق رضى الله عنهما وانصرفنا إلى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين ان لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت فى سبيل الله سفرته .

﴿ذكر مسجد رسول الله ﷺ وروضته الشريفة﴾

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهى منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفى الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه ابى بكر الصديق وراس ابى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله ﷺ ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب وراس عمر عند كتفى ابى بكر رضى الله عنهما

وفى الجوفى من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسليما ويقال أيضا هو قبرها والله أعلم وفى وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له مدرج يفضى إلى دار أبى بكر رضى الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره ولا شك أنه هو الخوخة التى ورد ذكرها فى الحديث وأمر النبى ﷺ بإبقائها وسد ماسواها وبازاء دار أبو بكر رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبشرقى المسجد الكريم دار امام المدينة أبى عبدالله مالك بن أنس رضى عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء .

﴿ ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم ﴾

قدم رسول الله ﷺ تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه إلى المدينة فنزل على بنى النجار بدار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربداً لسهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار وهما يتيمان فى حجر أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين وقيل كانا فى حجر أبى أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله ﷺ ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله ﷺ فبنى رسول الله ﷺ المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى تسقيفه فأقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ فى عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والأمر أقرب من ذلك .

قيل : وما ظلة موسى قال ﷺ كان إذا قام أصاب السقف رأسه .

وجعل المسجد ثلاثة أبواب ثم سد باب الجنوب منها حين حولت القبلة وبقى المسجد على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبى بكر رضى الله

عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد فى مسجد رسول الله ﷺ وقال لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ينبغى أن نزيد فى المسجد ما زدت فيه فأنزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الأساس حجارة إلى القامة وجعل الأبواب ستة منها فى كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال فى باب منها ينبغى ان يترك هذا للنساء فارىء فيه حتى اتى الله عز وجل وقال لو زدنا فى هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله ﷺ وأراد عمر أن يدخل فى المسجد موضعا للعباس عم رسول الله ﷺ ورضى عنهما ، فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصب فى المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبى بن كعب رضى الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما إلا بعدساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتى تغسل رأسى فذهب عمر ليتكلم فقال له أبى دع ابا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله ﷺ فقال العباس خطة خطها لى رسول الله ﷺ وبنها معه وما وضعت الميزاب إلا ورجلاى على عاتق رسول الله ﷺ فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها فى المسجد فقال ابى إن عندى من هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا ثم راودهما فباعاه ثم قاما بالغبن فردا البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحى الله اليه إن كنت تعطى من شيء هو لك فأنت أعلم وإن كنت تعطها من رزقنا فاعطها حتى يرضيا وإن اغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لى وقد حرمت عليك بناءه .

قال يا رب فاعطه سليمان فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لى بأن رسول الله ﷺ قاله فخرج أبى إلى قوم من الأنصار فأثبتوا له ذلك فقال عمر رضى الله عنه إما أنى لو لم أجد غيرك أخذت قولك ولكننى احببت ان اثبت ثم قال للعباس رضى الله عنه والله لاترد الميزاب إلا وقدماك على عاتقى ففعل العباس ذلك ثم قال إما إذا اثبتت لى فهى صدقة لله ، فهدمها عمر وادخلها فى المسجد ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه واتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته إلا جهة الشرق منها وجعل له سوارى حجارة مثبتة باعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محراباً .

وقيل إن مروان هو اول من بنى المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد — ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه

وحسنه وبالغ فى اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث إلى ملك الروم أريد ان ابنى مسجد نبينا ﷺ فاعنى فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين الف مثقال من الذهب وأمر الوليد بإدخال حجر ازواج النبى ﷺ فيه فاشترى عمر من الدور مازاد فى ثلاث جهات من المسجد فلما صار إلى القبلة امتنع عبيدالله بن عبدالله بن عمر من من بيع دار حفصة ودار بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على ان لهما ما بقى منها وعلى ان يخرجوا من باقيها طريقا إلى المسجد وهى الخوخة التى فى المسجد وجعل عمر للمسجد اربع صوامع فى اربعة أركانه وكانت إحداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبدالملك نزل بها فأطل عليه المؤذن حين الأذان فامر بهدمها وجعل عمر المسجد محرابا.

ويقال هو أول من احدث المحراب ثم زاد فيه المهدى بن ابى جعفر المنصور وكان امرهم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول انه ان زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه ابو جعفر بأنه إنما اراد هدم دار عثمان رضى الله عنه فكتب اليه إنى قد عرفت الذى اردت فاكفف عن دار عثمان وامر ابو جعفر أن يظل الصحن ايام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن لتكن المصلين من الحر وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع فبلغه المهدى إلى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالأرض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم امر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها الماء وأراد ان يبنى بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناها ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر إن شاء الله قبلة مسجد رسول الله ﷺ قبلة قطع لأنه ﷺ اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان يشير جبريل له إلى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام أشار إلى الجبال فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة فكان ﷺ يبنى وهو ينظر إليها عيانا وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة اول ورود النبى ﷺ المدينه إلى بيت المقدس ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهرا .

﴿ ذكر المنبر الكريم ﴾

وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب إلى جذع نخلة

بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة إلى حوارها وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم التزمه لحن إلى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميما الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن فلما ولى ابو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على اولاهن فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على اولاهن وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر إلى معاوية رضى الله عنه اراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا واظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من اسفله فبلغ تسع درجات .

﴿ ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار اهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطى نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى ﴿ حكاية ﴾

يذكر ان سراج الدين هذا اقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو اربعين سنة ثم انه اراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فراى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها واخبره باقتراب اجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمة الله وابناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد واصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطى من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك .

﴿ ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به ﴾

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت

حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو فى هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها فى كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرام الشريف الإمام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطى المعروف بالترَّاس قديم المجاورة وهو الذى جب نفسه خوفا من الفتنة

﴿ حكاية ﴾

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطى كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه باهله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال أنى أخاف الله ولا أخون من ائتمننى على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة فجب نفسه وغشى عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برىء وصار من خدام المسجد الكرام ومؤذنا به ورأس الطائفين وهو باق بقيد الحياة إلى هذا العهد .

﴿ ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة ﴾

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابرا محتسبا وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها فى سنة ثمانى وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود ويصير بحر الشمس كانها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه الا ويلتهب المواضع من حينه وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت أن أطوف معه فوصلت المطاف واردت استلام الحجر الاسود فلحقنى لهب تلك الحجارة واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته إلا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف ورجعت أجعل بجادى على الأرض وأمشى عليه حتى بلغت الرواق وكان فى ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد ابن محمد بن الفقية أبى الحسن سهل بن مالك الازدى وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشى المكفيف ومنهم ابو مهدى بمكة عيسى بن حزرون المكناسى .

﴿ حكاية ﴾

جاور الشيخ ابو مهدى بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج إلى جبل حراء مع جماعة

من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدى عن الجماعة ورأى طريقاً في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما جولهم فلم يروا له أثرا فظنوا انه سبقهم فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فأفضى به إلى جبل آخر وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه إلى ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة أم غيلان فبعث الله أعرابيا على جمل حتى وقف عليه فأعلمه بحاله فأركبه وأوصله إلى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه إليه وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لى أذكره إن شاء الله من المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد الظهر وأم في التراويح وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسى مدرس المالكية بها وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندى *(حكاية)*

يذكر أن أبا العباس الفاسى تكلم يوما مع بعض الناس فانتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مركبا صعبا عفا الله عنه فقال الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام لم يعقب فنمى كلامه إلى أمير المدينة طفيل ابن منصور بن جماز الحسنى فأنكر كلامه ويحق إنكاره وأراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ويذكر أنه بعث من اغتاله وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

(ذكر أمير المدينة الشريفة)

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم أن كبيشاً خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الأيام فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وابناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون با لثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبراً لعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذى ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسى .

(ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة)

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقى المدينة المكرمة ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع فأول مايلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنهما وهى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وأم الزبير بن العوام رضى الله عنه

وأمامها قبر امام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريم ابراهيم بن رسول الله ﷺ وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو المعروف بأبى شحمة وبازائه قبر عقيل بن ابى طالب رضى الله عنه وقبر عبدالله بن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما وبإزائهم روضة قبور أمهات المؤمنين بها رضى الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وقبر الحسن بن على بن ابى طالب عليهم السلام وهى قبة ذاهبة فى الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيسع ورأس الحسن إلى رجلى العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح بديعة الالتصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل وبالبقيسع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم إلا انها لايعرف اكثرها وفى آخر البقيسع قبر أمير المؤمنين ابى عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن ابىطالب رضى الله عنها وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق النخل وبه المسجد الذى أسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم يتبرك الناس بالصلاة فيسه ، وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ وفى قبلى المسجد دار كانت لأبى أيوب الأنصارى ويليها دور تنسب لأبى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم وبازائه بئر اريس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي ﷺ بعد أن كان اجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى اللهعنه .

ومن المشاهد فيه حجر الزيوت بخارج المدينة الشريفه يقال أن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي ﷺ . وإلى جهة الشمال منه بئر بضاعه . وبإزائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم احد وقال قد قتلت نبيكم وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله ﷺ عند تحزب الأحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال أن عمر بناه لعزاب المدينة وأمامه إلى جهة الغرب بئر رومه التى اشترى امير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ، ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذى قال فيسه رسول الله ﷺ تسليما إن أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو بجوار

المدينة الشريفه على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله ﷺ ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون فى احد رضى الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفى طريق احد مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب إلى سلمان الفارسى رضى الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول ﷺ وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكبير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله ﷺ وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل وأضافنى بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن شنان وصحبنى أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلى بن حجرٌ الأموى .

(حكاية)

لما وصلنا إلى المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ذكر لى على بن حجر المذكور انه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع منى واحفظ عنى (طويل)

هنيأ لكم يا زائرين ضريحه　　امنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبة　　فطوبى لمن يضحى بطوبة او يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل إلى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند فى سنة ثلاث واربعين فنزل فى جوارى وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند فأمر بإحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فأعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بإنزاله واعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتبا فى كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربى فصحبه على بن حجر المذكور وواعده على ان يزوجه بنته وانزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد فاتفق الغلام والجارية على اخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما اثراً ولا

للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيته بين يدى الملك فأمر أن يخلف له ذلك فيبعث اليه من يعلمه بذلك فوجدوه قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفهما الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذى الحليفة الذى أحرم منه رسول الله ﷺ وبالمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادى العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مفردا ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ وأنجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجرى ماؤها موضع القليب الذى سحب به أعداء الله المشركون وهو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبإزائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم أهل تلك البلدة انهم يسمعون هنالك مثل اصوات الطبول فى كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله ﷺ الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة وامامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة رسول الله ﷺ وبين بدر والصفراء نحو بريد فى واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهى برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاث وفى منتهاها وادى رابع يتكون فيه المطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خليص ومررنا بعقبة السويق وهى على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلط بالسكر والأمراء يملؤن منه الأحواض ويسقونها الناس ويذكرون أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يكن مع اصحابه طعام فاخذ من رملها فاعطاهم إياه فشربوه

سويقا ثم نزلنا بركة خليف وهى فى بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد فى قنة جبل وفى البسيط حصن خرب وبها عين فوارة ضنعت لها أخاديد فى الأرض وسربت إلى الضياع وصاحب خليص شريف حسنى النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا إلى عسفان وهى فى بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفى موضع منه بلاط على صورة درج وأثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب إلى على عليه السلام ويقال انه أحدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى ثم أدلجنا من هذا الوادى المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوإ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد ﷺ ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا من بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل فى برود الجمال محفوفة بوفود الرحمن موصلة إلى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبى ﷺ تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغتنا دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم .

ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا فى القلوب فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلا أسفا لفراقها متولها لبعادة عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فأرضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام .

والشوق يحضرها وهى نائية ويمثلها وهى غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق

ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف فى طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لأمر إلهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز فى بصيرة المستبصرين وتبدو فى فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء والمثول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والأخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ماخوله ويديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت فى قصدها تجارته وكتبت فى سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه .

﴿ ذكر مدينة مكة المعظمة ﴾

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل ابى قبيس وهو فى جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو فى جهة منها وفى الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة ابى قبيس أجياد الاكبر واجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهى جبل وستذكر (والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة) بشرق مكة شرفها الله ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى بأعلاها وباب الشبيكة من اسفلها ويعرف أيضا بباب العمرة وهو إلى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما أخبر الله فى كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذى زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شىء تجبى لها ولقد أكلت بها من الفواكة العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الامين ومجاورى بيته العتيق

﴿ ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه ﴾

والمسجد الحرام فى وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق إلى غرب ازيد من اربعمائة ذراع حكى ذلك الأزرقى وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى فى وسطه

ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة واجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ماعدا الجصية التى فى دار الندوة المزيدة فى الحرم وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسى حنايا يجلس بها المقرؤن والنساخون والخياطون وفى جدار البلاط الذى يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربى فيه سوارى جصية وللخليفة المهدى بن الخليفة ابى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه وفى أعلى جدار البلاط الغربى مكتوب أمر عبد الله محمد المهدى امير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته فى سنة سبع وستين ومائة .

﴿ ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما ﴾

والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التى من الركن العراقى الى الحجر الأسود اربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى الى الركن الشامى وعرض صفحتها التى من الركن العراقى الى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية واربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى الى الركن العراقى واما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد الصقت بابدع الالصاق واحكمه وأشده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة فى الصفح الذى بين الحجر الاسود والركن العراقى وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الأرض احدعشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة اشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح فى يوم مولد النبى ﷺ ورسمهم

فى فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلال ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفى أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة إلى الله فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر اربع خطا وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض وهى تتلألأ عليها نورا وإشراقا وتكسو جميعها من الأعلى الى الارض ومن عجائب الآيات فى الكعبة الشريفة ان بابها يفتح والحرم الغاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم فيدخلونها اجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى احدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه او يبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

﴿ ذكر الميزاب المبارك ﴾

والميزاب فى أعلى الصفح الذى على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب فى الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار .

﴿ ذكر الحجر الأسود ﴾

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر مادخل منه فى الركن وفيه اربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطى لعنه الله كسره وقيل ان الذى كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجلى منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ان لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول النبى ﷺ انه يمين الله فى ارضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق اليه وفى القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول الحرم ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى فى طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقى وهو إلى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامى وهو إلى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق .

﴿ ذكر المقام الكريم ﴾

إعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقى موضعاً طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبى ﷺ الى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقى ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الحرام إذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الشريف يقابل ما بين الركن العراقى والباب الشريف وهو إلى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الشريف قدر ماتصل أصابع الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتى الطواف وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى إمام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك .

﴿ ذكر الحجر والمطاف ﴾

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق وارتفاعه خمسة اشبار ونصف شبر وسعته اربعة اشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب وبين مايقابله من جدار الحجر على خط استواء اربعون شبرا وللحجر مدخلان احدهما بينه وبين الركن العراقى وسعته ستة اذرع وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامى وسعته أيضا ستة أدرع وبين المدخلين ثمانية واربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا فى الجهة التى تقابل المقام الشريف فانها امتدت اليه حتى احاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل ابيض وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

﴿ ذكر زمزم ﴾

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما اربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض وتنور البئر المباركة فى وسط القبة مائلا إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص ودوره اربعون شبرا وارتفاعه اربعة اشبار ونصف شبر وعمق البئر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارت بداخل سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة اشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضى الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة والكتب التى للحرم الشريف وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله ﷺ تسليما وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هـــذا المصحف الشريف وفتحوا باب الكعبة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه فى مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلى قبة العباس رضى الله تعالى عنه

على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية .

﴿ ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ﴾

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب، وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج إلى المسعى ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى رحمه الله علما على طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ومنهما باب اجياد الأصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضى الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبى ﷺ مفتح على بابين ومنها باب بنى شيبة وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال امام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بنى شيبة لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لأنه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة ، ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا اليه وهى تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد وباب العمرة واحد وهو من أجامل بواب الحرم وباب ابراهيم واحد والناس مختلفون فى نسبته فبعضهم ينسبه إلى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح انه منسوب إلى ابراهيم الخوزى من الأعاجم وباب الحزوة مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس إحداهن على ركن أبى قبيس عند باب الصفا والأخرى على ركن باب بنى شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذى تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة إلى ان غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع فى داخلها غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه

كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الأقشهرى وخارج باب ابراهيم بتر تنسب كنسبته وعنده أيضاً دار الشيخ الصالح دانيال العجمى الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان ابى سعيد تاتى على يديه وبمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات ،سكنته ايام مجاورتى بمكة المعظمة وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرانى ودخل يوما إلى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضى الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من اربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شيء سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لى استر على مارأيت .

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودور لها ابواب تفضى إلى الحرم ،منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابى وسواها ،ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بمقربة من باب الرسول ﷺ وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبى ﷺ ويذكر أن النبى ﷺ سأل عن رجل فنطق ذلك الحجر وقال يارسول الله انه ليس بحاضر .

﴿ ذكر الصفا والمروة ﴾

ومن باب الصفا الذى هو من ابواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة وبين الصفا والمروة اربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة للمروة خمس درجات وهى ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم عن يسار الساعى إلى المروة والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب على من أبواب الحرم أحدهما فى جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والأخرى تقابلها وبين الميل الأخضر والميلين

الأخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البزازون والعطارون عند باب شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهى الآن رباط يقطنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين احدهما فى السوق المذكور والآخر فى العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبى نمى وسنذكره

﴿ ذكر الجبانة المباركة ﴾

وجبانة مكة خارجة باب المعلى ويعرف ذلك الموضع بالحجون واياه عنى الحارث ابن مضاض الجرهمى بقوله (طويل)

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا　　صروف الليالى والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء إلا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن اهل مكة علمها فلا يعرف منها إلا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبى ﷺ كلهم ما عدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبى ﷺ وعليهم أجمعين وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين ابى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهم اجمعين وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذى بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق .

﴿ ذكر بعض المشاهد خارج مكة ﴾

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضاً الأبطح وهو يلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بنى كنانة الذى

نزل به رسول الله ﷺ ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبدالله بن عمر رضى الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ومنها ثنية كدى (بضم الكاف) وهى بأعلى مكة ومنها دخل رسول الله ﷺ فى حجة الوداع إلى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهى بأسفل مكة ومنها خرج رسول الله ﷺ عام الوداع وهى بين جبلين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر ويقال انه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الراكب إذا صدروا عن منى وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه يقال ان النبى ﷺ قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل إلى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ فى حجة الوداع مع اخيها عبدالرحمن رضى الله عنه وأمره ان يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه فى كل يوم رغبة فى الأجر والثواب لأن من المتعمرين من يمشى فيه حافيا وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبى الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق .

وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأوانى الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهى بعيدة القعر جداً والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر .

﴿ ذكر الجبال المطيفة بمكة ﴾

فمنها جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو احد الأخشبين وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الأسود وبأعلاه مسجد واثر رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى

جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر ان جبل ابي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الأمين لأنه أدى الحجر الذى استودع فيه الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال ان قبر آدم عليه السلام به وفى جبل ابي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر واجياد الأصغر ومنها جبل الطير وهو على اربعة عن جهتى طريق التنعيم يقال انها الجبال التى وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله فى كتابه العزيز عليه أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب فى الهواء عالى القنة وكان رسول الله ﷺ يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه اتاه الحق من ربه وبدا الوحى وهو الذى اهتز تحت رسول الله ﷺ فقال ﷺ إثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ .وروى ان العشرة كانوا معه .

وقد روى أيضا أن جبل ثبير اهتز تحته أيضا ومنها جبل ثور وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفى الغار الذى أوى اليه رسول الله ﷺ حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبما ورد فى الكتاب العزيز ذكر الأزرقى فى كتابه ان الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ وقال إلى يا محمد إلى إلى فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله ﷺ الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه بإذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار فقالوا هاهنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا مادخل أحد هنا وانصرفوا فقال الصديق يارسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب بقدرة الملك الوهاب .

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبي ﷺ تبركا بذلك فمنهم من يتاتى له ومنهم من لا يتاتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله واهل تلك البلاد يقولون انه من

كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح قال ابن جزى اخبرنى بعض أشياخنا الحجاج الأكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلى هذا الشق الذى يدخل منه حجرا كبيرا معترضا فمن دخل من من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوى الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذى ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجذب الى خارج من ودخل منه مستلقيا على ظهره أمكنه لأنه إذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه فى الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار (رجع)

(حكاية)

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من اصحابى احدهما الفقيه المكرم ابو محمد عبد الله ابن فرحان الأفريقى التوزرى والآخر أبو العباس احمد الأندلسى الوادىآشى أنهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك فى أوان اشتداد الحر وحمى القيظ فلما نفدما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار أخذا فى الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد فرحان عن المشى جملة وألقى بنفسه الى الأرض ونجا الاندلسى بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى افضى به الطريق الى اجياد فدخل الى مكة شرفها الله تعالى وقصدنى واعلمنى بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزرى وانقطاعه فى الجبل وكان ذلك فى آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادى نخلة وكان إذ ذاك بمكة فأعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به فأعلمته بخبره فبعث جماعة من اهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه وكان من أمر عبد الله التوزرى انه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد فى نفسه قوة وانعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا إلى ان بدت له دابة فقصد

قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حمارا له وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثانى متغيراً كانه قام من قبر

﴿ ذكر اميرى مكة ﴾

وكانت إمارة مكة فى عهد دخولى اليها للشريفين الأجلين الأخوين اسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنى الأمير أبى نمى بن ابى سعد بن على بن قتادة الحسنيين ورميثة اكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الأولاد احمد وعجلان وهو امير مكة فى هذا العهد وثقبه وسند وام قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار اخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

﴿ ذكر اهل مكة وفضائلهم ﴾

ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم انهم متى صنع احدهم وليمة يبدأ فيها بالطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم واكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس اخبازهم فاذا طبخ احدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها او نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتى الرجل من اهل مكة إلى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك الصبى فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه واللحم والخضر فى الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احداً من الصبيان خان الامانة فى ذلك قط بل يؤدى ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك اجرة معلومة من فلوس اهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس واكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابداً ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الأخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف

بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة وغيره سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها

﴿ ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها ﴾

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام العالم محيي الدين الطبرى وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة لمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير فى المواسم المعظمة وخصوصا فى مولد رسول الله ﷺ فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه يجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضى مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبرى وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لى انه ينشىء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبدالله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع أبى زيد عبدالرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وامتع ببقائه واهله من تلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببنى حيون من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من اهل مكة بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة فى جميع أوقاته حي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائبا .

﴿ حكاية مباركة ﴾

رأيت أيام مجاورتى بمكة شرفها الله وانا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية النبي ﷺ فى النوم وهو قاعد بمجلس التدريس فى المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله ﷺ وجعل يده فى يد رسول الله ﷺ وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وان لا أرد من بيتى مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول فى نفسى كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة

بالقفطان كان يلبسها فى بعض الأوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياى فسرّبها وبكى وقال لى تلك الجبة اهداها بعض الصالحين لجدى فأنا البسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يردسائلا خائبا وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به إلى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت ابدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضى نجم الدين الطبرى فشك فى طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويرى من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده أعواما وسافر بها إلى المدينة الشريفة ومعها اخوها شهاب الدين فحنث فى يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة، ومن اعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين احمد بن على من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وابناء السبيل وهو اكرم فقهاء مكة ويدان فى كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها الله عنه وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لأنه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادى الأصل المكى المولد وهو نائب القاضى نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى والناس يهابونه لسطوته .

(حكاية)

كان تقى الدين المصرى محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق فى بعض السنين ان اتى امير الحاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده فقال له تقى الدين ان لم تقطعها بحضرتك وإلا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه فأمر بقطع يده فى حضرته فقطعت وحقدها لتقى الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لأن له حسبا من الأميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى احدهم هدية من عمامة او شاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فأقام تقى الدين بمكة اعواما ثم عزم على الرحلة وودع الأميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقى الدين وزجره فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبرى شقيق نجم الدين المذكور من اهل الفضل والإحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشى من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفقيه

محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه اعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه فى البركة وكان إذا أراد الصلاة ربما صلى الإمام الشافعى وهو يقول نويت نويت فيصلى من غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر .

﴿ ذكر المجاورين بمكة ﴾

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفى المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن اسعد اليمنى الشافعى الشهير باليافعى كثير الطواف آناء الليل واطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهداً للكعبة الشريفة إلى ان يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلى الصبح وكان متزوجا بينت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو إلى ابيها حالها فيأمرها بالصبر فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفونى كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر فى كل يوم من التنعيم ويعتمر فى رمضان مرتين فى اليوم اعتمادا على ما فى الخبر عن النبى ﷺ انه قال عمرة فى رمضان تعدل حجة معى ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبى كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين توفى بمكة ومنهم الصالح ابو بكر الشيرازى المعروف بالصامت كثير الطواف اقام بمكة اعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمى كثير الصوم والتلاوة والطواف والشيخ الصالح برهان الدين العجمى الواعظ كان ينصب له كرسى تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب والصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصرى مقرىء مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده اهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنهم ويكسوهم، والصالح العابد عز الدين الواسطى من اصحاب الأموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير فى كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى ان توفى ، والفقيه الصالح الزاهد ابو الحسن على بن رزق الله الانجرى من اهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة سنينا وبها وفاته كانت بينه وبين والدى صحبة قديمة ومتى اتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوى بالليل إلى مسكنه برباط ربيع وهو من احسن

الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا ويندروا له النذور ومن أهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه فى السنة الآتية وأصابتها الجوائح .

﴿ حكاية فى فضيلة ﴾

أتى يوما غلمان الأمير أبى نمى صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالأمير أبى نمى فأتى باب الرباط بنفسه واعتذر إلى المساكين الساكنين واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان فى أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغمارى من أصحاب أبى الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة ، ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن على بن فرغوس التلمسانى ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلالة .

﴿ حكاية ﴾

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الأمير عطيفة وطلبه بأداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين الف درهم نقرة وعاد إلى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن عيسى بن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملكها وسيذكر أمره فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبه حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا وجهه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التى خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته وهى من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معها خمسين ألف درهم ليشترى له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهما من الأموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب إليها الصبر السقطرى خرج عليهما لصوص الهند فى مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل

منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وسلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا إلى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحد إلا حين القتال ولا يغرقونه وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش واسمه (بفتح اللام الأولى وإسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتى إليهم من بغداد فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة ابى العباس ابن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر إلى الهند فلما وصل كنبايت وهى على مسيرة أربعين يوما من دهلى حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه امر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه إلى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكسى الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز الخليفة المنتصر العباسى وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسا الخلعة الثالثة الامير قبوله الملقب بالملك الكبير وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات فى كل طبقة طائفة من المغنين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدى الفيل

يطاف عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان وانزل بدار تقرب من دار الملك وبعث له اموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها اهل الطرب واهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم من قدم السلطان من سفر وامر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه ان يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ويبعث له سواه من يظهر هكذا نص عليه كتابه اعتقاد منه فى الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب إلى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة الف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتاب واحد الأحجار ودفع سائرها الأمرائه واتفقوا على ان يكتب لملك الهند بما طلب فوجهوا الشهود إلى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمى ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الأبلة إلى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه فاكرم مثواهم وجهز لهم مركبا إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها واميرها يومئذ مقبول التلنكى أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له ان الشيخ سعيد إنما جاءكم بالتزوير والخلع التى ساقها انما اشتراها بعدن فينبغى أن تثقفوه وتبعثوه لخوندعالم وهو السلطان فقال له الأمير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا إلا بأمره ولكنى أبعثه معك ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان وكتب به أيضا صاحب الاخبار فوقع فى نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر فمنع رجب من الدخول عليه وزاد إكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه واكرمه

وكان متى دخل اليه يقوم اليه و بقى الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة ايام مجاورتى بها حسن المغربى المجنون وامره غريب وشانه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما لولى الله تعالى نجم الدين الاصبهانى ايام حياته

﴿ حكاية ﴾

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى فى طوافه بالليل فقيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال يا حسن ان أمك تبكى عليك وهى مشتاقة إلى رؤيتك وكانت من إماء الله الصالحات افتحب ان تراها قال له نعم ولكنى لا قدرة لى على ذلك فقال له نجتمع ها هنا فى الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهى ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو فى اثره إلى باب المعلى فامره ان يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة اتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشىء مما جرى واقام عندها نصف شهر واظن ان بلده مدينة اسفى ثم خرج إلى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف انت فقال ياسيدى إنى اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتى وغبت عنه هذه الأيام واحب ان تردنى اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره ان يفعل كفعله فى مكة شرفها الله من تغميض عينيه والإمساك بذيله ففعل ذلك فإذا به فى مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشىء مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له اين كنت يا حسن فى غيبتك فأبى أن يخبره فعزم عليه فاخبره بالحكاية فقال ارنى الرجل فاتى معه ليلا وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدى هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال اسكت اسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقى بالحرم موطها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه وإذا جاع خرج إلى السوق التى بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما أحب لا يصده احد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء فى بيعه وربحه ومتى اتى السوق تطاول اهلها باعناقهم اليه كل منهم يحرص على ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى أحب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه إلى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

﴿ ذكر عادة اهل مكة فى صلواتهم ومواضع ائمتهم ﴾

فمن عادتهم ان يصلى أول الأئمة إمام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الأمر وصلاته

خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل عليه السلام فى حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فإذا صلى الإمام الشافعى صلى بعده إمام المالكية فى محراب قبالة الركن اليمانى ويصلى إمام الحنبلية معه فى وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ثم يصلى إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين يدى الأئمة فى محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلى بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكى بركوع الشافعى وسجد الحنفى بسجود الحنبلى وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذى يسمع طائفة لئلا يدخل عليه السهو

﴿ ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة ﴾

وعادتهم فى يوم الجمعة ان يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقى ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فإذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون إعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمى وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان عن جانبى المنبر فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب فى الدرج الثانى ضربة ثم فى الثالث أخرى فاذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبل الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويقول فى اثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ماطاف بهذا البيت طائف ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة ويترضى عن الخلفاء

الاربعة وعن سائر الصحابة وعن النبى صلى الله عليه وسلم وسبطيه وامهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول ثم للسيدين الشريفين الحسنيين اميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابنى ابى نمى بن ابى سعيد بن على بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فلما فرغ من خطبته وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم

﴿ ذكر عادتهم فى استهلال الشهور ﴾

وعادتهم فى ذلك ان يأتى أمير مكة فى أول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع فى طواف اسبوع ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم فعند ما يكمل الامير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا فى السبعة اشواط فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرا او إذا قدم من سفر أيضا

﴿ ذكر عادتهم فى شهر رجب ﴾

وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج فى أول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجال يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء ويلقفونها والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلى وأحمد ابنى صبيح وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين ايديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويسيرون حتى ينتهوا إلى الميقات ثم يأخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمى باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج إلى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير إلى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد يلبسون فيه أحسن

الثياب ويتنافسون فى ذلك

﴿ ذكر عمرة رجب ﴾

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله وهى متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعباد وخصوصاً أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل واحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهى كالقباب المضروبة ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتى الطريق والشمع والمشاعل أمام الهوادج والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين فترق النفوس وتنهمل الدموع فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعى بين الصفا والمروة بعد مضى شىء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات على هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نوراً وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب إلى على رضى الله عنه والأصل فى هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى إلى الأكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد وكان عهد عبد الله مذكورا اهدى فيه بدنا كبيرة وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم وأقاموا أياما يطعمون ويطعمون شكر الله على ما وهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كانت عليها فى أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها فى عهد قريش وكانوا اقتصروا فى بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمة الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغير فعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيله وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شظف من العيش ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم

ووقع الموت فى مواشيهم ومتى ايصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجتهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين وبلاد السرو التى يسكنها بجيله وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات وأهلها فصحاء بالألسن لهم صدق نية وحسن اعتقادهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين بأستارها داعين بأدعية يتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطى أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم الإيمان يمان والحكمة يمانية وذكر أن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم عجيب كله وقد جاء فى أثر زاحموهم فى الطواف فإن الرحمة تنصب عليهم صبا

﴿ ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان ﴾

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى اعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وافذاذا والاعتمار ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعة لكل جماعة أمام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر يتلألأ الأرض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن فى كل ركعة بأم القرآن وسوة الإخلاص يكررونهما عشر وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

﴿ ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم ﴾

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الأئمة فرقا وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارىء يصلى بجماعة فيرتج المسجد لأصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى

الحجر منفردا والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة وهى عشرون ركعة يطوف إمامهم وجماعته فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها أن تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة كان ذلك إعلاما بالعودة إلى الصلاة ثم يصلى ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم فيقوم داعيا ومذكراً ومحرضا على السحور فى سائر الصوامع فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل وفى ليلة وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضى والفقهاء والكبراء ويكون الذى يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر أعظم من تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشى الأبصار شعاع الأنوار ويتقدم الإمام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدىء قراءة سورة القدر وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة فى الليلة التى قبلها وفى تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الإمام فى تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم وانفض الجميع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

﴿ ذكر عادتهم فى شوال ﴾

وعادتهم فى شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى

أبى قبيس ويقيم المؤذنون فى ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف به يصلون صلاة العيد لأنه لا موضع أفضل منه ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه الى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة أمامه وهو لابس السواد فيصلى خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

﴿ ذكر احرام الكعبة ﴾

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامه ونصف من جهاتها الأربع صونا لها من الأيدى ان تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة

﴿ ذكر شعائر الحج وأعماله ﴾

واذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات بكرة وعشية اشعارها بالموسم المبارك ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب أثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى ايقاد الشمع ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون فى طريقهم بوادى محسر ويهرولون وذلك سنة ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن ابى جعفر المنصور زوجة امير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة اميال وكذلك بين منى ومكة ايضا خمسة اميال ولعرفة ثلاثة اسماء وهى عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات

بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلى عرفة بطن عرنة الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثير من الناس وحذروهم الزحام فى النفر واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرفة فيبطل حجهم وجبل الرحمة الذى ذكرناه قائم وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفى أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضى الله عنها وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفى قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيه الناس وفى أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التى كان موقف النبى صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذى يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الاراك وبه اراك اخضر يمتد فى الأرض امتدادا طويلا وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكى بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصرى يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت فى تلك السنة ابنة الملك الناصر وهى زوجة أبى بكر ابن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهى بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامى سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخر فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والأمر فى ذلك واسع ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمى جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر لما

رموها توجه أكثر الناس بعدأن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الافاضة ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

﴿ ذكر كسوة الكعبة ﴾

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون فى اسبالها على الكعبة الشريفة وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفى سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدى الناس والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة وفى هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه فى الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفى هذه السنة ذكرا اسم السلطان أبى السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

﴿ ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى ﴾

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح بحاء ين مهملين وهو من أهل الموصل وكان يلى امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى فى صحبة الأمير

البهلوان المذكور اكترى لى شقة محارة إلى بغداد ودفع إجارتها من ماله وأنزلنى فى جواره وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مرفى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لايحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجاويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفى هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض وإذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لازاد معه وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لاقدرة له على المشى كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه السكنية الشريعة فما أعجب أمرها فى الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذى هو آية الندى والفضل أمير المسلمين أبى سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر إلى يوم الدين (رجع) وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نورا والليل وقد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر إلى عسفان ثم إلى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادى السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم احداهما بعد الصبح والأخرى بالعشى ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء واقمنا بها يوما مستريحين ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا واقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها فى الأرض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الأرض مد البصر فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة وهى مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة معتدل فى كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فيحفر عن الماء فى الجفار

ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار إلا أنه زعاق ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيداء من الأرض وفي أعلاه ثقب نافذة تخرقه الريح ثم رحلنا منه إلى وادي الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى فإذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد ومنه إلى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا اميري العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الأمير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع الأجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم نزلنا زرود وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قدارادروها شبه الحصن وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة او بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها اجرها ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصانع ممتلىء بالماء ثم أسرينا منه

واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور الامشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهنى الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحواه فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الاسلام واذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستاصل الله شافتهم وكان امير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضى الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على أبي طالب رضى الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر على عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

﴿ ذكر الروضة والقبور التي بها ﴾

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة ايام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العلية فان اذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فانتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهى مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفى وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان احدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثانى قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر على رضى الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده فى ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضى إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم انها قبر على رضى الله عنه فمنها ان فى ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه او ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولى الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم احضر تلك الليلة لكنى رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثانى من أصبهان والثالث من خرسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبرونى انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وإنما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون فى الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم فى الأسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا فى على رضى الله عنه ومن الناس فى بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا إذا برىء ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتى به الى الروضة فيجعله النقيب فى الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال مالا يضبط لكثرته

﴿ ذكر نقيب الأشراف ﴾

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب

الأمراء الكبار فى سفره وله الأعلام والأطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين بن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاوس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم ابن مهنى بن جماز بن شيحة الحسينى المدنى

(حكاية)

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاوس فاتفق اهل العراق على تولية ابى غرة نقابة الأشراف وكتبوا بذلك إلى السلطان أبى سعيد فامضاه ونفذ له اليرليغ وهو الظهير بذلك وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف فى الاموال تصرفا قبيحا فرفع أمره إلى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهراً أنه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضا بطوس وكان قصده الفرار فلما زار على بن موسى قدم هراة وهى آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاوز وادى السند المعروف ببنج آب ضرب طبوله وأنفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا إلى المدينة المسماة باوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب فى عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من التجار والرجال ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الأطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافداً على ملك الهند فرجع الطلايع الى الأمير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشية وكان مولعا بذلك ويذكر أنه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الأطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا إلى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الأطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الأعلام وعادة أهل

الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا إلا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله إلا في السفر وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل إلا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الأمراء فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك وكان الأمير كشلى خان والخان عندهم أعظم الأمراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعو بالعم لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه قد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك إلى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطبال فلم يرعه إلا السلطان في موكبه فتقدم الشريف إلى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذى جاء به فأخبره ومضى السلطان حتى لقى الأمير كشلى خان وعاد إلى حضرته ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره .

وكان الملك عازما على السفر إلى مدينة دولة اباد وتسمى ايضا بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) وتسمى ايضا بالدونجر (دوكير) وهى على مسيرة اربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك .

فلما شرع الملك في السفر بعث إلى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا وقال لرسوله اليه قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاده وإن أراد السفر معنا فهى نفقته في الطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهى نفقته حتى نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هى عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير احمد بن اياس المدعو بخواجة جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وبه يدعوه سائر الناس فإن من عادتهم أنه متى سمى الملك احدا باسم مضاف إلى الملك من عماد أو ثقة أو قطب باسم مضاف إلى الجهان من صدور غيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فاكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دور اباد وأمره أن تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج إلا بإذنه وهو محب في الغرباء فقليلا ما يأذن لأحدهم في السراح فأراد الفرار

من طريق الساحل فردمنه وقدم الحضرة ورغب من الوزير ان يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فأتى بهما فى بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه ان يتصل لأحد من اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع فى جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره إلى ان توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه أوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق واهل الهند. لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ولو بلغ ماعسى ان يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من اصحابه حتى يأتى مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له اخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف ابى عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلى بناره خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها اخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما فى كفالة وبينهما الشريف الفاضل ابى عبد الله محمد بن ابى القاسم بن نفيس الحسيني الـكربلائى الشهير ببلاد المغرب بالعراق وكان تزوج أمهما بعد موت ابيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيرا .

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر فى تلك الاقطار إلا فى صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى وخرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط .

﴿ مدينة واسط ﴾

وهى حسنة الأقطار كثيرة البساتين والاشجار بها أعلام يهدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتى اهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطى لكل متعلم بها كسوة فى السنة ويجرى له نفقته كل يوم ويقعد هو واخوانه واصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط اقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس احمد الرفاعى وهو بقرية تعرف بام عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقى الدين ان يبعث معى من يوصلنى اليها فبعث معى ثلاثة من عرب بنى أسد وهم قطان تلك الجهة واركبنى فرساً له وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بنى أسد ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى إلى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ احمد كوجك حفيد ولى الله ابى العباس الرفاعى الذى قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارة قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء فى الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا فى السماع وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفؤها جميعا وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه

﴿ حكاية ﴾

كنت مررت بموضع يقال له افقانبور من عمالة هزارامروها وبينها وبين دهلى حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك فى أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل فى إبان القيظ وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من إنسان او بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصـــل الى هنالك جماعة من الفقراء فى أعناقهم

اطواق الحديد وفى أيديهم وكبيرهم رجل اسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب منى كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالختار (وسيأتى ذكره) ان يأتى بالحطب فوجه منه نحو عشرة أحمال فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا وأخذوا فى السماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب منى كبيرهم قميصا فأعطيته قميصا فى النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار ويضربها باكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الى القميص والنار لم تؤثر فيه شيئا البتة فطال عجبى منه ولما حصلت لى زيارة الشيخ ابى العباس الرفاعى نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التى كنت فيها قد رحلت فلحقتها فى الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا بوادى الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة .

﴿ مدينة البصرة ﴾

فنزلنا بها برباط مالك بن دينار وكنت رايت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسألت عنه فقيل لى هو مسجد على بن ابى طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق مفسحة الأرجاء المونقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت بمجمع البحرين الأجاج والعذب وليس فى الدنيا اكثر نخلا منها فيباع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب .

والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء أضافنى وبعث الى بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بنى حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى ومكارم وفواضل أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكى واهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب

وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه الذى ذكرته ثم يسد فلا يأتونه إلا فى الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهى الانفساح مفروس بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)

(حكاية اعتبار)

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين فقال لى ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور هذه البصرة التى الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها إمامه الذى لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها ولهذا الجامع سبع صوامع إحداها الصومعة التى تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن ابى طالب رضى الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح الجامع ومعى بعض اهل البصرة فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمراً فيها كانه مقبض ملسة البناء فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المقبض وقال بحق راس امير المؤمنين على رضى الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له وانا اقول بحق راس ابى بكر خليفة رسول الله ﷺ تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد الحسين او بالحلة او بالبحرين او قم او قاشان او ساوة او آوة او طوس لهلك فاعله لأنهم رافضة غالية قال ابن جزى قد عاينت بمدينة برشانة من وادى المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير ان يذكر لها احد من الخلفاء او سواهم وفى صومعة الجامع الأعظم بها وبناؤها ليس بالقديم وهى كأحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لا ميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعى جماعة من الناس فأخذ بعض من كان معى بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم ان يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

(ذكر المشاهد المباركة بالبصرة)

فمنها مشهد طلحة بن عبد الله احد عشرة رضى الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة وجامع وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا

وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته رضى الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله ﷺ من الرضاعة رضى الله عنها وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ﷺ ومنها قبر أبى بكرة صاحب رسول الله ﷺ وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادى السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ولا سبيل لزيارته إلا فى جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن ابن أبى الحسن البصرى سيد التابعين رضى الله عنه وقبر عتبة الغلام رضى الله عنه وقبر مالك بن دينار رضى الله عنه وقبر حبيب العجمى رضى الله عنه وقبر سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التوريزى أضافنى فاحسن إلى والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ماهو بوادى سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الماء المالح فيستقى أهل البصرة غير جيد لدورهم ولذلك يقال أن ماءهم زعاق قال ابن جزى وبسبب ذلك كان هواء البصرة الماء غير جيد وألوان أهلها مصفره كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد احضرت بين يدى الصاحب أترجة (سريع)

لله اترج غدا بيننا معبرا عن حال ذى عبره
لما كسا الله ثياب الضنا أهل الهوى وساكنى البصره

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة فى صنبوق وهو القارب الصغير إلى الإبلة وبينها وبين البصرة عشرة اميال فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والبياعة فى ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبدالله التسترى فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادى ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولى رضى الله عنه والنواتية يجرفون فى هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهى الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس

فى مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهى قرية كبيرة فى سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزى عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهى مجدبة لا زرع بها وانما يجلب اليها والماء ايضاً بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء

(سريع)

من مبلغ اندلسا اننى حللت عبادان أقصى الثرا
أوحش ما أبصرت لكننى قصدت فيها ذكرها فى الورى
الخبز فيها يتهادونه وشربة الماء بها تشترى

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة إلى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها اربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لى أهل هذه الزاوية أن بعبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له يأتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه مايقوته شهرا ثم لايرى إلا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شأن إلا طلبه فاشتغل من كان معى بالصلاة فى المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجئت مسجدا خربا فوجدته يصلى فيه فجلست فى جانبه فأوجز فى صلاته ولما سلم اخذ بيدى وقال لى بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادى فى الدنيا وهو السياحة فى الأرض وبلغت من ذلك مالم يبلغه غيرى فيما أعلمه وبقيت الاخرى والرجاء قوى فى رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شأنه وعدنا بالعشى إلى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير ان يأتى عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود إلى زاويته فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له أوصل هذه إلى الضيف الذى قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها اجمعون وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس فى خاطرى الاقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتى فى سفرى ان لا أعود على طريق

سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور ثم إلى عراق العجم ثم إلى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهى صغيرة على ساحل الخليج الذى ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لاشجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق واقمت بها يوما واحدا ثم اكتريت دابة لركوبى من الذين يجلبون الحبوب من رامزا إلى ماجول وسرنا ثلاثا فى صحراء يسكنها الاكراد فى بيوت الشعر ويقال أن اصلهم من العرب ثم وصلنا إلى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاى وميمها مكسورة) وهى مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضى حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من اهل العلم والدين والورع هندى الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل وهو من اولاد الشيخ بهاء الدين أبى زكريا الملتانى وقرأ على مشايخ توريز وغيرها وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا فى بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن .

وفى كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد يطبخون الطعام ثم وصلت مدينة تستر وهى آخر البسيط من بلاد اتابك واول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهى قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والى هذه المدينة ينسب سهل بن عبدالله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب فى نهاية من الصفا شديدة البرودة فى ايام الحر ولم أر كزرقته إلا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها ابواب غير شارعة إلى النهر وعلى جانبى النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزى وفى هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذروان تستر واعجب ... من جمعه ماء لرى بلاده
كمليك قوم جمعت امواله ... فغدا يفرقه على اجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة ولا مثل لأسواقها فى الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان

نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبدالله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور احدهم موكل بأوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر اعجب من ترتيبه ولا ارغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الاربعة من الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من احسن الناس صورة واقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم الق فيمن لقيته مثله .

حضرت يوما عنده ببستان له على شاطىء النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتى الفقراء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد ان قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكينة ووقار وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم ان يكتبوا المسائل في رقاع ويرموا بها إلى الواعظ فيجيب عنها فلما رمى اليه بتلك الرقاع جمعها في يده واخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب واحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر .

﴿ حكاية ﴾

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها في زمان الحر كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه واصابت الحمى اصحابي ايضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا يدعى بهاء الدين الختني فمات بعد سفري وكنت حين مرضي لا اشتهي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به إلي فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى إلي وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام

فى السوق وهلا أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما تشتهيه ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغيره فأتوه به واطبخوا له ما يشاء وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد ، جزاه الله خيراً .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً فى جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا إلى مدينة إيذج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضاً مال الأمير وهى حضرة السلطان أتابك وعند وصولى اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى وله النظر فى كل الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى زاوية تعرف باسم الدينورى وأقمت بها أياما وكان وصولى فى أيام القيظ وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيراً منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب .

﴿ ذكر ملك إيذج وتستر ﴾

وملك إيذج فى عهد دخولى اليها السلطان أتابك افراسياب بن السلطان أتابك احمد واتابك عندهم سمة لجميع من يلى تلك البلاد من ملك وهى تسمى (بلاد اللور) وولى هذا السلطان بعد أخيه اتابك يوسف وولى يوسف بعد ابيه احمد وكان احمد المذكور ملكا صالحاً سمعت من الثقاة ببلاده انه عمر اربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة إيذج اربع واربعون وقسم الخراج اثلاثاً ثلث لنفقة الزوايا والمدارس وثلث لمرتب العساكر وثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان اكثرها فى جبال شامخة وقد نحتت الطرق فى الصخور وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب بأحمالها ، وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة وهى شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الأنهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها اتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك او لم يطلبه فان عادتهم ان يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحماً وحلواء وجميعه من اوقاف السلطان عليها ، وكان السلطان اتابك احمد زاهداً صالحا كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر .

(حكاية)

قدم السلطان اتابك احمد مرة على ملك العراق ابي سعيد فقال له بعض خواصه إن اتابك احمد يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الأمير الجوبان عظيم امراء العراق والأمير سويته امير ديار بكر والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان ابو سعيد وقام اليه وعانقه واجلسه إلى جواره وقال له سن اطا بالتركية ومعناه انت ابي وعوضه عن هديته بأضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا اولاده وفى تلك السنة توفى وولى ابنه اتابك يوسف عشرة اعوام ثم ولى اخوه افراسياب ولما دخلت مدينة إيذج اردت رؤية افراسياب المذكور فلم يتأت لى ذلك بسبب انه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر وكان له ابن هو ولى عهده وليس له سواه فمرض فى تلك الأيام وفى إحدى الليالى أتانى أحد خدامه وسألنى عن حالى فعرفته وذهب ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه اهل السماع بآلاتهم وقال اعملوا السماع حتى يزهج الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له إن اصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ وقد مات المريض المذكور وفى الغد دخل على شيخ الزاوية واهل البلد وقالوا إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء فينبغى لك ان تذهب فى جملتهم فأبيت فأعزموا علي فلم يكن لى بد من المسير وسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئاً رجالا وصبيانا من المماليك وابناء الملوك والوزراء والأجناد قد لبسوا التلابيس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة إلى الأخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين خوندكار ما ومعناه مولاى أنا فرأيت من ذلك امراً هائلا ومنظراً فظيعاً لم اعهد مثله .

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لى يومئذ أنى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا إلى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها إلى أعلى ووجوهها مما يلى أجسادهم وعلى راس كل واحد منهم خرقة او مئزر اسود ، وهكذا يكون

فعلهم إلى تمام اربعين يوما وهى نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوه كاملة .

فلما رأيت بنهات المشور غاصة بالناس نظرت يميناً وشمالا ارتاد موضعاً لجلوسى فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر وفى إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف مثل اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الأسفار فتقدمت منه وانقطع عنى أصحابى لما رأوا إقدامى نحوه وعجبوا منى وأنا لاعلم لى بشىء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت فى الركن المقابل له ثم نظرت إلى الناس وقد رمونى بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم ، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة وأشار إلى أحد القضاة أن أنحط إلى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت أنه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل فقام إليه وجلس فيما بينى وبينه فحينئذ علمت أنه السلطان .

ثم جىء بالجنازة وهى بين أشجار الأترج والليمون وقد ملؤا أغصانها بثمارها وهى بأيدى الرجال فكأن الجنازة تمشى فى بستان والمشاعل فى رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها نهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع أن أذهب معهم إلى المدفن لبعد الموضع فعدت إلى المدرسة

فلما كان بعد أيام بعث إلى السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا يدعونى اليه فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر وصعدنا فى درج كثيرة إلى أن انتهينا إلى موضع لافرش به لأجل ما هم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألنى عن حالى وبلادى وسألنى عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فأجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لى السلطان : هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ، ثم أخذ فى الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لى أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر ثم قال لى باللسان العربى وكان يحسنه تكلم

فقلت له إن كنت تسمع منى أقول لك انت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالزهد والصلاح وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غير هذا وأشرت إلى الآنيتين فخجل من كلامى وسكت واردت الانصراف فأمرنى بالجلوس وقال لى الاجتماع مع امثالك رحمة ثم رايته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلى بالباب فلم اجده فنزل الفقيه محمود فى طلبه وصعد الفقيه فضل يطلبه فى داخل المجلس فوجده فى طاق هنالك فأتى به فأخجلنى بره واعتذرت اليه فقبل نعلى ووضعه على راسه وقال لى بارك الله فيك هذا الذى قلته لسلطاننا لايقدر احد ان يقوله له غيرك والله إنى لأرجو ان يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلى من حضرة إيذج بعد ايام فنزلت بمدرسة السلاطين التى بها قبورهم واقمت بها اياما وبعث إلى السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابى وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عشرة ايام فى جبال شامخة وفى كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ما هو فى العمارة ومنها ما لاعمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفى اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ وهى آخر بلاد الملك وسافرنا منها فى بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة اصفهان

ثم وصلنا إلى بلدة اشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة وإسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة وإسكان الراء وآخره نون) وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقة النهر ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان واسمها كأنه تثنية فيروز وهى مدينة صغيرة ذات انهار واشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فراينا اهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد اوقدوا خلفها وامامها المشـــاعل واتبعوها بالمزامير والمغنيين بأنواع الأغانى المطربة ، فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نيلان وهى كبيرة على نهر عظيم وإلى جانبه مسجد على النهاية من الحسن تصعد اليه فى درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان وابراج الحمام ووصلنا بعد العصر إلى مدينة اصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها إلا انها الآن قد خرب اكثرها بسبب الفتنة التى بين اهل السنة والروافض وهى متصلة بينهم حتى الآن فلايزالون فى قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذى لانظير لها يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذى لامثيل له فى طيب المطعم وعظم الجرم والأعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشان الذى لامثيل له فى الدنيا الا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم وقشره

أخصر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم و تنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه اطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيراً منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتلفين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي أن طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا اطعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الأخرى فطبخوا اطعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها اهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحداً في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء واخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي واحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث إلى الطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم اكن رأيته قبل ولا اكلته

﴿ كرامة لهذا الشيخ ﴾

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فاعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فاتوا به فكساني إياه فاهويت إلى قدميه اقبلهما وطلبت منه أن يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فالبسني اياها في الرابع عشر لجمادى الاخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس من والده أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ولبس علي من الإمام شهاب

الدين ابى حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى ولبس عمر من الشيخ الكبير
ضياء الدين أبى النجيب السهروردي ولبس ابو النجيب من عمه الامام وحيد الدين
عمر ولبس عمر من والده محمد ىن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ
أخي فرج الزنجانى ولبس اخو فرج من الشيخ احمد الدينورى ولبس احمد من
الامام ممشاد الدينورى ولبس ممشاد من الشيخ المحقق على بن سهل الصوفى ولبس
على أبى القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سرى السقطى ولبس سرى السقطى من
داود الطائى ولبس داود من الحسن بن أبى الحسن البصرى ولبس الحسن بن أبى
الحسن البصرى من أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال ابن جزى هكذا أورد الشيخ
أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه أن سريا السقطى صحب معروفا الكرخى
وصحب معروف داود الطائى وكذلك داود الطائى بينه وبين الحسن حبيب العجمى
وأخوه فرج الزنجانى إنما المعروف أنه صحب ابا العباس النهاوندى وصحب
النهاوندى ابا عبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف ابا محمد وربما صحب رويم
ابا القاسم الجنيد واما محمد بن عبدالله عمويه فهو الذى صحب الشيخ احمد الدينورى
الاسود وليس بينهما احد والله اعلم والذى صحب اخا فرج الزنجانى هو عبد الله بن
ابن محمد بن عبد الله والد ابى النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة
الشيخ مجد الدين بشيراز وبينها مسيرة عشرة ايام فوصلنا إلى بلدة كليل (وضبطها
بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينهما وبين اصفهان مسيرة ثلاثة وهى بلدة صغيرة
ذات انهار وبساتين وفواكه رايت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم
ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى
وله مال عريض قد اعانه الله على انفاقه وسبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام
الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها
زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كان المذكور ثم سرنا منها إلى يزدخاص
(وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاى وضم الدال المهمل وخاء معجم
وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبنى
بالحجارة مسقف بها والبلدة على صفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل
به المسافرون عليه باب حديد وهو فى النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها
كل مايحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى اسحاق
ملك شيراز وفى يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصى ولا نظير له فى طيبه وزن الجبنة منه

من أوقيتين إلى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهى صحراء يسكنها الاتراك ثم سافرنا إلى مايين (واسمها بياءين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهى بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الأسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها إلى مدينة شيراز وهى مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والانهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهى كثيرة العمارة متقنة المبانى عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة فى سوقها لا يخالطهم غيرهم حسان الصور نظاف الملابس وليس فى المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق فى حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز وهى فى بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البروده فى الصيف سخن فى الشتاء فينبعث من عين فى سفح جبل هنالك يسمى القليعه ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل فى أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار اهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى إلى سوق الفاكهة وهى من ابداع الأسواق وأنا أقول بتفضيلها على باب البريد من دمشق واهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم فربما اجتمع منهن الألف والألفان بايديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع النساء فى مثل عددهن فى بلدة من البلاد وعند دخولى إلى مدينة شيراز لم يكن لى هم إلا قصد الشيخ القاضى الامام قطب الأولياء فريد الدهر ذى الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ومعنى خداد عطية الله فوصلت إلى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهى من عمارته فدخلت اليه رابع اربعة من اصحابى ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة فى انتظاره فخرج إلى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا اخيه شقيقه روح الدين احدهما عن يمينه والاخر عن شماله وهما نائباه فى القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقنى وأخذ بيدى إلى أن وصل إلى مصلاه فارسل يدى واوما إلى أن اصلى إلى جانبه ففعلت وصلى العصر ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصاغانى وطالعاه نائباه بما جرى لديهما من القضايا وتقدم كبار

المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحا ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وامر خدامه فانزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان ابي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الأمراء خراساني الأصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن راسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل امراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه واصحابه ونزل خارج المدينة ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً تادبا .

﴿ حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة ﴾

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما اسلم السلطان المذكور واسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان عليا ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده انما هو وارث عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك إلى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل إلى البلاد فكان أول بلاد وصل إليها بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام احمد بن حنبل وقالوا لاسمع ولاطاعة وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة ومعهم السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه وهم إثنى عشرة الفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له أنه إن غير الخطبة المعتادة إن زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلوا رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله وكان السلطان امر بأن تسقط اسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولايذكر إلا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل اهل شيراز واصفهان كفعل اهل بغداد فرجعت الرسل إلى الملك فاخبروه بما جرى في ذلك فأمر ان يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك في موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل

القاضى أمر أن يرمى به إلى الكلاب التى عنده وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم فإذا أوتى بمن يساط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر أمامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضى مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشىء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين فأكب على رجلى القاضى يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهى أعظم كرامات السلطان عندهم وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه مادامت تلك الثياب أو شىء منها وأعظمها فى ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب إلى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضى وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه فى جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم القرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التى تضاهى المدن قرية ميمن وهى للقاضى المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلى شيراز وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والجزء الآخر مما يلى بلاد هنج وبال وبلاد اللار فى طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل .

وقد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين ثانية حين خروجى من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفنى وقام إلى فعانقنى ووقعت يدى على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وأنزلنى بالمدرسة حيث أنزلنى أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا بإذن نفسه وذلك هو غاية الأدب عندهم ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت ان ام السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة فى ميراث فصرفهما الى القاضى مجد الدين فوصلتا اليه إلى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضى وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون فى التسجيلات والعقود التى

تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدى به فى شهر ربيع الثانى من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ولاحت على أنواره وظهرت لى بركاته نفع الله به وبأمثاله

﴿ ذكر سلطان شيراز ﴾

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل ابو اسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبى اسحاق الكازرونى نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين الفا من الترك والأعاجم وبطانته الأدنون اليه اهل اصفهان وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح لأنهم أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت رجلا مرة تجره الجنادرة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه فى عنقه فسألت عن شأنه فاخبرت انه وجدت فى يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لأنه يخافهم على نفسه وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفى ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان أمير الأمراء وسيأتى ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها وهى من أعظم بلاد الله مجبى .

ذكر لى الحاج قوام الدين الطمغجى وهو والى المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها الأمير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على ابى اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى فى تلك الحال فان عادة نساء الأتراك ان لا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الأمير حسين ومن معه وقدم على السلطان ابى سعيد مهزوما فأعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضى مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج إلى

الأمير حسن فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى أجمل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين فى أبهة وحفل عظيم وسار فيهم بأحسن سيرة فلمامات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالأقرب منها وهى مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات انهار مطردة واشجار نضيرة واهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة اميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان ابى اسحق ليلا ويقتل ما شاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فأمر السلطان أن تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص إلى قلعته ولم يصب من أصحابه إلا واحدا أتى به إلى السلطان ابى اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فأبى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة فى قلب السلطان ابى اسحاق لما رأى من شجاعته فقال اريد ان أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان فى خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الأمان فقال له مظفر إنى عاهدت الله ان لا انزل اليك حتى تدخل انت قلعتى وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان فى عشرة من اصحابه الخواص .

فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره واكل من طعامه ونزل معه إلى المحلة راكبا فأجلسه السلطان إلى جانبه وخلع عليه ثيابه واعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما ان تكون الخطبة باسم السلطان ابو اسحاق وتكون البلاد لمظفر وابيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

وكان السلطان ابو اسحاق طمح ذات مرة إلى بناء إيوان كايوان كسرى وامر أهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه فاخذوا فى ذلك وكان اهل كل صناعة يباهون من عداهم فانتهوا فى المباهاة إلى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا

نحو ذلك فى براذع الدواب واخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ملابسهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالأجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والى المدينة يقول إن معظم مجباها ينفق فى ذلك البناء وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلكى التوريزى وهو من الكبار كان ابوه نائباً عن وزير السلطان ابى سعيد المسمى على شاه جيلان ولهذا الأمير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك امير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد فى شغل يليق به وعين لنا المرتب والإحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان ابو إسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور فى الإيثار وإجزال العطايا ولكن اين الثريا من الثرى وأعظم ما تعارفنا من اعطيات ابى إسحاق انه اعطى الشيخ زاده الخراسانى الذى اتاه رسولا عن ملك هراة سبعين الف دينار واما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من اهل خراسان وغيرهم .

﴿ حكاية ﴾

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخرسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى المولد من سكان خوارزم يسمى بالأمير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلود مور صاحب خوارزم بهدية إلى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها بأضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الإقامة عنده فصيره فى ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب فرجع إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من اعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر مناً بمنان دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلا مصرية فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه.

﴿ حكاية تناسبها ﴾

اشتكى مرة امير بخت الملقب بشرف الدين الخراسانى وهو الذى تقدم ذكره آنفاً بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائداً ولما دخل عليه اراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت: السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فأحضرا وامر المريض ان يقعد فى إحدى كفتى الميزان فقال يا خوند عالم

لو علمت أنك تفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

﴿ حكاية تناسبهما ﴾

وفد عليه الفقير عبد العزيز الاردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق فتفقه فيه فجعل مرتبه مائةدينار دراهم فى اليوم وصرف ذلك خمسةوعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فأعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر بإحضار صينية من ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وأمر ان يأتى فيها الف دينار من الذهب واخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هى لك من الصينية * ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بأن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايني وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين الف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا * وسنذكر كثيرا من اخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وإنما ذكرنا هذا لما قدمناه من أن السلطان أبا اسحق يريد التشبه به فى العطايا وهو وإن كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء .

﴿ ذكر بعض المشاهد بشيراز ﴾

فمنها مشهد ابن موسى اخى على الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله وبنت عليه طاش خاتون ام السلطان ابى اسحق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون انها تأتى إلى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من اكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء الف واربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسينى فإذا حضر القوم بالمشهد المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف وقرأ القراء بالأصوات الحسنة وأتى بالطعام والفواكه والحلواء فاذا اكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله بعد صلاة الظهر إلى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك * ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى ابى عبدالله خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليهم بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضى مجد الدين اتاه زائرا واستلمه

الخاتون إلى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد احمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعا وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان ابى اسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ ابو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الأولياء شهير الذكر وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند .

﴿ كرامة لهذا الشيخ ﴾

يحكى انه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فأصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لاعمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ ان يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار وهى فى ذلك المحل كثيرة جدا ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ عن أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له وأخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتى به الموضع الذى فيه العمارة فلما رآه اهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الارض بحيث يرونه فجاؤا اليه وتمسكوا به إلى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص فى بعض الايام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معاً وقال للملك اختر مالك فى إحداهما فاختار مافى اليمنى فرمى اليه بما فيها وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لامثل لها وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤونهم إلى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون فى بيوتهم وبين أهليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لايقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر إلى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الإدام ويذهبون فيأكل منه ومافضل علينا تأكله الكلاب والطير وان أكل منه الولد الصغير الذى لايعقل ضربوه وأطعموه روث البقر وهو الذى يطهر ذلك فى زعمهم ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان البقلى من كبار الأولياء وقبره فى مسجد

جامع يخطب فيه وبذلك الجامع يصلى القاضى مجد الدين الذى تقدم ذكره رضى الله عنه وبهذا سمعت عليه كتاب مسند الامام ابى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى قال أخبرتنا به وزيره بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن ابى بكر بن المبارك الزبيدى قال اخبرنا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى قال اخبرنا ابو الحسن المكى ابن محمد بن منصور بن علان العرضى قال اخبرنا القاضى ابو بكر احمد بن الحسن الجرشى عن ابى عباس بن يعقوب الأصم عن الربيع بن سليمان المرادى عن الإمام ابى عبدالله الشافعى وسمعت ايضا عن القاضى مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب مشارق الأنوار للامام رضى الدين ابى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين ابى هاشم محمد بن محمد بن احمد الهاشمى الكوفى بروايته عن الإمام نظام الدين محمود بن عمر الهراوى عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لإطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده او زوجته فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند راس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا إلى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالأصوات الحسان وليس فى معمور الأرض أحسن اصواتا بالقرآن من اهل شيراز ويقوم اهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكأن الميت لم يبرح وذكر لى انهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

(حكاية)

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح إلى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرا فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألنى عن مقدمى فاخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد فاخبرنى انه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التى جلست اليه فيها هى موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بسطا كان تحته والقبر مغطى عليه الواح خشب واراني صندوقا كان بازائه فقال فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح فدفع لى هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتى وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه واردت الانصراف فحلف على وأضافنى بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدى

وكان اشعر اهل زمانه باللسان الفارسي وربما المع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب راس النهر الكبير المعروف بركن اباد وقد صنع الشيخ هنالك احواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمناني وكان من الأمراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

وبمدينة شيراز من الفقهاء الشريف مجد الدين وامره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينار دراهم ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح ابي اسحاق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا اول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون .

﴿ كرامة لبعضهم ﴾

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت اتلوا كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه فدخل علي في اثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرفعت راسي اليه فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له فلم يعد إلي فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولي ولم أره بعد ووصلنا عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم ان يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق فتقضى حاجته باذن الله وهذا الشيخ ابو اسحق معظم عند اهل الهند والصين ومن عادة الركاب في بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبي اسحق نذرا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا

صدقة الشيوخ فكتب لها امر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة فى قالب من الفضة فيضعون القالب فى صبغ احمر ويلصقونه بالامر فيبقى اثر الطابع فيه ويكون مضمنه ان من عنده نذر للشيخ ابى اسحق فليعطه منه لفلان كذا فيكون الامر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فإذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما فى ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ ابى اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها إلى فقراء الزاوية فاتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية ثم سافرنا من كازرون إلى مدينة الزيدين وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن ارقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنهما وهى مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الأسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وامانة وديانة ومن اهلها القاضى نور الدين الزيدانى وكان ورد على اهل الهند فولى القضاء منها بذيبة المهل وهى جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج باخت هذا الملك وسيأتى ذكره وذكر بنيه خديجة التى تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفى القاضى نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاى وهى مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة اربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن اهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائى شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لاماء بها إلا فى موضع واحد يسمى الطرفاوى ووردناه فى اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة

﴿ مدينة الكوفه ﴾

وهى احدى امهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن ابى طالب أمير المؤمنين الا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجه المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان واكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الأعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وافرغت بالرصاص وهى مفرطة الطول وبهذا المسجد اثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبى طالب رضى الله عنه وهنالك ضربه

الشق ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفى الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء ويصل بالجدار القبلى المسجد يقال أنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام وفى آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا أنه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد إليه قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتا الحسين عليه السلام وأما قصر الأمارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فلم يبق إلا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد فى بسيط أبيض فاخبرت أنه قبر الشقى بن ملجم وان أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة ايام وعلى قرب منه قبة أخبرت على انها قبر المختار بن أبى عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهى بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولى لها لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهى مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهى كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها من سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالأكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم بمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أن يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلام وبأيديهم سيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر يأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله ياصاحب الزمان باسم الله

اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الإمام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير محمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده اهل العراق إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التى كانت عنده ثم سافرنا منها إلى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن على عليهما السلام وهى مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد إلا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب استار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون إلى أب واحد لاجل فتنهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها إلى بغداد

﴿ مدينة بغداد ﴾

مدينة دار السلام ، وحضرة الاسلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ، ومقر العلماء وقال ابو الحسن بن جبير رضي الله عنه وهذه المدينه العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية . ومثابة الدعوة الإمامية القرشية فقد ذهب رسمها . ولم يبق إلا اسمها . وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر . إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربها كالمرآة المجلوة بين صفحتين . أو العقد المنتظم بين لبتين فهى تردها ولا تظما وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ . قال ابن جزى وكأن ابا تمام حبيب بن اوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة والنار تطفأ حسنا فى نواحيها
ترجى لها عودة فى الدهر صالحة فالآن اضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز ولت شبيبتها وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا * ووجدوا مكان القول ذاسعة فأطالوا وأطابوا * وفيها قال الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي وأنشدنيه والدي رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني قربا اليها وإن عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضي عنه (طويل)

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله مافارقتها عن قلى لهـا واني بشطي جانبيها لعارف
ولـكنها ضاقت علي برحبهـا ولم تـكن الاقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وانشدنيه والدي رحمه الله غير مامرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشي مضـاعا أزقتها كانني مصحف في بيت زنديق

وفيها يقول القاضي ابو الحسن علي بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدار منيرا فطوت غيها وخاضت هجيرا
واستطابت ربا نسائم بغداد دفكادت لولا البرى ان يطيرا
ذكرت من مسارح الـكرخ روضا لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنب من ربا المحـول نورا واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد في ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات باوجه تبدو اهلتها على اطوقهـا
متبخترات في النعـيم كانمـا خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسي الفداء لهـا فاي محاسن في الدهر تشرق من سنا إشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجداً منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس إلا إنها خربت وحمامات بغداد

كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه أنه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال فيه أيضا انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط احداها يتزر بها عند دخوله والأخرى يتزر بها عند خروجه والأخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم ار هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها في ذلك

﴿ ذكر الجانب الغربي من بغداد ﴾

الجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه وهو في محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

﴿ ذكر الجانب الشرقي منها ﴾

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا

ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء وللغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن على بن عمر القزوينى وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمى وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على ابن على بن أبى البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب المارستانى قال أخبرنا ابو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجرى الصوفى قال اخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودى قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى عن ابى عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى عن ابى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى والجامع الثانى جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

﴿ ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها ﴾

وقبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه قبر المهدى وقبر الهادى وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدى وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفى وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقى وقبر المستكفى وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجد وقبر المستضىء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام ابى حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام أبى عبد الله احمد بن حنبل رضى الله عنه ولا قبة عليه ويذكر انها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبى

بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا إلى آخر الأسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا

﴿ ذكر سلطان العراقين وخراسان ﴾

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خدابنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال إن اسمه خدابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لأن خدا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناهما وقيل إنما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشد ما بين القولين من الخلاف على أن هذا الأخير هو المشهور وكان الأول غيره إليه من تعصب وقيل أن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه للناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها القدر وخدابنده هو الذي أسلم وقدمنا قصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره إذ ذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خدابنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجة ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده

و نفقة تجرى عليه ولما ولى السلطان أبو سعيد و هو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك إلا الإسم ويذكر أنه احتاج فى بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل إليها فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجة ابن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك وأنه بات البارحة عند طغى خاتون وقد بعث إلى وقال لى الليلة أبيت عندك وما الرأى إلا أن تجمع الأمراء والعساكر فإذا صعد إلى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفى الله أمره وكان الجوبان إذ ذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجة بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندى يعرف بالحاج المصرى فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج ركبا فضرب الحاج المصرى السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك أبا سعيد برأسه فرموا به بين يدى فرسه وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره اقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده وميرحسن وهو الأكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن اخت السلطان أبى سعيد من أمه ساطى بك بنت السلطان خدابنده ومعه عساكر التتر وحاميها فاتفقوا على قتال السلطان أبى سعيد وزحفوا إليه فلما التقى الجمعان هرب التتر إلى سلطانهم وأفردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر إلى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه أياد سابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له انه لا يفى بالعهد وقد غدر فيروزشاه بعد أن لجأ إليه وقتله فأبى الجوبان إلا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الصغير جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وادخله المدينة على الأمان ثم غدره بعد ايام وقتله وقتل ولده وبعث براسيهما إلى السلطان ابى سعيد وأما الحسن وطالش فإنهما قصدا خوارزم وتوجها إلى السلطان محمد اوزبك فأكرم مثواهما وانزلهما إلى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب إلى ديار مصر فأكرمه

الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فابى من قبولها وقال انما أريد العساكر لأقاتل أباسعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة اعطى هو للذى يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر واظهر أمور أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى ابى سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا فى التربة التى اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذى جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى

ولما استقل السلطان ابوسعيد بالملك أراد ان يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهى من اجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذى تغلب بعد موت ابى سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوجها أبوسعيد وكانت أحظى النساء لديه والنساء لدى الأتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم إذا كتبوا أمرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابى العظيمة وإذا سافرت مع السلطان تكون فى محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على ابى سعيد وفضلها على سواها وأقامت على هذه مدة أيام ثم تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته فى منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت امراؤه على الجهات كما سنذكره.

ولما عرف الأمراء ان بغداد خاتون التى سمته أجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومى خواجه لؤلؤ وهو من كبار الأمراء وقدمائهم فأتاها وهى فى الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك اياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد إمرأة السلطان ابى سعيد كمثل ما كان ابو سعيد فعله من تزوج امرأته.

(ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابى سعيد)

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذى ذكرناه آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه ابن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى وورامين وفرغان والكرج ومنهم الأمير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسن ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه

ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان ابو اسحاق الذى نقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وار بعين ومنهم السلطان افراسياب اتابك تغلب على إيزج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره (ولنعد إلى ما كنا بسبيله) ثم خرجت من بغداد فى محلة السلطان ابى سعيد وغرضى ان أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتى كل امير من الأمراء بعسكره وطبوله واعلامه فيقف فى موضع لا يتعداه قد عين له إما فى الميمنة او الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل امير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام اهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهى تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ثم امسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا إلى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الأعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم وكل امير له اعلام وطبول وبوقات .

ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جند وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن التوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق فى عنقه ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به إلى الامير فيبطح على الأرض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لا يحاشون من ذلك أحدا وإذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه فى محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه فى محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذن والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب واهل الاشغال على حدة وينزل كل امير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة والمشاعل بين أيديهم .

فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التى هى الملكة ثم أطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة فى عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم اثقال السلطان وزاملته واثقال الخواتين ثم امير ثان فى عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الأثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام صحبة الأمير علاء الدين محمد الى بلدة تبريز وكان من الأمراء الكبار الفضلاء

فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة واشجار مورقة .

وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من احسن أسواق بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصرى مما رأيته من انواع الجواهر وهى بأيدى مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة واوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين ايدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ الله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك واعظم ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذى عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقشاني وهو شبه الزليج ، يشقه نهر ماء وبه انواع الاشجار ودوالي العنب وشجر ياسمين ومن عاداتهم انهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر فى صحن الجامع ويجتمع لذلك اهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد امر السلطان ابي سعيد إلى الامير علاء الدين بان يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احدا من العلماء .

ثم سافرنا إلى ان وصلنا محلة السلطان فأعلمه الأمير المذكور بمكاني وأدخلني عليه فسألني عن بلادى وكساني واركبني واعلمه الامير اني اريد السفر إلى الحجاز الشريف فأمرلي بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل وكتب لى بذلك الى امير بغداد خواجه معروف فعدت إلى بغداد واستوفيت ما امرلي به السلطان وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لى ان اسافر إلى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد واعود إلى بغداد فى حين سفر الركب فأتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دجيل وهو متفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى ايضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها ايضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا إلى مدينة تكريت وهي مدينة

كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجوامع واهلها موصوفون بحسن الأخلاق والدجلة فى الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ماهنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعا وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل .

﴿ مدينة الموصل ﴾

وهى مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفى باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أر فى أسوار البلاد مثله إلا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه الجوامع والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة فى النهاية من الحسن والإتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفى صحن الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبى عليه السلام وعليه مسجد والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب

وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الأبواب التى هى متبينة وفى التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفى وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذى به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذى بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه واهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة فى الغريب وإقبال عليه وكان اميرها حين قدومى عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلنى بداره وأجرى على الانفاق مدة مقامى عنده وله الصدقات والايثار المعروف .

وكان السلطان ابو سعيد يعظمه وفوض اليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبرائها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده فى حين كتب هذا فى حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا امير المؤمنين بهجة وإشراقا وحرس ارجاءها ونواحيها .

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهى على نهر عليه جسر مبنى وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهى مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادى ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة محكم العمل وسورها مبنى بالحجارة أيضا وأهلها فضلاء لهم محبة فى الغرباء ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودى المذكور فى كتاب الله عز وجل الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل

ثم رحلنا مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهى مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهى فى بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى العطارة الطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون فى جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب فى صهريجين احدهما فى وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها

أهل صــلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس فى قوله :

طابت نصيبين لى يوما وطبت لها ياليت حظى من الدنيا نصيبين

قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء

لنصيبين قد عجبت وما فى دارها لى داع إلى العلات

يعدم الورد أحمرا فى ذارها لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا إلى مدينة سنجار وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار مبنية فى سفح جبل تشبه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور البركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردى أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه انه لا يفطر إلا بعد أربعين يوما ويكون إفطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعالى وزودنى بدراهم لم تزل عندى إلى ان سلبنى كفار الهنود ثم سافرنا إلى مدينة دارا وهى عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهى الآن خراب لا عمارة بها وفى خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين وهى عظيمة فى سطح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها اسواقا وبها تصنع الثياب المنسوجة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع فى قنة جبلها قال ابن جزى قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عنى شاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى بقوله فى سمطه (سريع)

فدع ربوع الحلة الفيحاء وازور بالعيس عن الزوراء

ولا تقف بالموصل الحدباء ان شهاب القلعة الشهباء

ـــ محرق شيطان صروف الدهر ـــ

وقلعة حلب تسمى الشهباء ايضا وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولى الملك بها نحو خمسين سنة وادرك ايام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون .

(ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى اليها)

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ورث الملك عن ابيه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر اكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن ابيه قصده ابو عبيد الله محمد بن جابر الأندلسى المروى الكفيف مادحا فأعطاه عشرين الف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام وله

وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاوى وقرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضى قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلى وهو ينتسب إلى الشيخ الولى فتح الموصلى وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيراً مايجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فإذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوانه .

﴿ حكاية ﴾

ذكر لى أن امرأة أتت هذا القاضى وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضى فقال لها وما تريدين منه فقالت إن زوجى ضربنى وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا فى القسم وقد دعوته إلى القاضى فأبى وأنا فقيرة ليس عندى ما أعطيه لرجال القاضى حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ماعندى شيء اعطيك إياه فقال لها لا آخذ منك شيئا ثم قال لها اذهبى إلى القرية وانتظرينى خارجها فانى على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته أن لايدع احدا يتبعه فجاءت به إلى منزل زوجها فلما رآه قال ماهذا الشيخ النحس الذى معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن ارض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضى وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضى لاعليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه واعطاهما القاضى نفقة ذلك اليوم وانصرف

لقيت هذا القاضى وأضافنى بداره ثم رحلت عائداً إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التى ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهى من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهى ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت فى جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفى هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا إلى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لى به السلطان فعين لى شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لى بذلك ووجه إلى أمير الركب البهلوان محمد الحويح فأوصاه بى وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم ازل فى جواره وهو يحسن إلى ويزيدنى على ما أمر به وأصابنى عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم والأمير يتفقد حالى ويوصى بى ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما

وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفاً بحيث أؤدى المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الحويح المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين فلما نزلنا منى أخذت فى الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الأمير علاء الدين ابن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب ابن شيبة وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن السكويك ونور الدين القاضى وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلى وناصر الدين الأسيوطى وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافانى الله من مرضى فكنت فى أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتى فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفهونى وهى أول حجة حجها والأخوان علاء الدين على وسراج الدين عمر ابنا القاضى الصالح نجم الدين البالسى قاضى مصر وجماعة غيرهم فى منتصف ذى القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل فى صحبته جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضرى والفقيه ابو عبد الله المرسى وابو العباس بن الفقيه ابى على البلنسى وابو محمد ابن القابلة وابو الحسن البيارى وابى العباس بن نافوت وابو الصبر ايوب الفخار واحمد بن حكامه ومن اهل القصر المجاز الفقيه ابو زيد عبد الرحمن ابن القاضى ابى العباس بن خاوف ومن اهل القصر الكبير الفقيه ابو محمد ابن مسلم وابو اسحاق ابراهيم بن يحيى وولده ووصل فى تلك السنة الأمير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والأمير موسى بن قرمان والقاضى فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج ابو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضى فخر الدين وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج اقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفى هذه السنة وصل احمد بن الأمير رميثة ومبارك بن الأمير عطيفه من العراق صحبة الأمير محمد الحويح والشيخ زاده الحرباوى والشيخ دانيال واتوا بصدقات عظيمة للمجاورين واهل مكة من قبل السلطان ابى سعيد ملك العراق وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الأمير

عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جدة حتى اعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهى سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ،ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين إيدمور أمير جندار الناصرى وسبب ذلك أن تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا إلى أيدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الأمير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتى بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم لك عليهم ان سرق لأهل مصر والشام شىء فاطلبنى به فشتمه ايدمور وقال له ياقواد تقول لى هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب ايدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير احمد بن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الأتراك وأميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضى والأئمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا إلى مصر وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر إلى مكة ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادى نخلة فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده فأمنوا وأتى رميثة وكفنه فى يده إلى الأمير فخلع عليه وسلمت إليه مكة وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن فوصلت إلى حده (بالحاء المهمل المفتوح) وهى نصف الطريق بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة وهى بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

﴿ حكاية ﴾

ومن غريب ما اتفق لى بجدة أنه وقف على بابى سائل اعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم على وسمانى باسمى وأخذ بيدى ولم اكن عرفته قط ولا عرفنى فعجبت من شأنه ثم امسك أصبعى بيده وقال اين الفتخة وهى الخاتم وكنت حين خروجى من مكة لقينى بعض الفقراء وسألنى ولم يكن عندى فى ذلك الحين شىء فدفعت له خاتمى فلما سألنى عنه هذا

الأعمى قلت له أعطيته لفقير فقال ارجع فى طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك والله اعلم بحاله، وبجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس معروف البركة يستجاب به الدعاء وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرازق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبدالله من أهل مكة شافعي المذهب وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد اهل جدة المقيمين بها فان اكملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهراً اربعاً ولا يعتبر من ليس من اهلها وإن كانوا عدداً كثيراً ثم ركبنا البحر من جدة فى مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الألفى اليمنى الحبشي الأصل وركب الشريف منصور بن أبى نمى فى جلبة أخرى ورغب منى أن اكون معه فلم أفعل لكونه كان معه فى جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم اكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وأمتعتهم فى الجلاب وهم متأهبون للسفر.

﴿ حكاية ﴾

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور غلاما له ان يأتيه بعديلة دقيق وهى نصف حمل وبطة سمن يأخذهما من جلب أهل اليمن فأخذهما واتى بهما اليه فأتى التجار باكين وذكروا إلى ان فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا منى ان اكلمه فى ردها وأن يأخذ سواها فأتيته وكلمته فى ذلك وقلت له ان للتجار فى جوف هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرا فلا ارده اليهم وإن كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها ووجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لى لو كان عجلان ماردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا فى هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التى قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا فى المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل فى أهوال حتى خرجنا فى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت فى ذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادى يخرج من البحر فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبورى فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدت الينا طائفة من البجاة وهم سكان تلك الأرض سود الألوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على رؤسهم عصائب

حمراء عرض الأصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها وهى تأنس بالآدمى ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفى ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن وهى على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها فى القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهى جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا إلى مكة

﴿ذكر سلطانها﴾

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن أبى نمى وأبوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة فانهم أخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فاذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما وهى كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندى من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائى له شيئاً إلا إبريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وسعتر فاذا جاءه احد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتى لكل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ إلى صلاة المغرب وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة اقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون فى اول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ثم يذكرون إلى ان تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها

ومنهم من يقيم إلى أن يصلى صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ابدا ولقد كنت اردت الاقامة معهم باقى عمرى ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

﴿ذكر سلطان حلى﴾

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بنى كنانة وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء صحبته من مكة إلى جدة وكان قد حج فى سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلنى واكرمنى وأقمت فى ضيافته اياما وركبت البحر فى مركب له فوصلت إلى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وإسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من اولاد الهلبى وهم طائفة من تجار اليمن اكثرهم ساكنون بصنعاء ولهم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم فى مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير ، وليس بالأرض من يماثلهم فى ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والإيثار وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين ثم رحلنا إلى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم إلى مرسى الأبواب ثم إلى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء اربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء اكبر منها ولا أغنى من اهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهى بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه املح بلاد اليمن واجملها ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهى وادى الخصيب الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ فى وصيته يامعاذ إذا جئت وادى الخصيب فهرول ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون فى ايام البسر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة احد من اهلها ولا من الغرباء ويخرج اهل الطرب واهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الأخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهم مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فإذا اراد السفر خرجت معه وودعته وإن كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له إلى ان يرجع ابوه ولا تطالبه فى ايام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها وإذا كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لايخرجن عن بلدهن أبدا ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الابيانى والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ونزلت فى جوارهم فاكرمونى وأضافونى ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمنى وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

﴿ كرامة ﴾

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر وكانوا يقولون أن لا قدر وأن المكلف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فان كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له أن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا وانصرفوا إلى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافنى وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت فى صحبته إلى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعى وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن إذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا إلى جبلة وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة أيام فى خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا إلى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المثناة وكسر العين المهملة وزاء) وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك وهى ثلاث محلات إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

﴿ ذكر سلطان اليمن ﴾

وهو السلطان المجاهد نور الدين على ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن على بن رسول شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بنى العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذى بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعى فى صحبتى قصد بى إلى قاضى القضاة الإمام المحدث صفى الدين الطبرى المكى فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره فى ضيافته ثلاثا فلما كان فى اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بى عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ثم يرفعها إلى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضى عن يمين الملك وأمرنى فقعدت بين يديه فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبى سعيد رضى الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامى وإنزالى وترتيب قعود هذا الملك إنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم اصحاب القسى وبين ايديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وامير جندار على رأسه والشاويشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له فى الميمنة او الميسرة لا يتعدى احد موضعه ولا يقعد إلا من امر بالقعود يقول السلطان للأمير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هناك بين ايدى القائمين فى الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف واما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم احد منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند فى طعامه فلا اعلم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ام سلاطين اليمن اخذوه عن سلاطين الهند واقمت فى ضيافة سلطان اليمن اياماً واحسن إلى واركبنى وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى

مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الأشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل فى أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان فالمسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المطر واهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن امطارها وابلة متدفقة ومدينة مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وانقاها وجامع صنعاء من احسن الجوامع وفيه قبر نبى من الأنبياء عليهم السلام ثم سافرت منها إلى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد وهى مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء ايام المطر والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين اهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهى شديدة الحر وهى مرسى اهل الهند تأتى إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر ايضاً واهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم اموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة .

(حكاية) ذكر لى ان بعضهم بعث غلاماً له ليشترى له كبشاً وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك ايضاً فاتفق انه لم يكن بالسوق فى ذلك اليوم إلا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فأنهى ثمنه إلى اربعمائة دينار فأخذه احدهما وقال ان رأس مالى اربعمائة دينار فان اعطانى مولاى ثمنه فحسن وإلا دفعت فيه راس مالى ونصرت نفسى وغلبت صاحبى وذهب بالكبش إلى سيده فلما عرف سيده بالقضية واعطاه الف دينار وعاد الآخر إلى سيده خائباً فضربه واخذ ماله ونفاه عنه ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام اكثر من ذلك مع هذا كله فهم اهل دين وتواضع وصلاح ومكارم اخلاق يحسنون إلى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم اقمت فى ضيافتهم اياماً وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة ايام ووصلت الى مدينة زيلع وهى مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم

صحراء مسيرة شهرين اولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال وهم اغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الألوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقذر مدينة في المعمور واوحشها وأكثرها نتناً وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار إليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد وحصلت له معرفة أهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ماعنده واشترى له ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إلى بعضهم فقال له أصحابي ليس هذا بتاجر وإنما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث إلى أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه وقال لي بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له إذا نزلت توجهت إليه فقال لي أن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا

﴿ ذكر سلطان مقدشو ﴾

وسلطان مقدشو كما ذكرناه إنما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر وهو في الأصل من البرابرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن ينزل عنده انزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الأصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الأمانة وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطانى عشرة أوراق مع قليل من الفوفل واعطى القاضى كذلك وأعطى لأصحابى ولطلبة القاضى ما بقى فى الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقى فسكب على وعلى القاضى وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهى دار معدة لضيافة الطلبة فاخذ القاضى بيدى وجئنا إلى تلك الدار وهى بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه فى صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ويجعلون اللبن المريب فى صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا وهى مثل التفاح ولكن لها نواة وهى إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها فى الخل وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات .

والواحد من اهل مقدشو ياكل قدر ما تاكله الجماعة منا عادة لهم وفى نهاية من ضخامة الاجسام وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضى وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم وتلك عادتهم .

فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتونى بكسوة ، وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصرى معلمة وفرجية من القدسى مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لأصحابى بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى ثم قال باللسان العربى قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته فى الأرض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضى أن ينتعل وأمرنى ان أنتعل وتوجه إلى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسى أخضر

وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمراء الأجناد أمامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الاجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة وإذا كان يوم السبت يأتى الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وإن أراد تشريف احد من كبار أمرائه بعث اليه فأكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ إلى داره ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه اهل الشورى وهم الوزراء والامراء وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم .

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا إلى جزيرة منبسى (وضبط اسمها بميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهى كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والاترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهى شبه

الزيتون ولها نوى كنواه إلا أنها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والبئران وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة وذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة ومدينة كلوا من احسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

﴿ ذكر سلطان كلوا ﴾

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضا أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيده بن أبى نمى ومحمد ابن شميلة بن أبى نمى ولقيت بمقدشوا تبل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم اهل الدين والشرف .

﴿ حكاية من مكارمه ﴾

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له أبا المواهب فقال لبيك يا فقير ما حاجتك قال اعطنى هذه الثياب التى عليك فقال له نعم أعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها

فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه واخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير ايضا بعشرة رؤوس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم من العاج وقلما يعطون الذهب .

ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى أخوه داود فكان على الضد إذا اتاه سائل يقول له مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده مايعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كلوا إلى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح فى شهر كامل فد قطعته مرة فى قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح ولم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما .

ومدينة ظفار فى صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهى من أقذر الأسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة مايباع بها من الثمرات واكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها فى النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك فى سواها واكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها فى صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو فى الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو اكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها وهم اهل تجارة لا عيش لهم إلا منها ومن عاداتهم انه إذا وصل مركب من الهند اوغيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا فى صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله وللربان وهو الرئيس وللكرانى وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر الى الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير الجند وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان .

وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب وهم اهل تواضع وحسن اخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض عن السروال واكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات فى اليوم .

وهى كثيرة المساجد ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا .

والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين واكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح فى المسجد اثر صلاة الصبح والعصر يستند اهل الصف الاول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون اجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه وحيل بينه وبينها .

وذكر لى ان السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة من البر والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو ايضا ابن عمه فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان اهل هذه المدينة أشبه الناس باهل المغرب فى شئونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى ابن على كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب احداهن اسمها بخيته والأخرى زاد المال ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها واكثر اهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت كما يفعل اهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب اصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن ابى بكر بن عيسى من اهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رايت بها شخصا ذكر لى انه له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان .

وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين ابى العباس احمد وابى عبدالله محمد ابنى الشيخ ابى بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام

أخذ ابو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلناه به فشرب منه و بعث الخادم بباقيه إلى اهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافنى قاضيها الصالح ابو هاشم عبد الملك الزبيدى وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهى معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا فى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم .

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهى منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية اصيادى السمك وفى الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه افضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر والأشبه ان يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضرى حبة منه فكان وزنها ثنتى عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان إلا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منه اللهم إلا ان فى مدينة زبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل وإذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

﴿ ذكر التنبول ﴾

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ويصنع له معرشات من القصب كما تصنع لدوالى العنب او يغرس فى مجاورة النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى اوراقه فى كل يوم واهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما اعطاه الدنيا وما فيها لاسيما إن كان اميرا او كبيرا وإعطاؤه عندهم أعظم شأنا وادل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير اطرافا صغارا ويجعله الإنسان فى فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه طيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع ويجعله الإنسان عند راسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو ايقظته زوجته او جاريته أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة ولقد

ذكر لى أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكان غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

﴿ ذكر النارجيل ﴾

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا ان هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون به حبالا يخيطون به المراكب عوضا عن مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التى بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمى ويزعمون أن حكيم من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك أن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ماذكرته قال إن لم يظهر فاصنع برأسى كاصنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر فى دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة فى حمرة الوجه وأما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه أنه يكون فى ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء فى النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها مافى داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة إذا شربت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائى ايام إقامتى بجزائر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام وعجائبه أن يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون إلى النخلة غدوا وعشيا إذا أرادوا أخذ مائها الذى يصنعون منه العسل وهم يسمونه الأطواق فيقطعون العذق الذى يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرا فيها الماء الذى يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد إليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور احدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق فى احد القدحين ويغسله بالماء الذى فى القدح الآخر وينجر من العزق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا

فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا يشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه إلى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسى تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى فى أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون مافى باطن الجوزة وكل ماينزل منها يجتمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس فاذا ذبل طبخوه فىالقدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويضعه الناس فى شعورهم وهو عظيم النفع .

﴿ ذكر سلطان ظفار ﴾

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابنعم ملك اليمن وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحباليمن وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من إرسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه ووقوع الحائط عليه ماذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومنعادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر إلى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لايخرج ولا يراه أحد إلا فى يوم الجمعة فيخرجللصلاة ثم يعود إلىداره ولا يمنعاحد من دخول المشور وأميرجندرقاعد على بابه واليه ينتهى كل صاحب حاجة أو شكاية وهويطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين وإذا أرادالسلطان الركوبخرجت مراكبهمن القصر وسلاحه ومماليكه إلىخارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالزهب فيركب السلطان ونديمه فى المحملبحيث لايرى وإذا خرج إلىبستانه وأحب ركوب الفرس ركبهونزل عن الجمل وعادته أن لايعارضه أحد فى طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكايةولاغيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشدالضرب فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطانفرواعن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدنى وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابةوعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملكاستوزره فلميكن يحسنهافكان الاسم لهوالحكم لغيره ومنهذه المدينةركبنا البحر نريدعمان فى مركبصغير

لرجل يعرف بعلى بن ادريس المصيرى من أهل جزيرة مصيرة وفى الثانى اركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك، وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك اربعة أيام ووصلنا إلى جبل لمعان (بضم اللام) وهو فى وسط البحر وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر.

﴿ ذكر ولى لقيناه بهذا الجبل ﴾

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليل بساحل الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلى إلى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم إنى اردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه غلب على الخوف ورجعت إلى اصحابى وانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيره الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق إلا أنها اعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأو كلها وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم ورأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لى ظننت انهم ذبحوها وانقطع عنى بعد ذلك من الخجل فكان لا يقربنى حتى ادعو به وكان طعامى فى تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشى سمكا يسمى بالفارسية شير ماهى ومعناه أسد السمك لان شير هو الأسد وماهى السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة لا يفضلون أحدا على احد ولا

صاحب المركب ولاسواه ويأكلونه بالتمر وكان عندى خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقتات من ذلك السمك فى جملتهم وعيدنا عيد الأضحى على ظهر البحر وهبت علينا فى يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت إلى طلوع الشمس وكادت تغرقنا.

﴿ كرامة ﴾

وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ويدعى بمولانا لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال كنت عند الهول افتح عينى أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ثم أغلق عينى ثم افتحها فانظر كذلك إلى ان فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه إلا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم أذوقه قبل ولا بعد صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر وأكلناه ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب لذى كنا فيه وهى على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لأعيش لأهلها إلا من السمك ولم تنزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب إلى داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهات فى سفح جبل فخيل لنا أنها قريبة وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشى اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب فسألت عن طريقها فاخبرت انى أصل اليها العصر فاكتريت احد البحريين ليدلنى عن طريقها وصحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره وتركت اصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم واخذت اثوابا كانت لى فدفعتها للدليل ليكفينى مؤنة حملها وحملت فى يدى رمحا فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولى على أثوابى فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقلت له إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا الجواز جزنا وإلا اصعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط واخذت بالحزم وشددت وسطى وكنت اهز الرمح فهابنى ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها واشتد بنا الأمر فبعث الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه

و بيد أحدهم ركوة ماء فسقانى وسق صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشى فيها الأميال الكثيرة فلما جاء العشى أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر وهو لاطريق له لأن ساحله حجارة فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب فقلت له إنما نمشى على هذه الطريق التى نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا إن المدينة قريبة فتعالوا نمشى حتى نبيت بخارجها إلى الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد فى الطريق ولم أحقق مقدار ما بقى اليها فقلت له إنما الحق ان نخرج عن الطريق فننام فاذا اصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال فى سفح جبل هنالك فخفت ان يكونوا لصوصاً وقلت التستر اولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر ام غيلان وقد اعييت وادركنى الجهد لكنى اظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بينى وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبى وجسدى وأمسكت الرمح بيدى ورقد صاحبي ورقد الدليل وبقيت ساهراً فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته انى مستيقظ ولم نزل كذلك حتى الصبح .

ثم خرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء واخذ صاحبي الثياب وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا إلى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن فى جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم يخرج من تحت اظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب لابد لك أن تذهب معى الى امير المدينة ليعرف قضيتك ومن اين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الأخلاق وسألنى عن حالى وانزلني واقمت عنده ستة ايام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام .

ومدينة قلهات على الساحل وهى حسنة الأسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقشانى وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ومعنى بيبى عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الأقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه والأرز يجلب إليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتى إليهم فى البحر الهندى واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح وكلامهم ليس

بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشى لا تفعل كذا لا وأ كثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه وهى من أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهرى (المروار الجوهر) وهو كثير بها وجلب منها إلى هرمز وسواهاوبها أيضاً التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام فى صحراء ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع وهى خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن وواو مفتوح) مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار يأتى كل إنسان بما عنده ويجتمعون للأكل فى صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبدا وهم اباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهراً أربعا فاذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلى وهم إذا أراد واذكر على رضى الله عنه كنوا عنه فقالوا ذكر عن الرجل أو قال الرجل ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا إنكار لذلك وسنذكر حكاية أثر هذا مما يشهد بذلك .

﴿ ذكر سلطان عمان ﴾

وسلطانها عربى من قبيلة الأزد بن الغوث ويعرف بأبى محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلى عمان كما هى أتابك عند ملوك اللور وعادته أن يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله أخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسى ويباع بالسوق لأنهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهى على ماذكر لى مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان

وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز

﴿ حكاية ﴾

كنت يوماً عند السلطان أبى محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان فى رأسى فقال لها اذهبى واطردى الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا فى جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبى فافعلى ماشئت فذكر لى لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون فى جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولاذوا قرابتها أن يغيروا عليها وإن قتلوها قتلوا بها لأنها فى جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضا موغ استان وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهى مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكنى السلطان والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الدارانى ومنه يصنعون الأوانى المزينة والمنارات التى يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهى لوت بادشاهى معناه بالعربى التمر والسمك طعام الملوك والماء فى الجزيرة قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهى على بعد من المدينة ويأتون إليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر يوسقونها فى القوارب ويأتون بها إلى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقصارانى وأصله من بلاد الروم فأضافنى وزارنى وألبسنى ثوباً وأعطانى كم الصحبة وهو يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخضر والياس عليهما السلام يذكر أنهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقمنا عنده يوماً وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر هذه الجزيرة قد نحت غاراً لسكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقراً له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق

وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من أخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل رضى الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه

﴿ ذكر سلطان هرمز ﴾

وهو السلطان قطب الدين تمهتن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الأخلاق وعادته أن يأتى لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين فكان فى كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوماً فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا على الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها فقلت له أنى أريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدى فذهب بى إلى داره وهى على ساحل البحر والأجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه اقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان إلى جانبه ابن اخته وهو على شاه ابن جلال الدين الكيجى وكانت بينى وبينه معرفة فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفنى الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالى بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وارباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعداً على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفى يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس احد الأمراء إلى جانبه وجلست إلى جانب ذلك الأمير وسألنى عن حالى ومقدمى وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون لم يأكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التى بينه وبين ابنى اخيه انه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة فى هرمز القديمة وبساتينها وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه اخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه اهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر إلى مدينة قلهات التى تقدم ذكرها وهى من جملة بلاده فأقام بها شهوراً وجهز المراكب واتى الجزيرة فقاتله اهلها مع اخيه وهزموه وعاد إلى قلهات وفعل ذلك مراراً فلم تكن له حيلة إلا ان يراسل بعض نساء اخيه فسمته ومات واتى هو الى الجزيرة فدخلها وفر

ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطعها الطريق لصوص الأعراب وتهب فيها ريح السموم فى شهرى تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لى أن الرجل إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس وفى هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال الملك (اللوك) الشهير الاسم هنالك .

(حكاية)

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمى الأصل (واللك بضم اللام) معناه الأقطع وكانت يده قطعت فى بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبنى الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الأموال التى يسلبها من الناس ويقال أنه كان يدعو أن لا يسلط إلا على من لا يزكى ماله وأقام على ذلك دهراً وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء وروايا فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفاً من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا إلى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبى دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ويعدونه

لهم إعانة على إطعام الطعام وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ويأتى كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون فى عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح .

﴿ ذكر سلطان لار ﴾

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركمانى الأصل بعث إلينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا إلى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء وإسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبى دلف الذى قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعداً بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الرد وسألنى عن مقدمى وبلادى وأنزلنى وكان يبعث إلى الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبى دلف شان عجب وأمر غريب فان نفقته فى هذه الزاوية عظيمة وهو يعطى العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر فى تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة إلا ما يصله من الأخوان والأصحاب حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشان فى الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبى دلف يوما واحداً لاستعجال الرفقة التى كنت فى صحبتها وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت إليها بالعشى وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الألوان نحاف الجسوم كثيروا البكاء غزيروا الدموع وعند وصولى إليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا إلى ولدى محمداً وكان معتزلا فى بعض نواحى الزاوية فجاء إلينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يا بنى شارك هؤلاء الواردين فى الأكل تنل من بركاتهم وكان صائماً فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها فى كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة فى دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشراف وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر .

﴿ ذكر مغاص الجوهر ﴾

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر ما تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فإذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديده فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدي فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج يزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا إلى مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كأنه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحداً ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحيعلتين حي على خير العمل ويزيد بعد التكبير الأخير محمد وعلي خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر إلى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم واهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة وتسمى أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات انهار وأشجار

يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بنى حنيفة وهى بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها فى صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك فى سنة ثنتين وثلاثين فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهى آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير احمد الذى يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقى

﴿ حكاية ﴾

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية فلما أراد الدنو منها قالت له إنى حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بامير احمد ونشأ فى حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان فى هذه الحجة تعاهد على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال فنمى الخبر إلى الملك الناصر فبعث إلى أمير أحمد فى يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير احمد فاكثرث بكتمور لموته وقطع اثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر فاتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتى عليك إلا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق ما نسب من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض لى ذلك ولاتاتى لى رفيق واقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لأنظر حاله فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك لطفاً من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبى محمد فخرج صاحبه وبعض التجار فى العشارى بعد جهد عظيم واشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك فى صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه فى البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبنى كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد ونفذ زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى

وأخبرني ان البجاة أسروه وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما إنما يقتات بلبن الابل وتقدمنا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندى يبق نحو حمل من التمر الصيحانى والبرنى برسم الهدية لاصحابى ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير وصلنا إلى عذاب وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة فتلقانا اهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا فى جواره ثم وصلنا إلى قرية العطوانى وهى على ضفة النيل مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل إلى مدينة اسنا ثم إلى مدينة أرمنت ثم إلى الأقصر وزرنا الشيخ ابا الحجاج الأقصرى ثانية ثم إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوى ثانية ثم إلى مدينة هو ثم إلى مدينة اخميم ثم إلى مدينة أسيوط ثم إلى منفلوط ثم إلى مدينة منلوى ثم إلى مدينة الأشمونين ثم الى مدينة منية بن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر واقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقنى الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التوزرى ولم يزل فى صحبتى سنين الى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفى بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها بمرتلين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لأنها كانت بلادهم فى القديم ومنها الروم الأقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة واكرمنا النصرانى ولم يأخذ منا نولا وفى العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهى أول بلاد الروم وهذا الأقليم المعروف ببلاد الروم من احسن اقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن فى البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة فى الشام والشفقة فى الروم وانما عنى به اهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية اودارا يتفقد احوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا

سافرناعنهم ودعونا كانهم اقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار فى يوم خبزه ومعه الادام الطيب اطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام ابى حنيفة رضى الله عنه مقيمين على السنة لاقدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلى ولا خارجى ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها واضافنى وأكرمنى وأضافنى أيضاً بها شمس الدين ابن الرجيحانى الذى توفى ابوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان .

﴿ ذكر سلطان العلايا ﴾

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة اميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والأمراء والوزراء اسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى فاخبرته عما سأل وانصرفت عنه وبعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطاليا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل والف ولام مكسور وياء آخر الحروف) واما التى بالشام فهى انطاكية على وزنها إلا ان الكاف عوض عن اللام وهى من احسن المدن متناهية فى اتساع الساحة والضخامة اجمل ما يرى من البلاد واكثره عمارة واحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بانفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد ابوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا اهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم ايضا سور واليهود فى موضع آخر وعليهم سور والملك واهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها ايضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة

واسواق ضخمة مرتبة بابدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التى ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفى نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل إلى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة فى أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع وفى المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ٠

﴿ ذكر الاخية الفتيان ﴾

واحد الاخية أخى على لفظ الأخ إذا اضافه المتكلم إلى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد فى الدنيا مثلهم اشد احتمالا بالغرباء من الناس واسرع إلى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن الحق بهم من أهل الشر والاخى عندهم رجل يجتمع اهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هى الفتوة أيضا ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم اصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية فإن ورد فى فى ذلك اليوم مسافر على البلد انزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الاخى ولم ار فى الدنيا اجمل افعالا منهم ويشبههم فى أفعالهم اهل شيراز واصفهان إلا أن هؤلاء احب فى الوارد والصادر وأعظم إكراما له وشفقة عليه وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى وتكلم معه باللسان التركى ولم أكن يومئذ افهمه وكان عليه اثواب خلقه وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لى الشيخ اتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لى انه يدعوك إلى ضيافته انت واصحابك فعجبت منه وقلت نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه فضحك الشيخ وقال لى هذا احد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من اهل الصناعات قد قدموه على انفسهم وبنوا زاوية للضيافه وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل

وذهبنا معه إلى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى وفى المجلس خمسة من البيابيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له ارجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفى وسطه أنبوب للفتيلة ويملا من الشحم المذاب وإلى جانبه آنية نحاس ملانة بالشحم وفيها مقراض لإصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمى عندهم الخراجى (الجراغجى)وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفى أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين فى طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوة ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى وسواه حسنة المنظر وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم .

(ذكر سلطان انطالية)

وسلطانها خضر بك بن يونس بك وجدناه عندوصولنا إليها عليلافدخلنا عليه بداره وهو فى فراش المرض فكلمنا بالطف كلام واحسنه وودعناه وبعث إلينا باحسان وسافرنا إلى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة فى رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأردوا نزولنا عندهم فابى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة فى بستان لأحدهم وذهبوا بنا إليها فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون اساننا ونحن لانعرف لسانهم ولاترجمان فيما بيننا واقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلده سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة وإسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهى بلدة حسنة العمارة والأسواق كثيرة البساتين والأنهار لها قلعة فى جبل شامخ وصلنا إليها بالعشى ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها إلى مدينة اكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب

فيها يومين أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان أكرمنا غاية الإكرام وقام بحقنا أحسن قيام .

﴿ ذكر سلطان أكريدور ﴾

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر ايام أبيه وحج وله سيرة حسنة ومن عاداته انه يأتى كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم بأصوات حسان فعالة فى النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف إلى داره وأظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ويستند إلى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه وأجلس إلى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يؤتى بالطعام فيكون اول ما يفطر عليه ثريد فى صفحة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبى ﷺ فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له ثم يأتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان .

وتوفى فى بعض تلك الأيام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح وثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيا رجلى فبعث لى بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال إنما أعطيته عطية لاعارية وبعث إلى بكسوة ودراهم فانصرفنا إلى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف وإسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهيأ بين القصب والمياه لايسع إلا فارسا واحداً والمدينة على تل فى وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية بها

﴿ ذكر سلطان قل حصار ﴾

وسلطانها محمد جلبى وجلبى (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان

الروم سيدى وهو أخو السلطان ابى اسحاق ملك أكريدور ولما وصلنا بمدينته كان غائبا عنها فأقمنا بها أياما ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) وتفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهى صحراء خضراء يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا إلى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا إلى مدينة لاذق (وهى بكسر الدال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضا دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهى من ابدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والأنهار المطردة والعيون المنبعة واسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لامثل لها تطول اعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها واكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار واهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك اهل هذا الاقليم كلهم وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له .

وسمعت هنالك ان الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن اراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لى ان القاضى بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة تقدم الينا رجال من حوانيتهم حتى سل بعضهم السكاكين وأخذوا بأعنة الخيل ونازعهم آخرون على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون نخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى فسألته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا اولادهم اصحاب الفتى اخى سنان والآخرون اصحاب الفتى اخى طومان وكل طائفة ترغب ان يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة اخى سنان وبلغه ذلك فأتى الينا فى جماعة من اصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتى بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتى بنفسه وتولى أصحابه خدمة اصحابى يخدم الثلاثة والاربعة والواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من القرآن العزيز ثم اخذوا فى السماع والرقص واعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث فى طلبنا بالعشى

فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فألفينا الأخى طومان واصحابه فى انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل اصحابهم وزادوا عليه ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا ايضا من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل مافعله اصحابهم او احسن واقمنا عندهم بالزاوية اياما .

﴿ ذكر سلطان لاذق ﴾

وهو السلطان ينانج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين اولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية اخى سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكور العالم علاء الدين القسطمونى واصطحب معه خيلا بعددنا وذلك فى شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه .

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا فى بستان خارج المدينة وذلك فى ابان الفاكهة وبعث ايضا خيلا على عددنا كما فعل ابوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة واظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان فى عساكره والفتيان الاخية كلهم بالأسلحة ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج اهل كل صناعة معهم البقر والغنم واحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم اولا الى المقابر ومنها الى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى واقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكر ان صهيبا صاحب رسول الله ﷺ ورضى الله عنه من اهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد إلى بابه فسألنا اهله من أعلى السور عن مقدمنا فاخبرهم وحينئذ خرج امير الحصن ميناس بك فى عسكره ليختبر نواحى الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم ابدا ونزلنا من هذا الحصن بربضة فى زاوية رجل فقير وبعث الينا امير

الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه إلى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل إلا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فاكرمنا وكسانا ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف مافعله من قبله من الكرماء والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الأعمال ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بأبي الششترى ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعالنا او حصلت لنا بركته

﴿ ذكر سلطان ميلاس ﴾

وهو السلطان المكرم شجاع الدين ارخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام لقائي له واجد عليه بسبب رحلته إلى مدينة أياسلوق ووصوله إلى سلطانها وقبول ما اعداه فسالني هذا الفقيه ان اتكلم عند الملك في شانه بما يذهب مافي خاطره فاثنيت عليه عند السلطان وذكر ما علمته من علمه وفضله ولم ازل به حتى ذهب ما كان يجده عليه واحسن الينا هذا السلطان واركبنا وزودنا وسكناه في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي على ثم انصرفنا بعدما أحسن الينا كما قدمناه إلى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضاً إلى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا واسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال أن هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه

وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل وبعث ولده عوضا عنه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخرسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد

(حكاية)

يذكر انه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطعة قطعاً يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلوانى ولم يطعم أحداً سوى الشيخ فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا ثم انه عاد اليهم بعد اعوام وصار لاينطق إلا بالشعر الفارسى المتعلق الذى لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوى وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم فى ليالى الجمعات وفى هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحمد الذى يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا إلى مدينة اللارندة وهى (بفتح الراء التى بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

(ذكر سلطان اللارندة)

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء)وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميراً وعسكراً ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتى فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل علي ومن عادة ملوك هذه البلاد انه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا فى اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سبباً لحرمان الوارد وقد جرى لى ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ودخلت معه المدينة فأمر بانزالى أحسن نزل وكان يبعث الطعام

الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير الفضة والشمع وكساوا ركب وأحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا إلى مدينة أقضرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بهـا العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الأشجار ودوالى العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لامثل لها فى بلد من البلاد ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عين الأمير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة واكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه .

ثم رحلنا إلى مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون وإسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهى من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الأنهار عليه ثلاث قناطر إحداها بداخل المدينة واثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتى اخى جاروق وهو الأمير بها فاكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا .

وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قيسارية وهى من بلاد صاحب العراق وهى إحدى المدن العظام بهـذا الاقليم بها عسكر اهل العراق وإحدى خواتين الأمير علاء الدين ارتنا المذكور وهى من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغى خاتون ودخلنا اليها فقامت وأحسنت السلام والكلام وأمرت بإحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت الينا بفرس مسرج ملجم وخلعـة ودراهم مع احد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الأخى أمير على وهو امير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من احسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من اصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون فى اكرام الوارد اضعاف مايفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخى هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

ثم سافرنا إلى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل)

وهى من بلاد العراق واعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل امرأته وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها إلا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون إذا انصرفوا .

ولما قدمنا هذه المدينة خرج الى لقائنا اصحاب الفتى بجقجي وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيمان منه معقودان بينهما قاف وباؤه مكسوره وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة، ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخى جلبي وهو من كبار الاخية وطبقته اعلى من طبقة اخى بجقجي فطلبوا أن ينزل عندهم فلم يمكن لى ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة فى احسن ضيافة ثم اتانا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين ارتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا معه واستقبلنا الامير إلى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألنى عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان اتابك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركمان وكان مراده ان اشكر الكريم منهم وأذم البخيل فلم افعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك منى وشكرنى عليه ثم احضر الطعام واكلنا وقال تكونون فى ضيافتى فقال له الفتى اخى جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتى فليكونوا عندى وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا إلى زاويته واقمنا بها ستا فى ضيافته وفى ضيافة الامير ثم بعث الأمير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا إلى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم والف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه وعلى انهارها النواعير تسقى جنانها ودورها وهى فسيحة الشوارع والأسواق وملكها صاحب العراق ويقرب منها بلدة سونسى (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو مدو نون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهى لصاحب العراق ايضا وبها سكنى اولاد ولى الله تعالى أبى العباس احمد الرفاعى منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعى واخوته الشيخ على والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى اولاد الشيخ احمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعى ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .

ثم سافرنا إلى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهى من

بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخى مجد الدين وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الأمير ارتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا إلى ارزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاى وسكون النون وجيم والف ونون) وهى من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة واكثر سكانها الأرمن والمسلمون يتكلمون بها التركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الأوانى والبياسيس التى ذكرناها وهى شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى اخى نظام الدين وهو من أحسن الزوايا وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا احسن ضيافة وانصرفنا إلى مدينة ارزالروم وهى من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب اكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة انهار وفى اكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالى ونزلنا منها بزاوية الفتى اخى طومان وهو كبير السن يقال انه ناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته ينصرف على قدميه متوكئا على عصا ثابت الذهن مواظبا للصلاة فى اوقاتها لم ينكر من نفسه شيئا إلا انه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه فى الطعام وخدمنا اولاده فى الحمام وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم نقصتم حرمتى وإن اقل الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثا .

ثم انصرفنا إلى مدينة بركى (وضبط اسمها بباء موحده مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا اليها بعد العصر فلقينا رجلا من اهلها فسألناه عن زاوية الاخى بها فقال أنا ادلكم عليها فاتبعناه فذهب بنا الى منزله نفسه فى بستان له فأنزلنا بأعلى سطح بيته والأشجار مظللة وذلك أوان الحر الشديد واتى الينا بأنواع الفاكهة واحسن فى ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيى الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرس قد اقبل راكبا على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا واحسن السلام والكلام وامسك بيدى واجلسنى إلى جانبه ثم جاء القاضى عز الدين فرشتى ومعنى فرشتى الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرس واخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك اتى دويرة بالمدرسة فامر بفرشها وانزلنى فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد المغرب فمضيت اليه فوجدته فى مجلس ببستان

له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام ابيض يدور بها القاشانى وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف من جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها اقطاع منقوشة حسنة نخبته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام إلى واستقبلنى وأخذ بيدى واجلسنى إلى جانبه على مرتبته وأتى بالطعام فاكلنا وانصرفنا إلى المدرسة وذكر لى بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخبرنا وأثنى فى كتابه والسلطان فى جبل هنالك يصيف فيه لأجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته ان يصيف فيه .

﴿ذكر سلطان بركى﴾

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبرى وجه نائبه الى لآتيه فأشار على المدرس ان اقيم حتى يبعث عنى ثانية وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لايستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث فى طلبى ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضى التوجه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله فى الركاب وركبت أنا وأصحابى وصعدنا إلى الجبل فى طريق قد نحتت وسويت فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه إلى صهره السلطان ارخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألانى عن حالى ومقدمى وانصرفا وبعث الى ببيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح اعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متى احتيج إلى شده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه أصحابه واصحابى خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم فى شأنى بما اقتضته فضائله ثم عاد إلى واعلمنى بذلك وبعد ساعة وجه السلطان فى طلبنا معا فجئنا إلى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وانا مما يلى الفقيه فسألنى عن حالى ومقدمى وسالنى عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الأعاجم ثم حضر الطعام فاكلنا وانصرفنا وبعث الأرز والدقيق والسمن فى كروش الأغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث الينا كل يوم فنحضر طعامه وأتى يوما الينا بعد

الظهر وقعد الفقيه فى صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب منى ان اكتب له أحاديث من حديث رسول الله ﷺ فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه فى تلك الساعة فامره ان يكتب له شرحها باللسان التركى ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير ادام ولا خضر فامر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت اقامتنا بذلك الجبل فادركنى الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضاً قد مل من المقام هنالك فبعث إلى السلطان يخبره إنى اريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن إذ ذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لى المدرس أتدرى ماذا قال قلت لا أعرف ماقال قال ان السلطان بعث الى ليسالنى ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب إلى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يامر أن تقيما هذا اليوم وتنزلا معه غدا إلى داره بالمدينة ولما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه إلى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضى المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره ولما وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ماهذه الصور الحسان؟ قال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة إلى أن انتهينا الى مجلس حسن فى وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يمج ماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعد معنا على الاقطاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه وأنا مما يلى القاضى وقعد القراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه .

ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاءوا معها بصحاف صينى فيها مثل وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت فى ذلك فاعجب ذلك السلطان وسره .

(حكاية)

وفى أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له

القاضى والفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودى طبيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فاخذنى ماحدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودى يا ملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودى وشتمته ورفعت صوتى فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى فأخبره الفقيه به وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال ولما انصرفنا قال لى الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحداً سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

﴿ حكاية أخرى ﴾

وسألنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى هل رأيت قط حجراً نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لى انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وامرهم ان يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود اصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئاً فعجبت من أمره وأمر برده إلى حيث كان وفى ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان صنع صنيعاً عظيماً ودعا الفقراء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ثم بعث إلى مائة مثقال ذهبا والف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا رومياً يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيى الدين جزاه الله تعالى خيراً وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهى من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مدووراء) مدينة حسنة ذات انهار وبساتين فواكه نزلنا منها بزاوية الفتى محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله اصحاب على طريقته فاضافنا ودعا لنا وسرنا إلى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لانظير له فى الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا

جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة متنوعة فى وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالى العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببيركى ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وأنا راكب فكره ذلك منى وكان سبب حرمانى لديه فان عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا وأعجبهم ذلك ولم يبعث إلى الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم)واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا ثم سرنا إلى مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاى مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة باعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الأحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن احمد الرفاعي ومعه زاده الأخلاطى من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الأمير الأخبية وصنع الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وامير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه أن أتى إلى بالزاوية فسلم على واعتذر وبعث ضيافة عظيمة واعطانى بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهى ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لى الفقيه الذى يؤم به ان الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذى أعطانى بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضيه كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقسى والكمخا وجوارى وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له اجفان غزوية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى فيسبى ويغنم ويفنى ذلك كرماً وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطأته فرفعوا امرهم الى البابا فأمر نصارى جنوة وإفرانسة بغزوه وجهز جيشاً من رومية وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الأجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هـــذه المدينة إلى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف

مشددة) نزلنا بهاعشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

﴿ ذكر سلطان مغنيسية ﴾

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا إلى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعلق فى قبة لاسقف لها الآن تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا إلى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افرسنا وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب برسم سقيها فابطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما اثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى إلى السلطان واعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدوا اشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة إلى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا امرهما واشتدوا عليهما حتى اقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة وبات اصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فاتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له إذا اردت النوم فاعلمنى لانظر من يحرس ثم نمت فما ايقظنى إلا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بأياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه إلى الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الأخية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره واكرمنا اكراما كثيرا

﴿ ذكر سلطان برغمه ﴾

وسلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشى (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين مكسور) ومعناه جيد صادفناه فى مصيف له فاعلم بقدومنا

فبعث بضيافة وثوب قدسى ثم اكترينامريدلناعلى الطريق وسرنافى جبال شامخة وعرة إلى أن وصلنا إلى مدينة بلى كسرى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسورة وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق ولاجامع لهايجمع فيه وارادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا سقفاوصاروا يصلون به ويجتمعون تحت ظلال الأشجار ونزلنامن هذه المدينة بزاوية الفتى اخى سنان وهو من افاضلهم واتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى

(ذكر سلطان بلى كسرى)

ويسمى دمورخان ولاخير فيه وابوه هو الذى بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لاخير فيه فى مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورايته وبعث إلى ثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغايطة ثم سرنا إلى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب فى بركة عظيمة وقد بنى عليها بيتان احدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصى البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهى ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا فى هذه المدينة بزاوية الفتى أخى شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وافطروا عنده وقرأ القراء بالأصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوى ووعظ وذكر وأحسن ثم أخذوا فى السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر إلا فى كل ثلاث أيام ولا يأكل إلا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع إلا ما يستتر به ولا ينام إلا فى المقبرة ويعظ فى المجالس ويذكر فيتوب على يديه فى كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده واتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

(حكاية)

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين آخر الليل فصاح احد الفقراء صيحة غشى عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فاعادوا عليه ذلك فلم يفق واختلفت الناس فيه فمن قائل أنه ميت ومن قائل انه مغشى عليه واتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق

الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمى الصباح وذكروا أنه كان يتعبد بغار هنالك فى جبل فمتى علم أن الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فإذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلى ركعتين ثم إذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا فى الليلة وسمى الصياح لأجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الأرض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصرى السائح وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم

﴿ ذكر سلطان برصا ﴾

سلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو فى أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لإصلاح شؤونه وتفقد حاله ويقال أنه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالده وهو الذى استفتح مدينة برصا من أيدى الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر أنه حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه اثنتى عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائى له وبعث إلى بدراهم كثيرة ثم سافرنا إلى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاى وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كرله بزاوية فتى من الأخية ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا فى أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها إلا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها إلا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهى خاوية على عروشها لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيون خاتون وهى الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل إليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قريبة وبها من

جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله فى سواها متناهى الحلاوة وعظيم الجرم صافى اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكى وهو شيخ الفضلاء الكرماء ماجئت قط لزيارته إلا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معى إلى الخاتون المذكورة فأكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بأيام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذى ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لى فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهى قاصدة مدينة ينجا ونحن فى اتباع أثرها فوصلت إلى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب إلى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادى فلما توسطته كادت الدابة تغرقها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذى كان معه استخلاصها فذهب الوادى بهما معا وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس أن المعدية أسفل من ذلك الموضع توجهنا إليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الأخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكى نزلنا منها بزاوية أحد الأخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه فلم يفهمها منا فقال للفتى ايشان عربى كهنا ميقوان ميكويند ومن عربى نو ميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم ومية وان يقولون ومن أنا ونو جديد وميدانم تعرف وإنما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد فظن الفتى أن الأمر على ما قاله الفقيه

ونفعنا ذلك عنده وبالغ اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه

إذ ذاك لكنني حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا إلى ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الأخي فوجدنا بها أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الأخي فقال لي نعم فسررت عند ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي إلا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء إلينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الأخي حاضرا وحصل الأنس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربي ولكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارسا من أصحابه وتوجه معنا إلى كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الياء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهي من بلاد السلطان ارخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فأحسنا إليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت أننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه معنا من كاويه فبعث معنا فارسا غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى عن الطريق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا أوجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئا من الدراهم فقلنا له إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فأخذ قوسا لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم رجع فرد إلينا القوس فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك علي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنالك فإن نزلنا عن الدواب هلكنا وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت نفسي إذا سلمت لعلي احتال في سلامة اصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت واهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها انها عمارة فيجدها قبورا فظهر لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقني

الله تعالى إلى باب دار فرأيت عليها شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار إلى بالدخول فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بينى وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابى وأشرت إليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معى إلى أصحابى وجئنا جميعا إلى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا إلى مدينة مطرنى عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربى فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء فقال أما ربطها فى منزل فلا يتأتى لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ولكننى أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب.

﴿ حكاية ﴾

وكان من غريب ما اتفق لنا أنى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب وبعثت أحدهم يشترى السمن فأتى أحدهما بالتبن والآخر دون شىء وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال أنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار إلينا بالوقوف وكلم ولده فدفعنا له الدراهم فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه وقلنا له إنا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك أما السمن يسمى عندهم رباغ ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قصطونية وبينها وبين هذه البلدة عشرة وكسوته ثوبا مصريا من من ثيابى وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير أنه ساقط الهمة خسيس الطبع سىء الأفعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الإبزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لى أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله إلى أن فضحناه وكنا نقول له فى آخر

النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس فى بعض المنازل فيتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا أن نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئا واعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له واعطيناها إحسانا فى خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا إلى مدينة بولى (وضبط اسمها بياء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا إلى قريب منها وجدنا واديا يظهر فى رأى العين صغيرا فلما دخله بعض اصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرة من أفراسهم فأردفتها وأخذت فى جواز الوادى فلما توسطته وقع بى الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم أنه لا تزال النار موقودة فى زواياهم ايام الشتاء ابدا يجعلون فى كل ركن من اركان الزاوية موقد النار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاوية ويسمونها البخارى واحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى فى قوله فى التورية وتذكرته بذكر البخيرى

ان البخيرى مذ فارقتموه غدا يحثو الرماد على كانونه التراب
لو شئتم انه يمسى أبا لهب جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا للزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابى ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار وأتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما اكرم نفوسهم واشد ايثارهم واعظم شفقتهم على الغريب والطفهم بالوارد واحبهم فيه وأجملهم احتفالا بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا إلى مدينة كردى بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مد ولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة مقسمة الشوارع والاسواق من اشد البلاد بردا وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا منها ولقيت بهـــا الخطيب

الفقية شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منسنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فأعلمنا أن السلطان قدجاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فأخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا إلى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحد وإسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا امير هذه البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قصطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا واكرمنا وسألني عن إسفاري وحالي فأجبته عن ذلك وأجلسني الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فاكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من اعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الارض باصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشترى طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ونحن عشرة ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكفينا اجمعين ونشترى جوزا بدرهم وقشطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد وذلك اوان البرد الشديد ولم ارفي البلاد مدينة ارخص اسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتى المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرا بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي من اهل فنيكة من بلاد الروم واضافني بمدرسته التي بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره فاجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال

كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعالى وانصرف

(ذكر سلطان قصطمونية)

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بباء معقود وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فاجبته وأمر بانزالى على قرب منه واعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلفا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذ لى فى قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسة بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الاكل ويجلس فى أول النهار جلوساً خاصاً ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وارباب دولته والقاضى والفقهاء وجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو اخو السلطان وأصحابه وأخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف باصوات حسان ويكررون الايات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارىء بين يدى السلطان عشراً وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى أخى السلطان فاذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتى ابن الملك إلى دار ابيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه واقف فى انتظاره ثم يدخلان إلى السلطان فيتقدم اخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم ياتى ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعاً وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه إلا فى الجمعة الاخرى واما الولد فانه ياتى كل يوم غدوة كما ذكرناه

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد بناها أمير كبير تاب إلى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشرف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شىء يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من اوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيا الاخية ويعرف بنظام الدين من اهل قسطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية إلى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهى جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخلها أحد إلا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين اخى جلبى وهى خارج باب البحر ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل فى البحر كمينا سبتة فيه البساتين والمزارع والمياه واكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذه الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها اربع ارجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومى وكان يصلى الجمعة باعلى تلك القبة وملك بعد ابنه غازى جلبى فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازى جلبى المذكور شجاعاً مقداما ووهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء وفى قوة السباحة وكان يسافر فى الاجفان الحربية لحرب الروم

فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها اجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة اجفان

العدو فخرقها وأسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها إلا أنهم يذكرون أنه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه إبراهيم ويقال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم ياخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر إليه ولا علم بما فى الشكارة فسالت من كان معى فاخبرنى أنه الحشيش واضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق .

﴿ حكاية ﴾

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مسبلى أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو أسبال اليدين وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى ايديهم فاتهمونا بمذهبهم وسالونا عن ذلك فاخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة فى نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه واكلناه وانصرف الخديم إليه واعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا لنا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارانب وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى صنوب توفيت أم الأمير إبراهيم بها فخرجت فى جنازتها وخرج أبنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الأمراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضى والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهى مدة العزاء عندهم وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر فى البحر إلى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وقمنا أحد يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الأمر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبابكر فامرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتانى بالطارمة فقال لى استودعكم الله ودهمنا من الهول مالم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التى خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى

يسمى الكرش وأردنا دخوله فأشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لاتدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا انهنالك اجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل هاهنا فأنزلنى بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يوقد فقلت للراهب ماهذه الصورة فقال هذه صورة النبي على فأعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه فى المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه

وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لاشجر بها ولاجبل ولا تل ولاأبنية ولاحطب وانما يوقدون الأرواث ويسمونها التزك (بالزاى المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها فى أطراف ثيابهم ولايسافر فى هذه الصحراء إلا فى العجل وهى مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة فى بلاد غيره .

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحين) وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدندير ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

(حكاية)

ولما نزلنا بهذه الجامع أقمنا بهساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قط فهالنى ذلك وأمرت أصحابى ان يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا انه قاضى المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والآذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا إلا خيراً ولما كان الغد جاء الينا الأمير وصنع طعاما فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق وكلهم كفار ونزلنا إلى مرسا فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتى مركب ما بين حربى وسفرى صغيرا وكبيرا وهو من مراسى الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهى (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد اوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالأولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا فى

طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث إلى مع إمامه سعدالدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراسانى فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم واخبرانى هذا الشيخ زاده وان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى فى دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى إلى ان يواصل اربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب منى ان اصحبه فى التوجه إليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على انلم اكن رايته وعرفت حقيقة امره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائل قاضى الحنفية ولقيت بها قاضى الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصى وخطيب الشافعية ابا بكر وهو الذى يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فأكرمنا واحسن الينا وكان على التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد اوزبك فعملت فى السير فى صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك .

﴿ ذكر العجلات التى يسافر عليها بهذه البلاد ﴾

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء موحده مفتوحات) وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها مايجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك ويجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها والذى يخدم العربة يركب أحدى الأفراس التى تجرها ويكون عليه سرج وفى يده سوط يحركها للمشى وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسور جلد رقيق وهى خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولايرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره والتى تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما اردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ومعى بها جارية لى وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التوزرى وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب احدها خادم العربة وسرنا فى صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلودمور وصاروربك وسائر أيضاً معه فى هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب ابو بكر والقاضى شمس الدين

والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الأمير فى مجلسه فاذا أتى القاضى يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام مبين الفتاوى والأحكام بسم الله وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله فيتهيأ من كان حاضر الدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له فى المجلس وعادة الأتراك ان يسيروا فى هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا وإذا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعى ليلا ونهارا ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا عارة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وإنما يصنعون طعاما من شىء شبه الآتلى يسمونه الدوقى (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم اهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخانى وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدرة فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا .

ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان فأحضرت لحوم الخيل وهى أكثر ما يأكلون من اللسم ولحوم الأغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابى فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرنى الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من ماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء واعتقكم جميعا فأبى وقال لو قتلتنى ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتور فى موضع يعرف بسجاف فبعث إلى ان أحضر عنده فركبت اليه وكان

لى فرس معد لركوبى يقوده خدم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الأمير قد وضع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلى الأمير فى مجلسه وأنا إليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم افهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقال هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزه (بضم الباء الموحدة وواو مدوزاى مفتوح) وانما قال لى الشيخ مظفر الدين ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول ماء الدهن .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القوم وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوما كاملا وإذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الأمير إلى راحلتى وقدمنى أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا إلى أمير أزاق يعلمه إنى أريد القدوم على الملك ويحضه على إكرامى وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم .

ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا إلى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهى على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخى بجقجى وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب القاضى تلكتمور إلى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمى خرج إلى استقبالى معه القاضى والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكى نسبة إلى قرية بالعراق فاضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور وخرج الأمير محمد للقائه ومعه الأمير والطلبة وأعدوا له الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض أحداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجه وهى المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشى عليها فكان من مكارمه وفضله ان قدمنى أمامه ايرى ذلك الأمير منزلتى عنده ثم وصلنا إلى الخباء الأولى وهى المعدة لجلوسه وفى صدرها كرسى من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمنى الأمير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسى على فرش فاخرة ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه والأمير محمد

وأولاده فى الخدمة ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزه وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين يقول ذلك بالعربى ثم يفسره لهم بالتركى وفى أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا فى الغناء يغنون بالعربى ويسمونه القول ثم بالفارسى والتركى يسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك إلى العشى وكلما أردت الخروج منعنى الأمير ثم جاؤا بكسوة للأمير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولى وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة افراس ولكل كبير من اصحابه بفرس ولى بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما او ستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هى التى تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركى منهم آلاف منها .

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون فى العرابات التى تركب فيها نساؤهم قطعة لبد فى طول الشبر مربوطة إلى عود رقيق فى طول الذراع فى ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند فيكون فى الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشى ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل فإذا أراد ان يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذى هو راكبه ورمى الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعى وإذا وصلوا بها إلى أرض السند اطعموها العلف لأن نبات ارض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك وامر ان يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربى خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك واهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق لأنهم يلبسون فى الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التى يبتغونها للسبق تجلب إليهم من

اليمن عمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعد ثلاثة ايام حتى جهز لى الأمير محمد خواجه آلات سفرى .

وسافرت إلى مدينة الماجر وهى (بفتح الميم والف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبرى من احسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحى من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ احمد الرفاعى رضى الله عنه وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولأهل تلك البلاد إعتقاد حسن فى الفقراء وفى كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء فانهن يكثرن الصدقة ويتحرين افعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وامير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحى فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه منى إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن اعطى فرسا ومن اعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم على وكلمنى بالعربى فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس وأنه قدم منها فى البر ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس وذكر ان عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر واخبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم وهن اعلى شأنا من الرجال فأما نساء الأمراء فكانت اول رؤيتى لهن عند خروجى من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية فى عربة لها وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعها ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض ونزل معها نحو ثلاثين من الجوارى يرفعن اذيالها ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الأرض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها واجلسها إلى جانبه ودار بها جواريها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه فى قدح وجلست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الأمير وحضر الطعام فأكلت معه

واعطاه كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفى أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهى بادية الوجه لأن نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتى أحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الأتراك ويزعمون إنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا إلى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا إلى الموضع الذى رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتى على تلك هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك واقبلت المحلة وهم يسمونها الارد بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطابخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل انزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهى خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتازبنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهى بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجواري فسلموا على وبلغوا سلامها إلى وهى واقفة تنتظرهم فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابى ومع معرف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت أن أنزل فى جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة

﴿ ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان ﴾

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد فى جهادهم وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو

أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه أمام الطائفة المنصورة الذين لايزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق السلطان أوزبك هـذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها وإذا أراد أن يكون عنده منهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمـه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون وتليها الخاتون اردجي ويقف اسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كججك وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه واخوته واقاربه ويقف مقابلتهم عند باب القبة اولاد الأمراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال ثم يدخل الناس للسلام بالأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعها إلى محلتها فاذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وامام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار وركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكان نزولي من الجنة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة

والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاماً كثيراً وأفطرنا بحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير وأشاروا على السلطان بإكرامي وهؤلاء الأتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقي ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك .

﴿ ذكر الخواتين وترتيبهن ﴾

وكل خاتون منهم تركب في عربة للبيت والبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاه ريش للطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الأقروف وفي أعلاه دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار وثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرناها فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

﴿ ذكر الخاتون الكبرى ﴾

والخاتون الكبرى هي الملكة أولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته إيت كججك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت اكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها وإلا فهي أبخل الخواتين وحدثني من اعتمده من العارفين باخبار هذه الملكة أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكر لي غيره انها من سلالة المرأة التي يذكران الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه امران توضع بصحراء لاعمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من اخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا ان بعض أهل الصين اخبرني أن بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة ولا يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسون جارية صغارا يسمون البنات وبين ايديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارىء يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت أن يؤتى بالقمز فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف فاخذت القدح بيدها وناولتني إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم اكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكني إلا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لأحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فاجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك

﴿ ذكر الخاتون التي تلي الملكة ﴾

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الأولى وكسر الباء الموحدة) ومعناها بالتركية النخالة وهي بنت الأمير نغطي (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وابوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته في غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها واحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا

فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضروناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها

﴿ ذكر الخاتون الثالثة ﴾

واسمها بيلون (بياء موحدة وآخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مد ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وامرت بالطعام فاحضروا أكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

﴿ ذكر الخاتون الرابعة ﴾

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردوا بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الأمراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إيت كججك وهذه الخاتون من افضل الخواتين والطفهن شمائل واشفقهن وهي التي بعثت إلي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه ودخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لامزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب اصحابنا وسألت عن حالنا فاجبناها ودخلنا أيضا إلى أختها زوجة الأمير علي بن ارزق

﴿ ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك ﴾

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وياء مد وتاء مثناة وكججك بضم الكاف وضم الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فامرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقراء وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وإنما يركب العربة وإذا اراد الدخول على السلطان انزله خدامه وادخلوه

إلى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الأمير نغطى وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الأتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق مالم تره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

﴿ ذكر ولدى السلطان ﴾

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التى قدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مدو نون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله سورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لأمور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف بن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والامام المقرى حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

﴿ ذكر سفرى إلى مدينة بلغار ﴾

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لارى ماذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلنى اليها فبعث معى من أوصلنى اليها وردنى اليه ووصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب افطرنا وأذن بالعشاء فى أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا

﴿ ذكر أرض الظلمة ﴾

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول اليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لايكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها فى الجليد ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لاشجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون

هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره وإذا حضر الطعام اطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد فإذا كان من الغد عادوا لتنفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وبما رفعوا متاعهم أعنى أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند الف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذى بعثه السلطان فى صحبتى فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

﴿ ذكر ترتيبهم فى العيد ﴾

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان فى عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذهى الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب اولاد السلطان كل واحد فى عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السايلى ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضى حمزة والإمام بدر الدين القوامى الشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولى عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضى شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولى عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان واقاربه ونصبت الكراسى للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمى لكل امير طومان طبلة مختصة به

وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من امراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتى إلى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم

ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الملكة إيت كججك وعن يساره ابنه الثانى وبين يديه الخواتين الأربع فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم إلى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو افراج وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفى أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب فى وسط الباركة السرير الأعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كججك ومعها الخاتون [أردواجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثانى ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها ابناء الملوك الكبار ثم الأمراء الصغار مثل امراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة أو توضع بين يدى كل أمير مائدة ويأتى الباورجى وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ويكون لكل أمير باروجى فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ويؤتى بصفحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجى اللحم قطعا

صغارا ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم فانهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون شرب النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم ولى العهد القدح ويخدم ويناوله اباه فيشرب ثم الخواتين ثم اخته ويخدم جميعهن ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى اخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالمواليه وكانت قد نصبت قبه كبيرة أيضا إزاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وانا معهم فاوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان إلا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الأكل فى موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا إلى بعربة منها فأعطيتها لجيرانى من الأتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل انه لا يأتى لأن السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت اتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الأب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى منازلهم وانصرف السلطان إلى الباركة فبقى على حاله إلى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضوا العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح المثناة وسكون الراء بفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية عظمت وتمدنت وهى من احسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل وهو من انهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر اهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من احمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وإنما اكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد

ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فاذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي فلاطفته وقلت له إنما ادخلها في حرمتك وجوارك فلا اخاف من احد فاذن لي وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها صوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة واعطت بنته اكثر منهن وكستني واركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

﴿ ذكر سفري إلى القسطنطينيه ﴾

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدره في خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين وأكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو اربعمائه عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل

وتوجهنا إلى مدينة اكك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثير الخيرات شديدة البرد وبينهما وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور اهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أوقى

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة سرادق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من اعظم المراسي واحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة

كبيرة خرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم والسفر في هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفاً عليها لأن تلك البلاد آمنة ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء إلا انهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلاد آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزودها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها في ايام البرد فلم نحتج إلى كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون واخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتجت إلى زيارة أفراس فأتيت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث إلي بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لاذبحها وكان من معي من الغلمان والخدم يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وامرت إلى الخاتون بخمسة عشر فرسا وامرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت إلى غيرها زدناك ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحى ومعشى وما راينا إلا خيرا والحمد لله

ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولي وهو اول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو ومدولام مكسورو ياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا إلى هذا الحصن كفالي نقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين ملك القسطنطينية وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منه إلى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها واوصت امير ذلك الحصن بمن تركته من اصحابي وغلماني مع العربات والاثقال فامر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها

وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور فى الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرنى بعض خواصها أنها اكلتها ولم يبق معها من يصلى الا بعض الاتراك كان يصلى معنا وتغيرت البواطن لدخولنا فى بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصيت الامير كفالى باكرامى ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلى ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا اربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائية ويابسة اثناعشر ميلا وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض إلا فى القوارب

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الاخرى واقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لأبيها هنالك ثم قدم اخوها شقيقها اسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس شاكين السلاح ولما ارادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح فى طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على افواج كل فوج فيه مائتا فارس لهم امير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بايد عشرة من الفرسان وعشرة اطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات وركبت الخاتون فى مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر وعلى

رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل حرير مزركش بالذهب وفى يده ورجليه خلاخل الذهب وفى عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤهما فى بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء واولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا تثبت الآن اسمها ذات أنها وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولى العهد فى ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى راسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من ابناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا ان الحفل اعظم والجمع اكثر وتلاقت معه اخته فى مثل زيها الاول وترجلا جميعا واوتى بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة اميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج اهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة فى احسن زى واجمل لباس وضربت عند الصبح الأطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وارباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بايديهم عصى طوال فى اعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى ولما اقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت اثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسى وذكر لى انها لما قربت من ابويها ترجلت الارض بين ايديهما ثم قبلت حافرى فرسيهما وفعل كبار اصحابها مثل فعلها فى ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب من ابواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سرا كنو اسرا كنوا ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا باذن فاقمنا بالباب وذهب بعض اصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهى بين يدى والدها فذكرت له شأننا فامر بدخولنا وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون وكتب لنا امرا بان لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك فى الاسواق واقمنا بالدار ثلاثا فبعث الينا للضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان

(ذكر سلطان القسطنطينية)

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة فى الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفى اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون معى سكين وقال لى القائد تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشونى قام الموكل بالباب فأخذ بيدى وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى واثنان من ورائى فدخلوا بى إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الأشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفى وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة إليهم فامسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار إليهم رجل فتقدموا بى وكان أحدهم يهوديا فقال لى بالعربى لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد وأنا الترجمانى وأصلى من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون وأخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فأشار إلى قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنيه ليسكن روعى ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبته عن ذلك كله واليهودى يترجم بينى وبينه فاعجبه كلامى وقال لاولاده أكرموا هذا الرجل وامنوه ثم خلع على خلعة وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه وهى علامة الأمان وطلبت منه أن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها فى بلادى فعين لى ذلك ومن العوائد عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به فى أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس وأكثر مايفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بى فى الأسواق .

﴿ ذكر المدينة ﴾

وهى متناهية فى الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادى سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر فى القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا تشاركهما سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هى فى وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثانى منها فيسمى الغلطة (بعين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح فى قربة من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم إلى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة فى كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم اليابا وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقدار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم لا خير فيها .

﴿ ذكر الكنيسة العظمى ﴾

وإنما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهى تسمى عندهم اياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالأولى والف) ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهى من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وابوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع احد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذى يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان

نحو زراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منتظمة عن جهتى الساقية ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالى العنب وفى اسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسى كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التى على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التى ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذى يزعمون أنه بقية من الخشبة التى صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لى أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهى إلى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من الف وأما القواعد من النساء فاكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وارباب دولته وسائر الناس أن يؤتوا كل يوم صباحا إلى زيارة هذه الكنيسة ويأتى اليها البابا مرة فى السنة وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

﴿ ذكر المانستارات بقسطنطينية ﴾

والمانستار على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما فى داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفى كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناها أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الاخرين ويطيف

بها بيوت وأحدها يسكنه العميان والثانى يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفى داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذى بناه وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستار أو لبس المسوح وهى ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون فى بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهى كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومى الذى عينه الملك للركوب معى إلى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبى على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبى قرأ صبى آخر وقال لى الرومى أن هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت أيضا إلى كنيسة فى بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبى يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لى الرومى هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت إلى كنائس فيها ابكار من وجوه أهل البلد وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء وإلى كنائس فيها الرهبان يكون فى الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر وأقل وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندى وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار .

﴿ ذكر الملك المترهب جرجيس ﴾

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومى المعين للركوب معى فاذا بهذا الملك ماش على قدميه وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفى عنقه سبحة فلما رآه الرومى نزل وقال لى انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومى سأله عنى ثم وقف وبعث لى فجئته فأخذ بيدى وقال لذلك الرومى وكان يعرف اللسان العربى قل لهذا السراكنو يعنى المسلم انا اصافح اليد التى دخلت بيت المقدس والرجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قامة وبيت لحم وجعل يده على قدمى ومسح بها وجهه فعجبت من

اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى وأطال السؤال ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم فى الرهبانية ولما رآهم ارسل يدى فقلت له اريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لابد لداخلها من السجود للصليب الأعظم فان هذا مما سنته الأوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

﴿ ذكر قاضى القسطنطينية ﴾

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآنى القاضى فبعث إلى أحد أعوانه فسأل الرومى الذى معى فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه واخبره بذلك بعث الى احد أعوانه وهم يسمون القاضى النجشى كفالى فقال لى النجشى كفالى يدعوك فصعدت اليه الى القبة التى تقدم ذكرها فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقال إلى وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لى لابد لك أن تأتى الى دارى فأضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد .

﴿ ذكر الانصراف عن القسطنطينية ﴾

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الأتراك انها على دين أبيها وراغبة فى المقام معه طلبوا منها الاذن فى العودة إلى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميرا يسمى ساروجة الصغير فى خمسمائة فارس وبعثت عنى فأعطتنى ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة وليس بالطيب وألفى درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بى ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامى عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمنى حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الى مدينة باباسلوق وأقام بها ثلاثا فى الضيافة وانصرفت إلى بلاده وذلك فى اشتداد البرد وكنت البس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن وفى رجلى خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالى وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب

وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها وإذا غسلت وجهى بالماء إلى لحيتى فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما على من الثياب حتى يركبنى أصحابى .

ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهى جامدة وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه فى القدرة حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة والف) وتعرف بسرا بركة وهى حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألناه عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر بإجراء النفقة علينا وأنزلنا مدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر فى بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع .

وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا فى طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعامنا فماوصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشينا يوما فى عرضها ذاهبين راجعين فى نصف يوم وذلك فى عمارة متصلة الدور لاخراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة احداً للشافعية وأما المساجد سوى فكثير جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من اهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجارة .

وقصر السلطان بها يسمى الطون طاش والطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضى هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة

وبها من مدرسى الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزى أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصرى وهو ممن يطعن فى ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمى رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس شديد التواضع

شديد السطوة على اهل الدنيا يأتى اليه السلطان أوزبك زائراً فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك وفعله الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم واكرمنى جزاه الله خيرا وبعث الى بغلام تركى وشاهدت له بركة

﴿ كرامة له ﴾

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهانى عن ذلك وقال لى أقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتنى النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذه فى السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لى لا بد لك من الإقامة فعزمت على السفر فأبق لى الغلام أقمت بسببه وهذه الكرامات الظاهره

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به إلى فحينئذ سافرت إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكانهم قالوا سرا الصغيرة وهى على شاطىء نهر كبير زخار يقال له ألوصو (بضم الهمز واللام وواو وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات وبعناها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجر العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمز والطاء المهمل) ومعناه الوالد أضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا ننزل إلا ساعتين احداهما عند الضحى والأخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير وكان لى فى عربتى ثلاث من الجوارى ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها والجمال التى تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا فى سنة أخرى بعد أن يسمن والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا إلى خوارزم وهى أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة وهى ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى

الزحام فى موضع يقال له الشهور (بفتح الشين المعجم وإسكان الواو) لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لى بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور وهو الذى عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وتر (بضم التاء المعلوة وفتح الراء والف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامى يعرف بالصهيونى نسبة إلى صهيون من بلاد الشام ولم أر فى بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوساً ولا أحب فى الغرباء ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم وهى ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفى كل جامع درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التى من الجنة وهو يجمد فى أوان البرد كما يجمد نهر اتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهى مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخها المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار اهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم

ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابى إلى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى فبعث إلى نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد اليه ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم على وهو فتى السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء وهو الشديد فى احكامه القوى فى ذات الله تعالى .

ولما حصل الاجتماع بالقاضى قال لى ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتأتى وسيأتى اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه فى آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة

ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسى ومولانا رضى الدين يحيى ومولانا فضل الله الرضوى ومولانا جلال الدين العمادى ومولانا شمس الدين السنجرى امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام إقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى ابى حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهى قريبة من المسجد فأدخل معه الى مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب والأوانى العراقيا وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا فى بيوتهم ثم يأتى بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الأمير قطلودمور متزوج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكورين اكبرهم مولانا زين الدين المقدسى والخطيب مولانا حسام الدين المشاطى الخطيب المصقع احد الخطباء الاربعة الذين لم اسمع فى الدنيا احسن منهم .

﴿ وأمير خوارزم ﴾

هو الأمير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لأن قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك واكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الملكة طيطغلى المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة .

ولما أتانى القاضى مسلما على كما ذكرته قال لى ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضى الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا اكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس وهى علة فاشية فى الترك فسلمت عليه وأجلسنى الى جانبه وقعد القاضى والفقهاء وسألنى عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيها وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكى وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى ثم أتى بموائد

أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب فى أوانى الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه فى أوانى الزجاج العراقى ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الأمير ان يأتى القاضى فى كل يوم إلى مشورة فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس فى القابلة احد الامراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الأرغجية (بارغوجى) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى وما كان من سواها حكم فيها اولئك الأمراء واحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ، ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث الينا الأرز والدقيق والسمن والابزار واحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم واما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل فى الفحم ثم إذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى

﴿ حكاية ومكرمة لهذا القاضى والأمير ﴾

صليت فى بعض أيام الجمع على عادتى بمسجد ابى حفص فقال لى ان الامير امر لك بخمسمائة درهم وامر ان يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم اخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان احسن له للنفع فقال أفعل ذلك وقد أمر لك بالألف كاملة ثم بعثها الأمير صحبة امامه شمس الدين السنجرى فى خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربى ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا ادهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته فى ذهابى إلى المسجد فما اعطيت ثمنه إلا من تلك الألف وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالى فى الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندى خيل كثيرة لكنى كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقى عندى إلى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالى وبعثت إلى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضى مائة دينار دراهم وصنعت لى اختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة براويتها التى بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت إلى بفروة سمور وفرس جيد وهى من افضل النساء واصلحهن واكرمهن جزاها الله خيرا .

﴿ حكاية ﴾

ولما انفصلت من الدعوة التى صنعت لى هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت

لى بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت ادركني بعض الناس وقال لى ان المرأة التى سلمت عليك هى الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان منى لعدم معرفتى بها .

﴿ ذكر بطيخ خوارزم ﴾

وبطيخ خوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا إلا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ اصفهان وقشره أخضر وباطنه احمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب أنه يقدد وييبس فى الشمس ويجعل فى القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقى ويحمل من خوارزم إلى اقصى بلاد الهند والصين وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت ايام إقامتى بدهلى من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند إذا أتى اليه بشىء منه بعث إلى به لما يعلم من محبتى فيه ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك .

﴿ حكاية ﴾

كان قد صحبنى من مدينة السرى إلى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى على بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشترى لى الثياب وسواها فكان يشترى لى الثوب بعشر دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبنى بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله وأنا لا علم لى بفعله إلى ان تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفنى دنانير فلما وصل إلى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت أن احسن بعده اليه مكافأة لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف ان لا نفعل وأردت ان احسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف ان لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معى إلى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين فأخذ فى السفر معهم فقلت له فى ذلك فقال هؤلاء أهل بلدى يعودون إلى أهلى وأقاربى ويذكرون إنى سافرت إلى الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا أفعل ذلك وسافر معهم إلى الصين فبلغنى بعد وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المالق وهى آخر البلاد التى من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه فى فندق واحد فطلب منه الشريف ان يسلفه شيئا بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبيح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن

الذى كان له فى الفندق فبلغ ذلك الشريف فاعتم منه ودخل إلى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لا تظلموه فانى أنا فعلت ذلك ومات من يومه غفر الله له .

وكان قد حكى لى عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل إلى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان فى أجله تأخير فيذكر صاحبا له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر، ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلى بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لأجل البرد ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى وهى مسيرة ثمانية عشر يوما فى رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة فودعت الأمير قطلودمور وخلع على خلعة وخلع على القاضى أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعى وسرنا أربعة أيام وصلنا إلى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومى قاضى الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضى خوارزم فجاء إلى مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوفى ثم عرض على القاضى الوصول إلى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغى له أن يزار وإن كانت لنا همة نذهب إلى أمير المدينة ونأتى به ففعلوا ذلك وأتى الأمير بعد ساعة فى أصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطانى كسوة وفرسا جيدا وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفى تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء

ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو وإسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين المهملة وتشديد اللام فييبسونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو ايام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام .

ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا ووصلنا إلى مدينة

بخاری التی ینسب الیها امام المحدثین ابو عبدالله محمد بن اسماعیل البخاری وهذه المدینة کانت قاعدة ماوراء نهر جیحون من البلاد وخربها اللعین تنکیز التتری جد ملوك العراق فساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القلیل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغیرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوی الباطل وإنکار الحق ولیس بها الیوم من الناس من یعلم شیئا من العلم ولا من له عنایة به.

﴿ذکر أولیة التتر وتخریبهم بخاری وسواها﴾

کان تنکیز خان حداداً بأرض الخطا وکان له کرم نفس وقوة وبسطة فی الجسم وکان یجمع الناس ویطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه علی أنفسهم وغلب علی بلده وقوی واشتدت شوکته واستفحل أمره فغلب علی مالك الخطا ثم علی ملك الصین وعظمت جیوشه وتغلب علی بلاد الختن وکاشغر والمالق وکان جلال الدین سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر له قوة عظیمة وشوکة فهابه تنکیز وأحجم عنه ولم یتعرض له فاتفق ان بعث تنکیز تجارا بأمتعة الصین والخطا من الثیاب الحریریة وسواها إلی بلدة اطرار (بضم الهمزة) وهی آخر عمالة جلال الدین فبعث الیه عامله علیها معلما بذلك واستأذنه ما یفعل فی أمرهم فکتب الیه یأمره ان یأخذ أموالهم ویمثل بهم ویقطع اعضاءهم ویردهم إلی بلادهم لما أراد الله تعالی من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأیا فائلا وتدبیرا سیئا مشئوما فلما فعل ذلك تجهز تنکیز بنفسه فی عساکر لاتحصی کثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحرکته بعث الجواسیس لیأتوه بخبره فذکر أن احدهم دخل محلة بعض امراء تنکیز فی صورة سائل فلم یجد من یطعمه ونزل إلی جانب رجل منهم فلم یر عنده زاداً ولا أطعمه شیئا فلما أمسی اخرج مصرانا یابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار فکانت طعامه فعاد إلی اطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم فاستمد ملیکه جلال الدین فأمده بستین الفا زیادة علی من کان عنده من العساکر فلما وقع القتال هزمهم تنکیز ودخل مدینة اطرار بالسیف فقتل الرجال وسبی الذراری وأتی جلال الدین بنفسه لمحاربته فکانت بینهم وقائع لا یعلم فی الاسلام مثلها وآل الأمر إلی أن تملك تنکیز ماوراء النهر وخرب بخاری وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جیحون إلی مدینة بلخ فتملکها ثم إلی الیامیان (البامیان) فتملکها وأوغل فی بلاد خراسان وعراق العجم فثار علیه المسلمون فی بلخ وفی ماوراء النهر فکر علیهم ودخل بلخ بالسیف وترکها خاویة علی عروشها .

ثم فعل مثل ذلك فی ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لکنها بنیت مدینة علی میلین منها

هى التى تسمى اليوم ترمذ وقتل اهل البامميان (البامميان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذالك إلى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى رحمه الله .

(قال ابن جزى) أخبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو البركات بن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب أبا عبدالله بن رشيد يقول لقيت بمكة نورالدين بن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لى هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون الف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيرى وغير ذالك وأشار إلى ابن أخيه .

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح اباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزى وكان من كبار الأولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى وأضافنى هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هراة وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر قبر الإمام العالم أبى عبدالله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وأيضاً على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع منى فى جملة ماضاع لى لما سلبنى كفار الهند فى البحر .

ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التى ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبى وهى صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لأميرها وعندى جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها فاتفق أنها كانت فى المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهى معهم والزاد وغيره من أسبابى وأقمت أنا حتى ارتحل نهاراً مع بعض من معى فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ماسد جوعتنا وأعار بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الأصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤوا بهم وكان السلطان غائبا عن المحلة

فى الصيد فاجتمعت بنائبه الأمير تقبغا فأنزلنى بقرب مسجده وأعطانى خرقة (خركام) وهى شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية فى تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداً وأخبرونى أنه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرنى بعض الأصحاب أن المولود بنت فاستحضرت الجوارى فسألتهن فأخبرونى بذلك وكانت هذه البنت مولودة فى طالع سعد فرأيت كل مايسرنى ويرضينى منذ ولدت وتوفيت بعد وصولى إلى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ صهر السلطان .

﴿ ذكر سلطان ماوراء النهر ﴾

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولى الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة له الكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطى هذا كافراً وولى بعد أخيه الأكبر كبك وكان كبك هذا كافرا أيضا لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم .

﴿ حكاية ﴾

يذكر أن هذا الملك كبك كان تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميدانى فقال له أنت تقول إن الله ذكر كل شىء فى كتابه العزيز قال نعم فقال أين اسمى فيه فقال هو فى قوله تعالى فى أى صورة ماشاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشى ومعناه بالتركية جيد فأكرمه إكراما كثيرا وزاد فى تعظيم المسلمين .

﴿ حكاية ﴾

ومن أحكام كبك ماذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الأمير وشربه فقال لها أنا اوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله وإلا وسطتك بعده فقالت المراة قد حللته ولا اطلبه بشىء فأمر به فوسط نخرج اللبن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما اقمت بالمحلة وهم يسمونها الاردو اياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى فلما صليت ذكر لى بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن الصلاة تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ

حسن والفقيه حسام الدين الياغى واعامه بحالى وقدومى منذ ايام فقال لى بالتركية خش ميسن يخشى ميسن فقالوا يوسن ومعنى خش ميسن فى عافية أنت ومعنى يخش ميسن جيد أنت ومعنى قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه فى ذلك الحين قباقدسى اخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف إلى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى ثم بعث عنى فوصلت اليه وهو فى خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والأمراء منهم على الكراسى وأصحابهم وقوف على رؤوسهم وبين أيديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وأمام كل واحد منهم سلاحه وهم أهل النوبة يقعدون هنالك إلى العصر ويأتى آخرون فيقعدون إلى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسوا بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والأمراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بايديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغى وآل (بفتح الهمزة) معناه الأحمر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام إلى أربعتهم حين دخولى ودخلوا معى فسلمت عليه وسألنى وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الأعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ويقعد للذكر بالتركيا بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون فى صلاة العصر وكان إذا أوتى بهدية من زبيب أو تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من فى المسجد (حكاية)

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء احد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلى وقال للامام حسام الدين الباغى ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة براى خداو براى طرمشيرين اى الصلاة لله او لطرمشيرين ثم امر المؤذن باقامة الصلاة وقد جاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الاخرتين حيث انتهى به القيام وذلك فى الموضع الذى تكون فيه انعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاته وقام إلى الامام

ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الأمام إلى جانبه وأنا إلى جانب الإمام فقال لى إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطن بالقطن محشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له فى بعض الايام ياسيدى ما هذا القباء الذى أنت لابسه أنه ليس بجيد فقال لى يا ولدى ليس هذا القباء لى وإنما هو لا بنى فرغبت منه أن يأخذ بعض ثيابى فقال لى عاهدت الله منذ خمسين سنة أن لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطانى السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لأجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق واعطانى فرسين وجملين ولما اردت وداعه ادركته فى أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطانى يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وهنا لك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن اغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاى) وكان مسلما إلا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف احكام جدهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما فى السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتى أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وإن كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبا فى

بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل بكم هذا اليوم ومحا رسمه فأنكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ولم يصل إلى الجهة التى توالى الصين والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لأن اصل ملكهم منها ودار الملك هى مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من امرائه ولم يأمنهم فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد دغزنة وهى من عمالته وواليها كبيرا امرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الأمير محب فى الاسلام والمسلمين قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وبقى ابنه ينقى ببلخ فلما أعلمه التركى بخبره قال ما فر إلا لأمر حدث عليه فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن إلى سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه ينقى بطرمشيرين فيذكر أنه لما وصل إلى نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردون (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مد ودال مهمل) معناه المقطوع ويسمى بذلك لضربة كانت فى عنقه وقد رأيته بأرض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيروز إلى ملك الهند فعظمهم وانزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادعى انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذى تعرض بين يديه عساكر الهند واليه امرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه واخبروه انه هو طرمشيرين حقا فامر له بالسراجة وهى افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى فى خدمته الى السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك احد انه هو وبعث إلى ملك الهند يخبره فبعث اليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين

فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال الملك أنا أتوجه إليه وأعرف حقيقة أمره فانى كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقى أثره وبه أعرفه فأتى إليه ذلك الحكيم واستقبله مع الأمراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الأثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر إلى الدمل الذى عالجته هاهو ذا واروه أثره فتحقق انه هو وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان احمد بن اياس وكبير الأمراء قطلوخان معلم السلطان ايام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له ياخوند عالم هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح انه هو وهاهنا من قومه نحو اربعين الفا وولده وصهره ارايت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان يامادركانى وهى شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن اعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاى اغلى واخته ولدى طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه .وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه

ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فأكرمه سلطانها أبو اسحق وأجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولى من الهند إلى مدينة شيراز ذكر لى أنه باق بها وأردت لقاءه ولم أفعل لأنه كان فى دار لا يدخل إليه أحد إلا باذن من السلطان أبى إسحق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه .

(رجع الحديث إلى بوزن) وذلك أنه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم نضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى فأعلمه بما كان فى نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك إذا استقام فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هراة وترمذ تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو كان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسينى النسب فأتاه فى أربعة آلاف من المسلمين فسربه وولاه وزارته وفوض اليه امره وكان من الابطال وجاء الأمراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل

والتقى مع بوزن فمالت العساكر إلى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقاً وباو تاو القسى وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقاً واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفاً عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذي جاء به من هراة وقصد بلاد المالق فقدم التتر على انفسهم واحداً منهم والقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمى القتال وصبر الفريقان فحمل الأمير خداوندزاده وزيره فى عشرين ألفاً من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثاً وخرج إلى استئصال من بقى من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز إلى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف إلى سمرقند بخارى ثم أن الترك أرادوا الفتنة فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور وزعموا أنه يريد الثورة ويقول أنه أحق بالملك لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث والياً إلى المالق عوضاً عنه وأمره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسيناً وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الإسلام وزاوه باغياً عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأتى به إلى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله فى دار واعطاه جارية واجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجى من الهند (ولنعد إلى ما كنا بسبيله) ولما ودعت السلطان طرمشيرين سافرت إلى مدينة سمرقند وهى من اكبر المدن واحسنها واتمها جمالاً مبنية على شاطىء واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسق البساتين وعنده يجتمع اهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علو هم اهلها فدثر اكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا ابواب عليها وفى داخلها البساتين واهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة فى الغريب وهم خير من اهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن

العباس بن عبدالمطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته والتتر ياتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك على حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين بالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير أيام التتر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر فى كل حال من هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبدالعزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسى قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتى ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر إلى بلاد الهند بعد سفرى إليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند .

(حكاية)

لما مات هذا القاضى بملتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند وأنه قد يرسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر إلى الملك أمر أن يبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير لااذكره الآن وأمر أن يعطى لأصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة ولملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجرى فى ذلك البلد من الأمور وممن يرد عليه من الواردين وإذا أتى الوارد كتبوا من أى البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفى مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ التى ينسب إليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير فى السنن وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخترقها الأنهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها متناهى الطيب

واللحوم بها كثيرة وكذلك الألبان وأهلها يغسلون رؤسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى إناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون فى رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطىء جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولى إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوند زاده وكتب لى إليها بالضيافة فكانت تحمل إلينا أيام مقامنا بها فى كل يوم ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب الإذن له فى السفر إلى بلاد الهند وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعا إلى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائى لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل ابيهما وتزويجهما بنتى الوزير خواجه جهان وما جرى فى ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم أجزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادى يوما ونصف يوم فى صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ وهى خاوية على عرشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد إلى خراسان وإنما يجلب من جبال بدخشان التى ينسب إليها الياقوت البدخشى والعامة يقولون البلخش وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك

﴿حكاية﴾

ذكر لى بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبنى العباس يسمى داود بن على فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث إليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التى بنيت المسجد وهى زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت إلى الأمير الذى

قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة إليها ليرد المرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الأمير إلى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبنى منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا إن احتيج إليه خرج فاخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيئا فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محصن الأسدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذى يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون فى الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه وهى دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذى يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مختزنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهى بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا فى جبال قوه استان (قهستان) سبعة أيام وهى قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هراة وهى أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولأهلها اصلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد .

﴿ ذكر سلطان هراة ﴾

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والشجاعة ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه

العجب احدها عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه وكان منتهى أمره حصوله أسيرا فى يديه والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخيه بعد أبيه غياث الدين

﴿حكاية الرافضة﴾

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الأصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخرسان بسرابداران (سربداران) ويعرفون بالعراق بالصقور فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا مدينة سبزار (سبزوار) فكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشى فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الأموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وإن ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتى ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقومون حتى يأتى القوم أو يمضوا إليهم فيناجزونهم فوقع اجماعهم على الخروج إليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال أنهم منسوبون إلى غور الشام وان أصلهم منه فتجهزوا أجمعون واجتمعوا من أطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهى مسيرة أربع لايزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم واكثر

شجرها الفستق ومنها يحمل إلى أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا جميعا إلى الرافضة وهم مائة وعشرون الفا ما بين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين الفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين الفا حتى قتل وقتل اكثرهم واسر منهم نحو اربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى واتى بالطعام فكان هو وكبراء اصحابه يأكلون وسائرهم يضربون اعناق الاسرى وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه واطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية واربعين ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان اهل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

﴿ حكاية ﴾

ذكر لي انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فاقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

﴿ حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور ﴾

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء وملكهم غيتمور الذي مر ذكره وهم نحو خمسين الفا يخافهم الملك حسين ويهدي لهم الهدايا في كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة واما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد إلى مدينة هراة وربما شربوا بها الخمر واتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك اهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يسكن بارض الهند ما بين الكفار فإذا خرجوا بهن إلى خرسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن مثقوبات فاتفق مرة ان اميرا من أمراء الترك يسمى تمور الطي سبي امرأة وكلف بها شديدا فذكرت انها

مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة وهى فى مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا الاهل هراة ما يركبون ولا ما يحلبون وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب بهم ردما اخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذى بينهم فاجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل إلى هذا وكان الشيخ أبو احمد الجستى حفيد الشيخ مودود الجستى له بخرسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب فى جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال انا احمل الفقيه نظام الدين معى إلى الترك ايرضوا بذلك ثم ارده فكان الناس مالوا إلى قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ ابى احمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطى وقال له انت أخذت امرأتى منى وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخر ميتا فسقط فى ايدى الشيخ ابى أحمد وانصرف من هنالك إلى بلده ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه على مدينة هراة فلقيه جماعه من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفر اصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر رسولا إلى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه ان يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وانا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفى طبعه حب الرياسة والصيد والبزاز والخيل والمماليك والأصحاب واللباس الملوكى الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فإنه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من امره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض اهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعى الملك حسين فى ذلك ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند واعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون الفا من دنانير الذهب فى كل سنة (ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هراة الى مدينة الجام وهى متوسطة حسنة ذات بساتين واشجار وعيون كثيرة وانهار واكثرها التوت والحرير بها كثير وهى تنسب الى الولى العابد الزاهد شهاب الدين احمد الجامى وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ احمد المعروف بزاده الذى قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهى محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لى من اثق به ان السلطان ابا سعيد

ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ فاضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق فى المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته

﴿ حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام ﴾

يذكر أنه كان صاحب راحة مكثرا من الشراب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة ان يجتمعوا يوما فى منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على إصلاح حاله مع ربه وقال فى نفسه ان قلت لاصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فاحضر ما كان يحضر مثله قبل من ماكولات ومشرب وجعل الخمر فى الزقاق وحضر اصحابه فلما ارادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه احدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجده كذلك ثم ثالثا فوجده كذلك فكلموا الشيخ فى ذلك فخرج لهم عن حقيقة امره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا إلا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهى اكبر بلاد خراسان واعظمها بلد الامام الشهير بابى حامد الغزالى رضى الله عنه وبها قبرة ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضا وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن امير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنهم وهى ايضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند اهل مصر والشام والعراق واهل الهند والسند وتركستان يقول السيد الاجل وكان ايضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين لقيته بارض الهند الشريف على وولده امير هند ودولة شاه وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهى مبسوطة بانواع البسط وإزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد امير المؤمنين رضى الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التى يعرفها اهل المغرب بالحسك والمنائر وإذا دخل الرافضى للزيارة ضرب

قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسى رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهى مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد فى ايديهم واعناقهم وآذانهم ويجعلون ايضا فى ذكورهم حتى لايتاتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهى إحدى المدن الاربع التى هى قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار واسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو فى وسط السوق ويليه اربع من المدارس يجرى بها الماء الغزيز وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤن القرآن والفقه وهى من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وإن بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا امير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد فى سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين ابو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهى التى عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لانظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لاقدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها وتحمل منها إلى الهند وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابورى احد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فاحسن القرى واكرم ورايت له البراهين والكرامات العجيبة

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معى فقال لى هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب إلى بعض اصحابى من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض اولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التى ينسب اليها الشيخ العارف ابو يزيد البسطامى الشهير رضى الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه فى قبة واحـــدة احد اولاد جعفر الصادق رضى الله عنه وببسطام ايضا قبر الشيخ الصالح الولى ابى الحسن الخرقانى وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ ابى يزيد البسطامى رضى الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهى قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه

ومعنى ذلك الأسد الأسود وأضافنا بها والى تلك الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك .

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعى الجمال والخيل وبها مراعى طيبة وأعشاب كثيرة والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطية وقد قدمنا أن أحكام الترك فى من سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة .

والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يسم كل واحد دوابه فى أفخاذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس .

ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفاً على أنفسهم من الأحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا فى أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب إقامتنا خوف الثلج فان بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لأن العبيد والجوارى الذى يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا حتى تمكنا من دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدى الجمال تطأ عليها لئلا تغرق فى الثلج ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور .

ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهو الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعده وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى وهو معظم عندهم ووصلنا إلى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم والف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية الاب وأولياء

باللسان العربي فمعناه أبو الأولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله (صاله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطين والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزل على نهر عند زاويته ودخلنا إليه فسلمت عليه وعانقني وجسمه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لي انه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان وانه رأى أباهم الذي قبره بملتان من السند وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات وشككت في حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا إلى برون (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون (وفيها لقيت الأمير برطية وضبط اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن وهاء) واحسن إلي واكرمني وكتب إلى نوابه بمدينة غزنة في إكرامي وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطى من البسطة في الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا إلى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة وإسكان الراء وخاء معجم) وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في ايام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا إلى مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية قد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها إلا يسير وكانت كبيرة وهي شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها ايام البرد إلى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا اميرها مردك اغا ومردك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير واغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الأصل ثم سافرنا إلى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية واكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان يذكر ان نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الأفغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الأولياء ومنها رحلنا إلى كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الأفغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لأجلها ومعي جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادت

الهاخيلنا بالغدفاحتملتهاووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششعار وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك ومن هنادخلنا البرية الكبرى وهى مسيرة خمس عشرة لاتدخل إلا فى فصل واحد وهو بعدنزول المطر بأرض السند والهند وذلك فى أوائل شهر يولية وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسوم حتى أن الرجل إذا مات تنفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا أن هذا الريح تهب أيضا فى البريه بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده قاضى ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيره ووصلت رفقتنا سالمه بحمد الله تعالى إلى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فمعنى ذلك الأودية الخمسة وهى تصب فى النهر الاعظم وتسقى تلك النواحى وسنذكرها إن شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وهاهنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر والحمد لله رب العالمين

﴿ تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى ﴾

{ تذييل } يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة إلى هذا الحد وهو اول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى فى ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثانى جلد رأيناه من المفيد أن نورد هنا عبارة توجد فى مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بقصها وفصها * ورد على المغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان ابى عنان وكان يحدث عن شان رحلته ومارای من العجائب بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من احواله بما يستغرب به السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه فى ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وامثال هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت أنا يومئذ فى بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشان واريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشىء فى السجن وذلك أن وزيرا اعتقله سلطانه فمكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المجلس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له ابوه بشياتها ونعوتها فيقول يا ابت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا فى لحم البقر والابل إذ لم يعاين فى محبسه إلا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس للفار وهذا كثيرا ما يعترى الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان إلى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شىء فلا يفرض حدا بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشىء فاذا نظرنا أصل الشىء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم فى نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على خرج ما من نطاقه وقل ربى زدنى علما (اه بحروفه)

رحلة ابن بطوطة

المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الثانى

سنة ١٩٥٨ م — سنة ١٣٧٧ هـ

روجعت وصححت على عدة نسخ صحيحة
بمعرفة لجنة من الأدباء

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص. ب ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ﴾
المعروف بابن بطوطه رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز وهو عرض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى إسمه الحاد الرأس لأن سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) وهو الرأس وتيز (بتاء معلوة وياء مد وزاى) معناه الحاد وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة على مسيرة خمسين يوما وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه فى خمسة أيام بسبب البريد .

﴿ ذكر البريد ﴾

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (أولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال وأما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو) والداوة هى ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل

نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهى جهده ،

فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه.

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها فى الأطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان وكذلك يحملون الكبار من ذوى الرتب يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون بهشدا وكذا يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد يحملونه من نهر الكنك الذى تحج الهنود اليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها .

وإذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئا .

فاذا وصل الوارد مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند وأقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة وإنما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته إذ لا يعرف هنالك ماحسبه ولا آباؤه .

ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء ونفذ أمره بان يسمى الغرباء فى بلده الأعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء اليه كثير ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة ويخدمونهم بأموالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالحشم فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه

حمل من النشاب فانه مما يهدى إلى السلطان وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند وهنالك تقاضى منى مائة واستفاد بسببى فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيرا

﴿ ذكر الكركدن ﴾

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج اب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه فى وسطها فخرج علينا الكركدن وصورته انه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن راس بلا بدن وهو دون الفيل وراسه اكبر من راس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان فى طريقه فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصرعه وعاد إلى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعى نبات الأرض فلما قصدناه هرب منا ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجاله والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة .

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جنانى (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الأولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج ابن يوسف حسبما أثبت المؤرخون فى فتح السند وأخبرنى الشيخ الامام العالم العابد الزاهد ركن الدين أبى الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشى وهو أحد الثلاثة الذى أخبرنى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية انى سألقاهم فى رحلتى فلقيتهم والحمد لله ان جده الأعلى كان يسمى بمحمد ابن قاسم القرشى وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف ايام إمارته على العراق وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر اليهم احد حين يأكلون ولا يصاهرون احدا من غيرهم ولا يصاهر اليهم أحد وكان لهم فى هذا العهد امير يسمى ونار (بضم الواو وفتح النون) وسنذكر خبره ثم سافرنا من مدينة جنانى الى ان وصلنا الى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهى مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لاشجر بها إلا شجر أم غيلان ولا يزرع

على نهرها شيء ماعدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والالبان الجاموسية وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بام حنين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا انها لاذنب لها ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الاصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رايت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان اصحابي يقعدون عريانين يجعل احدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى وهكذا أبدا ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن .

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين لفلان عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها الشيخ المعمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرتدي وذكر ان عمره يزيد على مائة واربعين سنة وانه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون ابن تنكيز التتري وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه

(حكاية)

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري الذي تقدم ذكره والأمير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو الف وثمانية فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلوة والنون) وهو من الحذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الأطبال والعلامات كما يعطى كبار الأمراء فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فأجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه اشاروا عليه بالخروج الى احواز المدينة ليتطلع على امورها فخرج معهم فلما جن الليل اقاموا ضجة بالمحلة وزعموا ان السبع ضرب عليها وقصدوا ضرب الكافر فقتلوه وعادوا الى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا واللك مائة الف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموا على انفسهم

وثار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الأموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز ملوك السلطان وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام وخرج اليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة وتحصنوا بالمدينة فحاصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم فأعطاهم الأمان فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط البعض ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر اليها وجمع رؤسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الوقعة بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فاذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت .

﴿ ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك ﴾

وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالاهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء) وهي نوع من الطريدة عندنا إلا انها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير ويجلس أصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو أربعين ويكون مع هذه الأمور الاهورة أربعة من السفن عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الامير وهي العلامات والطبول والابواق والأنفار والصرنايات وهي الغيطات والآخران فيهما اهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الظهر فاذا كان وقت الغداء اجتمعت المراكب ووصل بعضها ببعض ووضعت بينهما الاصقالات وأتى اهل الطرب الى اهورة الامير فيغنون إلى ان يفرغ من أكله ثم يأكلون وإذا فرغوا من الاكل عادوا الى سفنهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم الى الليل فاذا كان الليل ضربت المحلة على شاطىء النهر ونزل الأمير الى خيامه ومد

السهالوط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الآخيرة سمر السهار بالليل نوبا فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال ياخوندملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الآخرى فإذا أتموها نادى مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصلت صلاة الصبح وأتى بالطعام فإذا فرغ الأكل أخذوا فى المسير فان أراد الأمير ركوب النهر ركب على ماذكرناه من الترتيب وإن أراد المسير فى البر ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فإذا أقبلوا على قرية اوماهو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأطبال والصرنايات ثم تدق أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا فإذا كان وقت الغذاء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهرى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند فى البحر فيلتقى بها بحران ولها مرسى عظيم يأتى اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم، بذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرنى الأمير علاء الملك المذكور ان مجبى هذه المدينة ستون لكا فى السنة وقد ذكرنا مقدار اللك وللامير من ذلك نم (نيم) ده يك ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر.

(ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة)

وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم وقد تغيرت كثير منها ودثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس اورجل أو سواهما ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدرات دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمى إلا أن رأسه طويل وفمه فى جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدرات بالهندى وأخبرنى علاء الملك ان اهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة اكثر اهلها الفساد فمسخوا حجارة وأن ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها وهى الان تسمى دار الملك وأن الكتابة التى فى بعض الحيطان بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة

وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة ايام ثم أحسن فى الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلو خان أيام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفى ولقيت بها قاضيها المسمى بأبى حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازى وهو من المعمرين ذكر لى أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهى مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجى أحد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفى بعد سقطة سقطها عن فرسه .

﴿ مكرمة لهذا الملك ﴾

ونشأت بينى وبين هذا الملك الشريف جلال الدين موده وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلى فلما سافر السلطان إلى دولة أباد كما سنذكره وأمرنى بالاقامة بالحضرة قال لى جلال الدين أنك تحتاج إلى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتى واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغليت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن الجزاء

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى وألبسنى الخرقة وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معى إلى ان سلبنى كفار الهنود فى البحر ثم سافرت من اوجه إلى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة) وهى قاعدة بلاد السند ومسكن أمير امرائه وفى الطريق اليها على مسافة عشرة أميال الوادى المعروف بخسرو اباد وهو من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمراكب وبه يبحث عن امتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عادتهم حين وصولنا اليها ان يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما .

ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وأمر ان لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة أبى العباس العباسى ولما أخذنا فى إجازة هذا الوادى وفتشت الرحال عظم على تفتيش رحلى لأنه لم يكن فيه طائل وكان يظهر فى أعين الناس كبيرا فكنت أكره ان يطلع عليه ومن لطف الله تعالى ان وصل احد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فأمر ان لا يعرض لى ببحث ولا تفتيش فكان كذلك فحمدت

الله على ماهيأه لى من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطىء الوادى وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان وهو سمرقندى الأصل وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان .

﴿ ذكر أمير ملتان وترتيب حاله ﴾

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلائهم لما دخلت قام إلى وصافحنى وأجلسنى إلى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز وهو من أعظم ما يهدى اليهم لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضى ويسمى سالارو الخطيب ولا اذكر اسمه وعن يمينه ويساره امراء الأجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهناك قسى كثيرة فإذا أتى من يريد ان يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها وهى متفاوتة فى الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ومن اراد ان يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمحه وهناك ايضا خاتم معلق فى حائط صغير فيجرى فرسه حتى يحاذيه فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم ومن اراد ان يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الأرض فيجرى فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر من الانسان فى ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بإنزالنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا احدا حتى يأتى امر السلطان.

﴿ ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند ﴾

فمنهم خداوندزاده قوام الدين قاضى ترمذ قدم بأهله وولده ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه احد كبار سمرقند ومنهم ارن بغا احد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن اخت خداوندزاده وبدر الدين الفصال وكل واحد من هؤلاء معه اصحابه وخدامه واتباعه ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران وصل احد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجى والملك محمد الهروى الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان ام السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور واتوا بالخلع لها ولأولادهما ولتجهيز من قدم الوفود واتوا جميعا إلى وسألونى لماذا قدمت فأخبرتهم إنى قدمت للاقامة فى خدمة خوند عالم وهو السلطان وبهذا يدعى فى بلاده وكان امر ان لا يترك احد ممن

يأتى من خراسان يدخل بلاد الهند إلا ان كان برسم الإقامة فلما أعلمتهم أنى قدمت للاقامة استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقد على وعلى من أراد الإقامة من أصحابى وابى بعضهم من ذلك وتجهزنا للسفر إلى الحضرة .

وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه مايحتاج اليه فى ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا وكان الحاجب يتقدم ليلا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خداوندزاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحد مما ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه واصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوندزاده ولم احضره أنا إلا مرة واحدة وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبيرة بحيث تكون الشاة اربع قطع او ستا ويجعلون امام كل رجل قطعة ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك ببلادنا ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتى ومعناه الآجرى مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيئا يسمونه سموسك وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والابازير موضوعة فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون امام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو اربعا ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضى ويسمونه الهاشمى ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على السماط قبل الاكل ويخدم إلى الجهة التى فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع فإذا فعلوا ذلك جلسوا للاكل ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولا فى الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب بسم الله فعندذلك يشرعون فى الاكل فاذا اكلوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل وقد تقدم ذكرهما فاذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون .

ثم سافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على ماسطرناه إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند وكان أول بلد دخلناه مدينة أبوهر (بفتح الهاء) وهى أول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار وليس هنالك من اشجار بلادنا ناشىء ماعدا النبق لكنه عندهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص شديد الحلاوة ولهم اشجار كثيرة ليس يوجد منها شىء ببلادنا ولا بسواها .

﴿ ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها ﴾

فمنها العنب (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهي شجرة تشبه أشجار النارنج إلا انها أعظم اجراما واكثر أوراقا وظلها اكثر الظلال غير انه ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان اخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فإذا نضجت العنبه في اوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح فالبعض يقطعها بالسكين والاخر يمصها مصا وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها والشكي والبركي (بفتح الشين المعجم وكسر القاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف) وهي اشجار عادية اوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجر فما اتصل منه بالأرض فهو البركي وحلاوته أشد وطعمه اطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فإذا اصفر في اوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق اصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير وإذا شويت هذه النواة او طبخت يكون طعمها كطعم الفول إذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة اخرى وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند والتندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الأبنوس وحباته قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة، والجوز (بضم الجيم المعقودة) واشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو اسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ،والنارنج الحلو وهو عندهم كثير واما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جدا وكنت يعجبني اكله، ومنها المهوا (بفتح الميم والواو) واشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز إلا ان فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي اعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب .

إلا ان الاكثار من اكلها يحدث في الراس صداعا ومن العجب ان هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان طعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضا عن التين إذ لا يوجد ببلاد

الهند وهم يسملون هذه الحبة الأنكور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بأرض الهند عزيز جداولا يكون بها إلا فى موضع بحضرة دهلى وببلاد أخرى ويثمر مرتين فى السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر السين المهمل وياء مدوراء) يحفرون عليها الأرض وهى شديدة الحلاوة تشبه القسطل وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ويثمر مرتين فى السنة ورايته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار (بفتح الهمزه والنون) وأظن ذلك هو الأصل فى تسمية الجلنار فإن جل بالفارسية الزهر ونار الرمان

﴿ ذكر الحبوب التى يزرعونها أهل الهند ويقتاتولى بها ﴾

وأهل الهند يزرعون مرتين فى السنة فإذا نزل المطر علدهم فى أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفى وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو) وهو نوع من الدخن وهذا الكذرو وهو أكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف)وهو شبه انلى ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمتين وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط فى القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جداً وإذا جمع جعل فى الشمس ثم يدق فى مهارس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهى أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون فى كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهى نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو إلا أن حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وإنما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام فى كل يوم مقدار

ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب فى تلك الأيام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية وإذا حصدها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهى القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها فى الأرض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها (ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فأقول سافرنا من مدينة أبو هر فى صحراء مسيرة يوم فى أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذى تكون القرية فى اقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

﴿ ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند ﴾

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر خرج الناس منها أول النهار وأقمت بها إلى نصف النهار فى لمة من أصحابى ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان وكان أصحابى ذوى نجدة وعتى فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلا واصابتنى نشابة وأصابت فرسى نشابة ثانية ومن الله بالسلامة منها لأن نشابهم لا قوة لها وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس إلى حصن أبى بكهر تعلقناها على سوره وكان وصولنا فى نصف الليل إلى حصن أبى بكهر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هى للشيخ الصالح فريد الدين البذاونى الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الأعرج بالاسكندرية أنى سألقاه فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه وإذا الصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وابلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده علم الدين

وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوانى منسوبة إلى مدينة بذاون بلد السنبل (وهى بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لى علم الدين لا بد لك من رؤية والدى فرأيته وهو فى أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهى مائلة إلى جانب ودعا لى وبعث إلى بسكر ونبات

﴿ ذكر اهل الهند الذين يحرقون انفسهم بالنار ﴾

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رايت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض اصحابنا فسألتهم ما الخبر فأخبرونى إن كافراً من الهنود مات واججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء اصحابى واخبروا انها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد ارى المراة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى احراقها فيؤذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة انى كنت بمدينة اكثر سكانها الكفار تعرف بامجرى واميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الأمير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على احراق انفسهن واحراق المراة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غيرّ واجب لكن من احرقت نفسها بعد زوجها احرز اهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب واقامت عند اهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على احراق انفسهن اقمن قبل ذلك ثلاثة ايام فى غناء وطرب واكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتى إليهن النساء من كل جهة وفى صبيحة اليوم الرابع اتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها واقاربها معها وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار وكل إنسان من الكفار يقول لها ابلغى السلام إلى ابى او اخى او امى او صاحبى وهى تقول نعم وتضحك إليهم وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة اميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال وبين اشجاره اربع قباب فى كل قبة صنم من

الحجارة و بين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار فلا تخللها الشمس فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به وأتيت كل واحده منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجان فزاد فى اشتعالها وهنالك نحو خمسه عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم ماوامىترا سانى ازاطش (آتش) من ميدانم أواطش است رها كنى ماراوعى تضحك ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفوننى أنا اعلم أنها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت اسقط عن فرسى لولا أصحابى تداركونى بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنك وهو الذى إليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون أنه من الجنة وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لاتظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال إنما قصدى التقرب إلى كساى وكساى (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فإذا مات اخرجوه واحرقوه ورموه برماده فى البحر المذكور (ولنعد) إلى كلامنا الأول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة ايام منها إلى مدينة سرستى (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الأرز وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضرة دهلى ولها مجبى كثير جداً اخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجى بمقداره وانسيته ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والف ونون ساكن وسين مهمل مكسور وياء) وهى من احسن المدن واتقنها واكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا ان بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره (بضم التاء المعلوة وفتح الراء) وله عندهم

حكايات واخبار من هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضى قضاة الهند واخوه قطلوخان معلم السلطان واخواهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسى فوصلنا بعد يومين إلى مسعود اباد وهى على عشرة اميال من حضرة دهلى واقمنا بها ثلاثة ايام وحانسى ومسعود ابادهما للملك المعظم هو شنبج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كرك وكرك (بكافين معقودين اولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسيأتى ذكره وكان سلطان الهند الذى قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلى عشرة ايام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها ايضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن اياس الرومى الأصل فبعث الوزير إلينا اصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائى الشيخ البسطامى والشريف المازندرانى وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتانى المعروف بقنره (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب إلى السلطان بخبرنا وبعث الكتاب مع الدواة وهى بريد الرجالة حسبما ذكرناه فوصل إلى السلطان واتاه الجواب فى تلك الأيام الثلاثة التى اقمناها بمسعود اباد وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء وهم يسمون الأمراء ملوكا فحيث يقول اهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجانى وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود اباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم (بفتح الباء المعقوده وفتح اللام) وهى للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهرى احد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلى قاعده بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير وهى اعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق

﴿ذكر وصفها﴾

ومدينة دهلى كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهى الآن اربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دهلى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة اربع وثمانين وخمسمائة والثانية تسمى سيرى (بكسر السين المهمل والراء بينهما ياء مد) وتسمى ايضا دار الخلافة وهى التى اعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما والثلاثة

تسمى تغلق اباد باسم بانيها السلطان تغلق والدسلطان الهند الذى قدمنا عليه وكان سبب بنائه لها انه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له ياخوند عالم كان ينبغى ان تبنى هنا مدينة فقال له السلطان متهكما إذا كنت سلطانا فابنها فكان من قدر الله ان كان سلطانا فبناها وسماها باسمه والرابعة تسمى جهان بناه وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه وهو الذى بناها وكان أراد ان يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم مايلزم فى بنائه

﴿ ذكر سور دهلى وابوابها ﴾

والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب وفيها مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بهامده طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب ورايت ايضا الكذ ويخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء واسفل هذا السور مبنى بالحجارة واعلاه بالاجر وابراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بذاون وهى الكبرى ودروازة المندوى وبها رحبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهى موضع البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة إلى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ودروازة البجالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل) وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وإن كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل فل (كل شنبو) ورىول (راى بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول

﴿ ذكر جامع دهلى ﴾

وجامع دهلى كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة ابدع نحت ملصقة بالرصاص اتقن الصاقه ولا خشبة به اصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره ايضا من الحجر وله اربعة من الصحون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدرى من أى المعادن هو ذكر لى بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون

الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعا وأدرنا به عمامة فكان الذى احاط بدائرته منها ثمان اذرع وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس مطروحان بالأرض قد الصقا بالحجارة ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه وكان موضع هذا المسجد بدخانة وهو بيت الأصنام فلما افتتحت جعل مسجدا وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الاسلام وهى مبنية بالحجارة الحمر خلافا لحجارة سائر المسجد فانها بيض وحجارة الصومعة منقوشه وهى سامية الارتفاع وحلها من الرخام الأبيض الناصع وتفافيحها من الذهب الخالص وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة حدثنى من اثق به انه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها وهى من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين ان يبنى بالصحن الغربى صومعة اعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها واراد السلطان محمد اتمامها ثم ترك ذلك تشاؤما وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا انها بالصحن الشمالى وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الإسوار على ارتفاعها وسموها منحطة وظهر لى الناس فى اسفلها كأنهم الصبيان الصغار ويظهر لناظرها من اسفلها انّ ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى ايضا مسجدا جامعا بسيرى المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد واراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكا فترك ذلك استكثارا له واخبرنى بعض خواصه انه لم يتركه استكثارا لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

﴿ ذكر الحوضين العظيمين بخارجها ﴾

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين للمش ومنه يشرب اهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة امثال الدكاكين بعضها اعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء وبجانب كل دكان

قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين فى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجمولة طبقتين فاذا كثر الماء فى الحوض لم يكن سبيل اليها إلا فى القوارب فاذا قل الماء دخل إليها الناس وداخلها مسجد وفى أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه إذا جف الماء فى جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاص وهو اكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة واخبرت ان النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الأئمة وعددهن كبير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال اهل الطرب فى عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنى لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى

﴿ ذكر بعض مزاراتها ﴾

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكى وهو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة او الذين لهم البنات ولم يجدوا ما يجهزوهن به إلى ازواجهن يعطى من اتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة حتى عرف من اجل ذلك بالكعكى رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلانى (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة إلى كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

﴿ ذكر بعض علمائها وصلحائها ﴾

فنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة) وهو كبار الصالحين والناس يزعمون انه ينفق من الكون لأنه لا مال له ظاهر وهو يطعم الوارد والصادر ويعطى الذهب والدراهم والأثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها ورايته مرات كثيرة وحصلت لى بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى كأنه منسوب إلى نيل مصر والله اعلم كان من اصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزوانى وهو يعظ الناس فى كل يوم جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم

﴿ حكاية ﴾

شاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ فقرأ القارى بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة

الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فأبى ذلك وزاره يوما وأتى اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث وأنه قيل له فى ذلك فقال لا افطر حتى اضطر فتحل لى الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبدالله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلى بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني زرته بهذا الغار ثلاث مرات

﴿ كرامة له ﴾

كان لى غلام فابق مني والفيته بيد رجل من الترك فذهبت الى انتزاعه من يده فقال لى الشيخ أن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه وكان التركى راغبا فى المصالحة فصالحته بمائة دينار اخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة اشهر قتل سيده وأتى به إلى السلطان فأمر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندى للفقراء والمساكين واقمت عنده مدة فكنت اراه يواصل عشرة ايام وعشرين يوما ويقوم اكثر الليل ولم ازل معه حتى بعث عنى السلطان ونشبت فى الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وساذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعى الى الدنيا

﴿ ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك ﴾

حدثنى الفقيه العالم العلامة قاضى القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى الملقب بصدر الجهان ان مدينة دهلى افتتحت من ايدى الكفار فى سنة اربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الاعظم بها وأخبرنى ايضا انها افتتحت على يد الأمير قطب الدين ايبك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة) وكان يلقب سياه (سالار) ومعناه مقدم الجيوش وهو احد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغورى ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك

ابراهيم ابن السلطان الغازى محمود بن سبكتكين الذى ابتدأ فتح الهند وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها وعظم شأنه وسعى به إلى السلطان وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند وانه قد عصى وخالف وبلغ هذا الخبر إلى قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ودخل على السلطان ولاعلم عند الذين وشوا به إليه فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد أيبك تحت السرير بحيث لا يظهر وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به فلما أستقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن ايبك فذكروا له أنه عصى وخالف وقالوا قد صح عندنا انه ادعى الملك لنفسه فضرب السلطان سريره فصفق بيديه وقال يا أيبك قال لبيك وخرج عليهم فسقط فى أيديهم وفزعوا إلى تقبيل الأرض فقال لهم السلطان قد غفرت لكم هذه الزلة وإياكم والعودة إلى الكلام فى ايبك وأمره أن يعود إلى بلاد الهند فعاد إليها وفتح مدينة دهلى وسواها واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد وأقام قطب الدين بها إلى أن توفى .

﴿ ذكر السلطان شمس الدين للمش ﴾

(وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلى مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك واخذ الناس بالبيعة فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى فدخلوا عليه وقعد بين يديه وقعد القاضى إلى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقرأ القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وانصفه ممن ظلمه ثم أنه اعيا فى ذلك فقال ان بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل انصافهم فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه ولما توفى السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالى بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتا تسمى رضية هى شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه

﴿ ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين ﴾

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه أفتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فأنكرت ذلك عليه فأرادقتلها فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمى دولة خانة ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه إليهم فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا بأخيه وكان آخرهما ناصر الدين صغيرا فاتفق الناس على تولية رضية .

﴿ ذكر السلطانة رضية ﴾

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية اخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولى الملك أخوها ناصر الدين

﴿ ذكر السلطان ناصر الدين بن السلطان شمس الدين ﴾

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة ثم ان رضية وزوجها خالفا عليه وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيأ لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولى الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع واجهدها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الأرض فطلبت منه ما تأكله فأعطاها كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم وكانت في زي الرجال فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها فأنكر أهل السوق شانه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبنى عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به وهو على شاطىء النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الأمر عشرين سنة وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ثم أن نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره

﴿ ذكر السلطان غياث الدين بلبن ﴾

(وضبط اسمه بباء بن موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخرها نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين عادلا حليما فاضلا ومن مكارمه أنه بنى دارا وسماها دار الامن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفا أمن ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضا من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره .

﴿ حكاية ﴾

يذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيرا حقيرا دميما فقال له يا تركك وهي لفظة تعبر عن الاحتقار فقال له لبيك ياخوند فأعجبه كلامه فقال له اشترلى من هذا الرمان وأشار إلى رمان يباع في السوق فقال نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال له وهبناك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك فى ضميره واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن لما ذكرناه من دمامته فقال لاأقبل هذا فقال له بلبن ياخوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسى فقال اشترنى أنا لله عز وجل فقال نعم وقبله وجعله فى جملة المماليك فاحتقر شأنه وجعل فى السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين أن أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه ولا يزالون يلقون ذلك وهو لا يلتفت إلى أقوالهم لصلاحه وعدله إلى أن ذكرا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك وأثر فى نفسه وبعث على المنجمين فقال أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى إذا رأيتموه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فأمر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون لم نره بعد وحان وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض إنا قد جعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ونبعث أحدنا إلى السوق ليشترى لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن إذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين فى العرض وهو لم يأت بعد فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى وعرضوه على انه بلبن فلما نودى اسمه جاز الصبى بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها

وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انفاذ قضائه ثم أنه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الأجناد ثم من الأمراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلي الملك ولما ولي الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده واليا لأبيه ببلاد السند ساكنا بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر وترك ولدين كي قباد وكي خسرو وولد السلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين وكان واليا لأبيه ببلاد اللكنوتي وبنجالة فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كي خسرو وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين كذلك ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين وهو الذي تولى الملك بعد جده في خبر عجيب نذكره وأبوه إذ ذاك حي كما ذكرناه

﴿ ذكر السلطان معز الدين بن ناصر ابن السلطان غياث الدين بلبن ﴾

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلا وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو حسبما قصصناه كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكي خسرو فادار عليه حيلة تمت وهي أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الأمراء الكبار بأنهم بايعوا السلطان معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال كي خسرو فما الحيلة قال انج بنفسك هاربا إلى بلاد السند فقال وكيف الخروج والأبواب مسدودة فقال له ان المفاتيح بيدي وأنا افتح لك فشكره على ذلك وقبل يده فقال له اركب الآن فركب في خاصته ومماليكه وفتح له الباب وأخرجه وسد في أثره واستأذن على معز الدين فبايعه فقال كيف لي بذلك وولاية العهد لابن عمي فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه فشكره على ذلك ومضى به إلى دار الملك وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلا فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتي فاتصل به الخبر فقال أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز في جيوشه قاصدا حضرة دهلي تجهز ولده في جيوشه كذلك قاصدا لمدافعته عنها فتوافيا معا بمدينة كرا وهي على ساحل نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كرا ونزل ولده السلطان معز الدين بما يلي الجهة الأخرى والنهر بينهما وعزما على القتال ثم أن الله تعالى اراد حقن دماء المسلمين فالقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال إذا ملك ولدي فذلك شرف وأنا أحق أن أرغب في ذلك وألقى في قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه

فركب كل واحد منهما منفردا عن جيوشه والتقيا فى وسط النهر فقبل السلطان رجل ابيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكى وو ليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له أبنه لا بد لك من الوصول إلى بلادى فمضى معه إلى دهلى ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجافى عن المنازعة واكثرت الشعراء فى ذلك وعاد ناصر الدين إلى بلاده فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالأعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى ولا نظير لها فى البلاد وحكى لى بعض أهل الهند أن معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعترته علة أعجز الأطباء دواؤها ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروزشاه الخلجى (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

﴿ ذكر السلطان جلال الدين ﴾

ولما اعترى السلطان معز الدين ماذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج إلى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشانى فبعث معز الدين الأمراء لقتاله فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته ثم دخل المدينة وحصره فى القصر ثلاثة أيام وحدثنى من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع فى تلك الأيام فلم يجد ما يأكله فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولى بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحلمه أداه إلى القتل كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف بأسمه وهو الذى أعطاه السلطان محمد لصهره الأمير غدا بن مهنى لما زوجه بأخته وسيذكر ذلك فكان للسلطان جلال الدين ولد أسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بأبنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها وهى من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والأرز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ومنها تجلب إلى دهلى وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا زال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت فى نفسه إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار فاتفق إنه ذهب مرة إلى

الغزو ببلاد الدويقير وتسمى بلاد الكتكة أيضا وسنذكرها وهى كرسى بلاد المالوة والمرهتة وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينا فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما ففرقه فى أصحابه ووصل إلى الدويقير فاذعن له سلطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع إلى المدينة كرا ولم يبعث إلى عمه شيئا من الغنائم فاغرى الناس عمه به فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب إليه وآتى به فإنه محل ولدى فتجهز فى عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه وركب أيضا فى مركب ثان عازما على الفتك به وقال لأصحابه إذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقينا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره .

﴿ ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجى ﴾

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر إليه أكثر عساكر عمه وعاد بعضهم إلى دهلى واجتمعوا على ركن الدين وخرج إلى دفاعه فهربوا جميعا إلى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين إلى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الأمر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيرا وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ويسأل عن أسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس فى كل يوم برسم ذلك ويذكر انه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم فأخبره ان ذلك لكثرة المغرم على البقر فى الرتب فأمر برفع ذلك وأمر بإحضار التجار واعطاهم الأموال وقال لهم إشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ويرتفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا فى الاثواب التى يؤتى بها من دولة اباد وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكر ان السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فأمر ألا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما وسبب ذلك إنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوما إلى الصيد وهو معه وأضمر فى نفسه أن يفعل ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل

للغذاء فرماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد أنه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وافاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن أخيه فادرك وأتى به إليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الأولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذي ولى الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مبتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطى جميع إخوته المراتب وهي الأعلام والأطبال ولم يعطه شيئا وقال له يوما لا بد ان أعطيك مثل ما اعطيت إخوتك فقال له الله هو الذي يعطي فهال أباه هذا الكلام وفزع منه ثم ان السلطان اشتد عليه المرض وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماه القمر بلسانهم لها أخ يسمى سنجر فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان وكان يسمى الألفي لأن السلطان إشتراه بألف تنكة وهي ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه إذا دخل على سنجر فاني معطيه ثوبا فإذا لبسه فامسكوا بأكمامه واضربوا به الأرض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سند بت على مسيرة يوم من دهلي توجه لزيارة شهداء مدفونين به لنذر كان عليه أن يمشي تلك المسافة راجلا ويدعو لوالده بالراحة فلما بلغه أن أباه قتل أخاله حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه وتلك عادة لأهل الهند يفعلونها إذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده ما فعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنفه ولامه وأمر به فقيدت يداه ورجلاه وسلمه لملك نائب المذكور وأمره أن يذهب إلى حصن كاليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كيالير بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيرة عشر من دهلي وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله إلى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن وللمفردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه إنما هو اعدى عدو له فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم إن المرض إشتد بالسلطان فقال لملك نائب أبعث من يأتي بابني خضر خان لأوليه العهد فقال له نعم وماطله بذلك فمتى سأل عنه قال هو ذا يصل إلى أن توفي السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه السلطان شهاب الدين

ولما توفي السلطان علاء الدين اقعد ملك نائب أبنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل اعين أبي بكر خان وشادي خان وبعث بهما

إلى كاليور وأمر بسمل عيني أخيهما خضرخان المسجون هنالك وسجنوا وسجن قطب الدين لكنه لم تسمل عينيه وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه يسمى أحدهما بشير والآخر مبشر فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهى بنت السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاهما وقالت إن هذا الفتى نائب ملك قد فعل فى أولادى ما تعلمانه وأنه يريد أن يقتل قطب الدين فقالا لها سترين ما نفعل وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو فى بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه واحتزا رأسه وأتيا به إلى محبس قطب الدين فرمياه بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له ثم عزم خلعه فخلعه .

﴿ ذكر السلطان قطب الدين بن السلطان علاء الدين ﴾

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع أصبعه وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى إلى دولة أباد وهى على مسيرة أربعين يوما منها والطريق بينهما تكتنفه الأشجار من الصفصاف وسواه فكان الماشى به فى بستان وفى كل ميل منه ثلاث داوات وهى البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفى كل دواة جميع ما يحتاج المسافر إليه فكأنه يمشى فى سوق مسيرة الأربعين يوما وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفى كل منزلة قصر السلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد فى ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين فى هذه الحركة اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فاخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه وضرب برأسه إلى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الأمراء ويسمى ملك شاه إلى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعا فحدثنى القاضى زين الدين مبارك قاضى هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان بمحبسه فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه ودخل عليه الأمير فقال له فيما جئت قال فى حاجة خوند عالم فقال له نفسى سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعث عنى وعن العدول واستظهر بأمر السلطان فقرؤه وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه .

وهو متثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبى بكر خان وشادى خان ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا فى رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار مضافة إلى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرعادات ويصعد إلى الحصن فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال وإذا رآها الإنسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ما عدا الأبواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفار وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون فى جهاد لأنها بين الكفار ولما قتل قطب الدين إخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه خاصته الحظى لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسرو خان ففتك به وقتله واستقل بملكه إلا أن مدته لم تطل فى الملك فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه السلطان تغلق حسبما يشرح ذلك كله مستوفى إن شاء الله تعالى أثر هذا ونسطره .

﴿ ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين ﴾

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شُجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المعبر وهى من أخصب بلاد الهند وبينهما وبين دهلى مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره فجر ذلك حتفه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضيخان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه كليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصر وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم ألف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحد إلا فيما بين سماطيهم وإذا تم الليل أتى أهل نوبة بالنهار ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خسرو خان ويسوءه ما يراه من إيثاره لكفار الهنود وميله إليهم وأصله منهم ولا يزال يلقى ذلك إلى السلطان فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد لما أراد الله من قتله على يده فلما كان فى بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان أن جماعة

من الهنود يريدون أن يسلموا ومن عادتهم بتلك البلاد أن الهدى إذا أراد الاسلام أدخل إلى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان ائتنى بهم فقال أنهم يستحيون أن يدخلوا اليك نهار الأجل أقرباتهم وأهل ملتهم فقال له ائتنى بهم ليلا فجمع خسروخان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده فى ذلك الوقت إلا بعض الفتيان فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكون السلاح ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضى خان انكر شانهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول وقال لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسى الاذن فى دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ما هذا فقال خسروخان الهنود الذين أتوا ليسلموا فمنعهم قاضى خان من الدخول وزاد الضجيج فخاف السلطان وقام يريد الدخول إلى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسروخان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسروخان هوذا فوق فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه وبعث خسرو خان من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره وكتب المراسم وهى الأوامر إلى جميع البلاد وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعا وأذعنوا إلى تغلق شاه والد السلطان محمد شاه وكان اذ ذاك أميرا بديبالبور من بلاد السند فلما وصلته خلعة خسروخان طرحها بالأرض وجلس فوقها وبعث اليه أخاه خان خانان فهزمهم ثم آل أمره الى أن قتله كما سنشرحه فى أخبار تغلق ولما ملك خسروخان اثر الهنود واظهر امورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فانهم لا يجيزون ذبحها وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء إذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها وكان ذلك مما بغض خسروخان إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت ايام ملكه كما سنذكره

﴿ ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه ﴾

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثنى الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين بن الشيخ الصالح شمس الدين ابى عبد الله بن الولى الامام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى الملتانى بزاويته منها إلى السلطان تغلق كان

من الاتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار وكان كلوانياله والكلوانى (بضم الكاف المعقود) هو راعى الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند إذ ذاك أخوه أولو خان (بضم الهمزة واللام) نخدمه تغلق وتعلق بجانبه فرتبه فى البياة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجالة ثم ظهرت نجابته فاثبت فى الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله اولو خان أمير خيله ثم كان بعد ذلك من الامراء الكبار وسمى بالملك الغازى ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان وهو الذى امر بعملها انى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازى ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة ديبالبور وعمالتها (وهى بكسر الدال المهمل وفتح الباء المواحدة) وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمى بمحمدشاه ثم لما قتل قطب الدين وولى خسروخان أبقاه الله على امارة الخيل فلما اراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال وكتب إلى كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينهما وبين ديبالبور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره وكان ولد كشلوخان بدهلى فكتب إلى تغلق انه لو كان ولدى عندى لاعنتك على ما تريد فكتب تغلق الى ولده محمدشاه يعلمه بما عزم عليه ويأمره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان دار ولده الحيلة على خسروخان وتمت له كما اراد فقال له أن الخيل قد سمنت وتبدنت وهى تحتاج البراق وهو التضمير فاذن له فى تضميرها فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر إلى اربع ساعات إلى ان غاب يوما إلى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فامر السلطان بالركوب فى طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بابيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان فى أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزمه شرهزيمة وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان إلى اخيه وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلى

وخرج اليه خسروخان فى عساكره ونزل بخارج دهلى بموضع يعرف باصيا اباد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحى الريح وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الاموال بالبدر لا بوزن ولا عدد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهنود اشد قتال وانهزمت عساكر تغلق ونهبت محلته وانفرد فى اصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم إلى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا

واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حمي القتال بينهم وبين الهنود وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه وبقي في قميص واحد وارسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ودخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فاتاه الكتوال بالمفاتيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلوخان أنت تكون السلطان فقال كشلوخان بل أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له كشلوخان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسروخان وهو مختف بالبستان فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما فلم يكن عنده فاعطاه خاتمه وقال اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم إلى السوق انكر الناس أمره ورفعوه إلى الشحنة وهو الحاكم فادخله على السلطان تغلق فاعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعث ولده محمدا ليأتي به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تتو (بتاءين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له إني جائع فأتني بطعام فامر له بالشربة ثم الطعام ثم بالفقاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائما وقال يا تغلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحني فقال له لك ذلك وأمر به فضربت رقبته وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين ورمى برأسه وجسده من اعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن في مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عادلا فاضلا

﴿ ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك ﴾

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وهي على مسيرة ثلاثة اشهر من مدينة دهلي وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور والمهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ إلى أرض التلنك اراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعبيد فامره أن يلقي إلى الناس أن السلطان تغلق توفي وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين

إذا سمعوا ذلك فلما التي ذلك الى الناس أنكره الأمراء وضرب كل واحد منهم طبله وخالف فلم يبق معه أحد وأرادوا قتله فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه ففر الى أبيه في عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق معناه الاصحاب الموافقون فأعطاه أبوه الاموال والعساكر وأمره بالعود إلى تلنك فعاد اليها وعلم ابوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيدا وأمر بملك كافور المهردار فدق له عمود في الأرض محدود الطرف وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى اسفل وترك على تلك الحال وفر من بقي من الأمراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده .

﴿ ذكر مسير تغلق إلى بلاد اللكنوتي وما اتصل بذلك إلى وفاته ﴾

وأقام الامراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفي وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس ابيه ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور بورة ومعناه بالهندية الأسود واستولى على الملك وقتل اخاه قطلوخان وسائر إخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق فتجهز معهما لقتال اخيهما وخلف ولده محمدا نائبا عنه في ملكه وجد السير الى بلاد اللكنوتي فانتصر عليها وأسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيرا إلى حاضرة ملكه وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البذواني ولا يزال محمدشاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسأله الدعاء وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه فقال ابن السلطان لخدامه اذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فأعلموني بذلك فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهبنا لك الملك ثم توفي الشيخ في ايام غيبة السلطان فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده وكان قد رابته منه أمور ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلي بعد سفره ذلك فتوعدهم ولما عاد من سفره وقرب من الحاضرة امر ولده ان يبني له قصرا وهم يسمونه الكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمى افغان بور فبناه في ثلاثة ايام وجعل اكثر بنائه بالخشب مرتفعا على الأرض قائما على سواري خشب وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك وزاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان واسمه احمد بن اياس كبير وزراء السلطان محمد وكان إذ ذاك شحنة العمارة وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه انه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا واستأذنه ولده في ان يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فأذن له وحدثني الشيخ ركن الدين

أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد بن السلطان فقال للشيخ ياخوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لى الشيخ فنزلت وأتى بالأفيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضجة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فأمر ابنه أن يؤتى بالفوس والمساحي للحفر عنه وأشار بالابطاء فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيه الموت فزعم بعضهم أنه خرج ميتا وزعم بعضهم أنه أخرج حيا فأجهز عليه وحمل ليلا إلى مقبرته التي بناها خارج البلدة المسماة باسمه تغلق أباد فدفن بها وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الأعظم الذي جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من إدامة النظر اليها واختزن بها الأموال الكثيرة ويذكر أنه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه ولما ولى وبسبب ماذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان فى بناء الكشك الذي سقط على تغلق وكانت خطوته عند ولده محمد شاه وإيثاره فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم .

﴿ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه﴾

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه وقد قدمنا أنه كان اسمه جونه فلما ملك تسمى بمحمد واكتنى بأبي المجاهد وكل ماذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده .

﴿ذكر وصفه﴾

هذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهارا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتاد يمن نقيبتهم ولكن الأغلب عليه الكرم وسنذكر من اخباره فى عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً وأعلم أن بعض ما أثره من ذلك لا يسع

فى عقل كثير من الناس و يعدونه من قبيل المستحيل عادة ولكنه شىء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه لايسعنى إلا قول الحق فيه وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سرى (بفتح السين المهمل والراء) ولها أبواب كثيرة أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والأبواق والصرنايات فإذا جاء أمير او كبير ضربوها ويقولون فى ضربهم جاء فلان وكذلك أيضا فى البابين الثانى والثالث وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنا ثلاثا وبين البابين الأول والثانى دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الأبواب وأما الباب الثانى فيقعد عليه البوابين الموكلين به وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة فى اعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشيه مذهبة وفى وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة ويفضى هذا الباب الثانى إلى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه وناسه يدخلون معه وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلانا جاء فى الساعة الفلانية من الساعات الى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبون أيضا بكل مايحدث من الباب من الأمور وقد عين من أبناء الملوك من يوصل ما يكتبونه الى السلطان ومن عوائدهم أيضاً انه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر فلا يدخل هذا الباب بعدها الا بإذن من السلطان فإن كان له عذر من مرض او غيره قدم بين يديه هدية مما يناسب اهداءها الى السلطان وكذلك القادمون من الأسفار فالفقيه يهدى المصحف والكتاب وشبه الفقير يهدى المصلى والسبحة والمسواك ونحوها والأمراء ومن اشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضى الى المشور الهائل الفسيح المسمى هزار اسطون (بفتح الهاء والزاى وألف وراء) ومعنى ذلك الف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

(ذكر ترتيب جلوسه)

أكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس اول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض

فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فإذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت أيديهم ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم بسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة وبيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره بأيديهم الدرق والسيوف والقسى ويقف فى الميمنة والميسرة بطول المشور قاضى القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصهاره ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فمنها ماهو بشعار الخلافة وهى التى لجها ودوائرها من الحرير الاسود المذهب ومنها مايكون من الحرير الأبيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة نيابها بالحديد إعدادا لقتل أهل الجرائم وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به ويقومه لما يراد منه وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه وفى أركان هذا الصندوق أربعة اعلام مركوزة وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤسها فاذا خدمت قال الحجاب بسم الله بأصوات عالية ويوقف ايضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب ويقول الحجاب بسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذى يخدم فاذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ومن كان من كفار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم الترسة والسيوف فلا يمكن الدخول بينهم إلا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان .

﴿ ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه ﴾

وإن كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم

يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون فى ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن فى الباب فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التى ساقها بأيدى الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها فيخدم قبل الوصول إليه ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فإن كان رجلا كبيرا وقف فى صف أمير حاجب وإلا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ويرحب به وإن كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبرا لخاطر مهديها وإيناسا له ورفقا به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى

﴿ ذكر دخول هدايا عماله اليه ﴾

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابى البلاد صنعوا الأوانى من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعاً شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) ويقف الفراشون وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم كل واحد منهم ممسك قطعة ثم يقدم الفيلة ان كان فى الهدية شىء منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم الجمال عليها الأموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة اباد ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة فأدخلت الهدية اليه على هذا الترتيب ورأيت فى جملتها صينية مليئة بأحجار الياقوت وصينية مليئة بأحجار الزمرد وثالثة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك فأعطاه حظا منها وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى

﴿ ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك ﴾

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التى تعمهم جميعا فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد إنما هى مختصة بركوب السلطان ويرفع عليها ستة عشر شطرا (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر ويركب السلطان فيلا منها وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجه وتكون مرصعة بأنفس الجوهر ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه

منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر ويمشي بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوري وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حده معه طبوله وأعلامه فيتقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوها أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير بن ذي الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبوله بمراتبه وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين علي المصري المعروف بابن الشرابشي ان نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكاً في السنة ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه وأكثر مماليك السلطان فاذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الامراء وكبار الأعزة ثم ينزل السلطان ويصلي الامام ويخطب فان كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح الزاي) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره .

﴿ ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى ﴾

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب الباركة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة تحفها القباب من كل ناحية ويصنع به اشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة وينصب السرير الأعظم في صدر المشور وهو

من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق المرتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعند مايصعد على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصوت عالية بسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشاريخ وإخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ثم الأعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الأجناد يسلم واحد اثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم في يوم العيدان كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء.

فاذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب فى ذلك اليوم المبخرة العظمى وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة فاذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون بوقود العود القمارى والقاقلى والعنبر الأشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا فى العيدين خاصة ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان فى داخلها ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتيز وعلى الباب الثانى الملك نكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة الباركة ملك طغى بيده عصا ذهب وبيد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم ياتى اهل الطرب فاولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات فى تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للامراء والأعزة ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لاخوته وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لأمراء المماليك وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى وفى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى واليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها .

(ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره)

وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنها مرصع وحملت أمامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجوهر النفيس وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات عليهن أجمل لباس وأحسن حلية ومنهن رواقص ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولا بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدي أو غريب وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطأ عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشي أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الأفواج والعساكر خلفه ورأيته في بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمي بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى وصل إلى قصره

(ذكر ترتيب الطعام الخاص)

والطعام بدار (س*) على صنفين طعام الخاص وطعام العام فاما الخاص فهو طعام (س) الذي يأكل منه وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاجب ابن عم (س) وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء (س) تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معهم وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها فيأخذها المعطى ويجعلها على كفه اليسرى ويخدم بيده اليمنى الى الأرض وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس فيخدم كما يصنع الحاضرين ويأكله مع من حضره وقد حضرت مرات الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا

(ذكر ترتيب الطعام العام)

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ وأمامه النقباء يصيحون بسم الله ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور أصواتهم قاموا قياما أجمعين ولا يبقى أحد قاعدا إلا (س) وحده فاذا وضع الطعام بالأرض اصطفت النقباء صفا ووقف أميرهم وتكلم بكلام يمدح فيه (س) ويثني عليه ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم انه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف ان كان ماشيا ولزم موقفه ان كان واقفا ولا

(*) وضع حرف (س) عوضا عن كلمة السلطان لتكرارها

يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان (س) قد علم بحضوره ويعطى المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك فيأتى به الى (س) فاذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس وإطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم ان يكون فى صدر سماط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الامراء الكبار ثم سائر الناس ولا يقعد أحد إلا فى موضع معين له فلا يكون بينهم تزاحم البتة فاذا جلسوا أتى الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحجاب بسم الله ثم يشرعون فى الاكل ويجعل أمام كل انسان من جميع ما يحتوى عليه السماط ياكل منه وحده ولا ياكل أحد مع أحد فى طبق واحد فاذا فرغوا من الاكل أتوا بالفقاع فى أكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحجاب بسم الله ثم يؤتى باطباق التنبول والفوفل فيعطى كل واحد غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب بسم الله فيقفون جميعاً ويخدم الامير المعين للاطعام ويخدمون لخدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان فى اليوم الواحد إحداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر

(ذكر بعض أخباره فى الجود والكرم)

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا مع أن الذى أحكيه مستفيض متواتر والبلاد التى تقرب من أهل الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة باخباره يعلمونها حقيقة ولاسيما جوده على الغرباء فانه يفضلهم على اهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الإحسان ويسبغ عليهم الأنعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن إحسانه اليهم ان سماهم الأعزة ومنع من ان يدعو الغرباء وقال ان الرجل إذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغير حاله وساذكر بعضاً مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

(ذكر عطائه لشهاب الدين الكازرونى وحكايته)

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازرونى المقب ببرويز وكان (س) قد أقطع ملك التجار مدينة ووعده ان يوليه الوزارة فبعث إلى صديقه شهاب الدين ليقدم

عليه فأتاه وأعد هدية للسلطان وهى سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب وصيوان مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجارة وجده آخذاً فى القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابى بلاده وبهدية للسلطان

وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق بسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة فى ولاية الوزير ولأهلها تعلق بجانبه وانقطاع اليه وخدم له وأكثرهم كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدس الوزير اليهم ان يضربوا على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوما عند الضحى على عادتهم وتفرقت العساكر ونام أكثرهم فضرب عليهم الكفار فى جمع عظيم فقتلوا ملك التجار وسلبوا الأموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكتب المخبرون إلى السلطان بذلك فأمر ان يعطى شهاب الدين من مجبى بلاد نهروالة ثلاثين الف دينار ويعود إلى بلاده فعرض عليه ذلك فأبى من قبوله وقال ما قصدى إلا رؤية السلطان وتقبيل الأرض بين يديه فكتبوا إلى السلطان بذلك فاعجبه قوله وامر بوصوله الى الحضرة مكرما وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه فخلع علينا جميعاً وأمر بإنزالنا وأعطى شهاب الدين عطاء جزلا فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بستة آلاف تنكة كما سنذكره وسأل فى ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو فقال له بهاء الدين ابن الفلكى ياخوند عالم نميدانم معناه ماندرى ثم قال شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت ان به مرضا فقال له السلطان بروهمين زمان در خزانة يك لك تنكة زر بكرى أو بيس أو بيرى تادل أو خش (خوش) شود معناه امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة الف تنكة من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا ففعل ذلك فأعطاه اياها وأمر السلطان ان يشترى بها ما أحب من السلع الهندية ولا يشترى أحد من الناس شيئا حتى يتجهز هو وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافر ونزل بجزيرة هرمز وبنى بها داراً عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضا شهاب الدين وقد فنى جميع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا اسحاق وهكذا مال هذه البلاد الهندية فلما يخرج أحد منها إلا النادر وإذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفنى ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فانه أخذ له فى الفتنة التى كانت بين ملك هرمز وابنى أخيه جميع ما عنده وخرج سليبا من ماله .

﴿ ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين ﴾

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبي العباس وطلب منه ان يبعث له امر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه في الخلافة فبعث اليه الخليفة ابو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ في إكرامه وأعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة وفي جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له إذا نزلت من البحر فانعل أفراسك بها فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها إلى بلاد اليمن فوقعت قضية خروج القاضي جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمي فاخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن الكولمي إلى السلطان فلما رآه قال له ممازحا امدى كزر (كه زر) برى بادكرى (دلربای) صنم خرى زرنبرى وسرنهى معناه جئت لتحمل الذهب تاكله مع الصور الحسان فلاتحمل ذهبا ورأسك تخليه هاهنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها أنا سائر إلى المخالفين وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وفى بما وعده وأخلف له ما ضاع منه وانه وصل الى ديار مصر

﴿ ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين ﴾

وكان هذا الفقيه قدم على السلطان وأقام تحت إحسانه مدة عام ثم أراد الرجوع إلى وطنه فاذن له في ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه ولما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض المقاصري وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين عباءة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة أيضا ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي افراج وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم فخطب خطبة عظيمة ووعظ وذكر ولم يكن فيما فعله طائل لكن سعادته ساعدته ولما نزل عن المنبر قام (س) اليه وعانقه وأركبه على فيل وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت في جملتهم إلى سراجة ضربت له مقابلة سراجة (س) وكلها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها كذلك فقعد وقعدنا معه وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاها له وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وعدة أكواز وركوة وتميسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب ورفع عماد الدين

السمناوى و تدين من أو تاد السراجة أحدهما نحاس و الثانى مقصدر يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة ولم يكونا إلا كما ذكرنا وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومئتين من العبيد سرج البعض وحمل البعض

(ذكر عطائه لعبد العزيز الاردويلى)

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقى الدين بن تيمية و برهان الدين بن البركح وجمال الدين المزى و شمس الدين الذهبى وغيرهم ثم قدم على السلطان فأحسن اليه وأكرمه واتفق يوما أنه سرد عليه أحاديث فى كرم العباس وابنه رضى الله عنهما وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما فأعجب ذلك السلطان لحبه فى بنى العباس وقبل قدمى الفقيه وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة فصبها عليه بيده وقال هى لك مع الصينية وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم

(ذكر عطائه لشمس الدين الاندكانى)

وكان الفقيه شمس الدين الاندكانى حكيما شاعراً مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسى وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتاً فاعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم وهو عشر عطاء السلطان

(ذكر عطائه لعضد الدين الشونكارى)

وكان عضد الدين فقيها إماما فاضلا كبير مقدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره فبعث اليه إلى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

(ذكر عطائه للقاضى مجد الدين)

ولما بلغه خبر القاضى العالم الصالح ذى الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضى شيراز الذى سطرنا أخباره فى السفر الأول وسيمر بعض خبره وبعد هذا بعث اليه إلى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقى عشرة آلاف دينار دراهم

(ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجى)

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة كثير الإيثار باذلا لما يملكه حتى أنه كثيرا ما ياخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ الى السلطان فبعث اليه أربعين ألف دينار وطلب منه ان يصل إلى حضرته فقبل الدنانير وقضى دينه منها وتوجه الى بلاد الخطا وأبى ان يصل اليه وقال لا امضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه

(ذكر عطائه لحاجى كاون وحكايته)

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق وكان اخوه موسى ملكا ببعض

بلاد العراق فوفد حاجى كاون على السلطان فاكرم مثواه وأعطاه العطاء الجزل ورأيته يوما وقد أوتى الوزير خواجه جهان بهدية وكان منها ثلاث صينيات احداها مملوءة يواقيت والأخرى مملوءة زمردا والأخرى مملوءة جواهر وكان حاجى كاون حاضرا فاعطاه من ذلك حظا جزيلا ثم انه اعطاه أيضاً مالا عريضا ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفى وولى مكانه سليمان خان فطلب ارث اخيه وادعى الملك وبايعه العسكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكارة التى بها الإمام عضد الدين الذى تقدم ذكره آنفا فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لأهل سلاحه قلنج تجار (جقار) معناه جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من يجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا إلى شمس الدين السمنانى وهو من الأمراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جرى على أهل شونكارة وطلبوا منه الإعانة على قتاله فتجرد فى عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثار من قتله حاجى كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلا فهزموه وكان هو بقصر المدينة فاحاطوا به فاختفى فى بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان خان وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه .

(ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واخباره)

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادى قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ماوراء النهر فاكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قثم بن العباس رضى الله عنهما واستوطن بها أعواما ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشرق الحرباوى والثانى محمد الهمدانى الصوفى فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذى الذى تقدم ذكره قد لقى غياث الدين ببغداد وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له خطا بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل إليه فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ثم لما وصل إلى سرستى بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغزنوى وجماعة من الفقهاء ثم بعث الأمراء لاستقباله فلما نزل

بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب فاخذ السلطان أحد الأبواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فاخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له وحلف له أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب ثم ركب السلطان وسايره والشجر يظلهما معا واخذ التنبول بيده واعطاه أياه وهذا اعظم ما اكرمه به فانه لا يفعله مع احد وقال له لولا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك فقال له غياث الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما من أحيا أرضا مواتا فهى له وأنت أحييتنا فجاوبه السلطان بالطف جواب وابره ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان انزله فيها وضرب للسلطان غيرها وباتا فى تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك وانزله بالمدينة المعروفة بسيرى وبدار الخلافة أيضا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخلجى وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء أن يمضوا معه اليه وأعد له فيه جميع مايحتاج اليه من أوانى الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب وبعث له أربعمائة الف دينار لسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عددا من الموائد بالطعام الخاص وأعطاه جميع مدينة سيرى اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من الدور ما يتصل بها من بساتين المخزن وارضه وأعطاه مائة قرية وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلى وإعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن وأمره ان لا ينزل عن دابته إذا أتى دار (س) إلا موضع خاص لايدخله أحد راكبا سوى (س) وأمر الناس جميعا من كبير وصغير ان يخدموا له كما يخدمون (س) وإذا دخل على (س) ينزل له عن سريره وإن كان على الكرسى قام قائما وخدم كل واحد منهما لصاحبه ويجلس مع (س) على بساط واحد وإذا قام قام (س) لقيامه وخدم كل واحد منهما لصاحبه وإذا انصرف إلى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ماشاء ثم ينصرف يفعل هذا مرتين فى اليوم .

(حكاية من تعظيمه إياه)

وفى اثناء مقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بنجالة فامر (س) كبار الأمراء ان يخرجوا إلى أستقباله ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان فلما

عاد (س) لقصره قال للوزير أمض الى دار المخدوم زاده و بذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدوم فسار الوزير اليه واهدى له الى تنكة من الذهب و أثوابا كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الأمراء وحضرت أنا كذلك

(حكاية نحوها)

وقدعلى (س) ملك غزنة المسمى بهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فامر (س) بانزاله ببعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة وأمر ان يبنى له بهادار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى الى دار (س) فجلس على البساط الذى عادته الجلوس عليه وبعث الى الوزير فقال له سلم على خوندعالم وقل له أن جميع ما أعطانيه هو بمنزلى لم اتصرف فى شىء منه بل زاد عندى وتماوانا لاأقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه أن سببه أمر (س) ببناء الدار لملك غزنة فى مدينة سيرى فدخل الوزير على (س) فاعلمه بذلك فركب من حينه فى عشرة من ناسه وأتى منزل ابن الخليفة فاستأذن له ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له (س) والله ما أعلم أنك راض عنى حتى تضع قدمك على عنقى فقال له هذا مالا أفعله ولو قتلت فقال له (س) وحق رأسى لا بدلك من ذلك ثم وضع رأسه فى الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها على عنق (س) ثم قام وقال الآن علمت أنك راض على وطاب قلبى وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند (س) مفرجة قد جعل مكان عقد الحرير التى تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره فكساه اياها والذى أعطاه هو مالا يحصره العدو ولا يحيط به الحد وابن الخليفة مع ذلك كله ابخل خلق الله تعالى وله فى البخل اخبار عجيبة يعجب منها سامعها وكانه كان من البخل بمنزلة (س) من الكرم ولنذكر بعض اخباره فى ذلك

(حكاية من بخل ابن الخليفة)

وكانت بينى وبينه مودة وكنت كثير التردد الى منزله وعنده تركت ولدالى سميته أحمد لما سافرت ولا أدرى ما فعل الله بهما فقلت له يوما لم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لى لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى فكان يأكل وحده ويعطى صاحبه محمد بن أبى الشرفى من الطعام لمن أحب ويتصرف فى باقيه وكنت أتردد اليه فارى دهليز قصره الذى يسكن به مظلما لا سراج به ورأيته مرارا يجمع الاعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته فى ذلك فقال

لى يحتاج اليها وكان يخدم اصحابه ومماليكه وفتيانه فى خدمة البستان وبناته ويقول لا ارضى أن يأكلوا طعامى وهم لا يخدمون وكان على مرة دين فطلبت به فقال لى فى بعض الأيام والله لقد هممت ان أودى عنك دينك فلم تسمح نفسى بذلك ولا ساعدتنى عليه

(حكاية)

حدثنى مرة قال خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن ابى الشرفى صاحبه ونحن على اقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا فى العين درهما فقلنا وما نصنع بدرهم فاتفقنا على ان نشترى به خبزا فبعثنا أحدنا لشرائه فابى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن فطرحنا التبن إذ لا دابة لنا نأكله وقسمنا الخبز لقمة وقد انتهى حالى اليوم إلى ما تراه فقلت له ينبغى لك ان تحمد الله على ما أولاك وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال لا ستطيع ذلك ولم اره قط يجود بشىء ولا يفعل معروفا ونعوذ بالله من الشح

(حكاية)

كنت يوما ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند وانا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التى بناها جده امير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه فرأيت شابا ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لى بعض الطلبة هذا الشاب الذى تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذى ببلاد الهند فدعوته فقلت له انى قدمت من بلاد الهند وإنى أعرفك بخبر ابيك فقال قد جاءنى خبره فى هذه الأيام ومضى يشتد خلف الرجل فسألت عن الرجل فقيل لى هو الناظر فى الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجرة درهم واحد فى اليوم وهو يطلب أجرته من الرجل فطال عجبى منه والله لو بعث اليه جوهرة من الجواهر التى فى الخلع الواصلة اليه من السلطان لاغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال

(ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن مهنى أمير عرب الشام)

ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مثواه وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلى ويعرف بكشك لعل معناه القصر الأحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جداً ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثانى الذى يدخل منه إلى القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلعب الكرة بين يديه فى هذا المشور وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءة أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فان عادتهم بالهند ان يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له ويبنى المتولى بعده قصراً لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت إلى اعلاه فكانت لى فيه عبرة نشأت عنها عبرة وكان معى الفقيه الطبيب الاديب جمال الدين المغربى الغرناطى البجائى

المولدمستوطن بلاد الهند قدمها مع أبيه وله بها أولاد فأنشدنى عندما عاينناه (خفيف)

وسلاطينهم سل الطين عنهم   فالرؤس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة فى العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الامير أجزل العطاء وأحسن اليه إحسانا عظيما وأعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية اعظم ملك البايزيدى من بلاد منكبور احد عشر فرسا من عتاق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك باخته فيروزخوندة

(ذكر تزوج الامير سيف الدين بأخت السلطان)

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للامير غدا عين للقيام بشأن الوليمة و نفقاتها الملك فتح الله والمعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين اولهما مسكن والآخر مكسور بينهما نون آخره سين مهمل) وعيننى الملازمة الامير غدا والكون معه فى تلك الايام فاتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدا وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن مماليك السلطان واحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر فزينه وفرشه بأحسن الفرش واستحضر الامير سيف الدين وكان عربيا غريبا الاقرابة له فحففن واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الامير غدا وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته وأخرى مقام عمته واخرى مقام خالته حتى يكون كانه بين اهله ولما اجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء فى يديه ورجليه وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص اصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها على زوجها ويأتى الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتى اليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشية مثل

ذلك ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر اصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمنانى وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهان البخارى فلم يكن فيها مثل هذه

ثم ركب الامير سيف الدين فى أصحابه وعبيده وفى يد كل واحد منهم عصى قد أعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين والريبول وله رفرف يغطى وجه المتكلل به وصدره واتوا به الامير ليجعله على رأسه فابى من ذلك وكان من عرب البادية لاعهد له بامور الملك والحضر فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم باصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فاعجبه فعله ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن وقوف على قدم إجلالا له وتعظيما فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر فنزل وخدم عند اول درجة منه وقامت العروس قائمة حتى صعد فاعطته التنبول بيدها فاخذه وجلس تحت الدرجة التى وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ والاطبال والابواق والانفار تضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهى تتبعه فركب فرسه يطا به الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجعلت العروس فى محفة وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى اوصلوها الى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس الى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم واعطى (س) لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما وبدرة دراهم من الف دينار إلى مائتى دينار واعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر وكذلك لاهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطى احد شيئا لاهل الطرب انما يعطيهم صاحب العرس واطعم الناس جميعا ذلك اليوم

وانقضى العرس وامر (س) ان يعطى للامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهروالة وجعل فتح الله المذكور نائبا عنه عليها وعظمه تعظيما شديدا وكان عربيا جافيا فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاء البادية فاداه ذلك الى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه

(ذكر سجن الامير غدا)

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق انه وصل الى دار (س) فاراد الدخول فمنعه

أمير البرد (البرده) داريه وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقحم فامسك البواب بدبوقته وهى الضفيرة ورده فضربه الإمام بعصى كانت هنالك حتى ادماه وكان هذا المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضى غزنة وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين والسلطان يخاطبه بالأدب ويخاطب ابنه هذا بالأخ فدخل على السلطان والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الامير غدا ففكر السلطان هنيهة ثم قال له القاضى يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بد من الموت عليها وإنما احتمله لغربته وكان القاضى كمال الدين بالمشور فامر السلطان الملك تتران يقف معهما عند القاضى وكان تتر حاجا مجاورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للامير انت ضربته أو قل لا لقصد ان يعلمه الحجة وكان سيف الدين جاهلا مغترا فقال نعم أنا ضربته وأتى والد المضروب فرام الإصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فامر القاضى بسجنه تلك الليلة فوالله مابعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سألت عنه خوفا من السلطان وخاف اصحابه فودعوا أموالهم

وأردت زيارته بالسجن فلقيني بعض الامراء وفهم عنى إنى أريد زيارته فقال لى أو نسيت وذكرنى بقضية اتفقت لى فى زيارة الشيخ شهاب الدين بن شيخ الجام وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك حسبما يقع ذكره فرجعت ولم ازره وتخلص الامير غدا عند الظهر من سجنه فاظهر السلطان اهماله واضرب عما كان امرله بولايته واراد نفيه وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث بن الملوك وكانت اخت السلطان تشكوه لاخيها إلى أن ماتت فذكر جواريها انها ماتت بسبب قهره لها وكان فى نسبه مغمز فكتب السلطان بخطه يجلى اللقيط يعنيه ثم كتب ويجلى موش خوار معناه اكل الفيران يعنى بذلك الأمير غدا لأن عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفار وامر باخراجهما فجاءه النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله فترادف النقباء فى طلبه فخرج باكيا وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان فبت بها فسألنى عن مبيتى بعض الأمراء فقلت له جئت لا تكلم مع الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينفى فقال لا يكون ذلك فقلت له والله لابيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتى مائة ليلة حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فامر برده وامره ان يكون فى خدمة الأمير ملك قبولة اللاهورى فاقام اربعة اعوام فى خدمته يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى تادب وتهذب ثم اعاده (س) إلى ما كان عليه اولا واقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره .

(ذكر تزويج (س) بنتى وزيره لابن خداوندزاده قوام الدين الذى قد معنا عنيه)

ولما قدم خداوندزاد واعطاه (س) عطاء جزلا واحسن اليه احسانا عظيما وبالغ فى

اكرامه ثم زوج ولديه فى بنتى الوزير خواجه جهان وكان الوزير إذذاك غائبا فأتى (س) الى داره ليلا وحضر عقد النكاح كانه نائب عن الوزير ووقف حتى قرأ قاضى القضاة الصداق والقضاة والامراء والمشايخ قعود وأخذ (س) بيده الاثواب والبدر فجعلها بين يدى القاضى وولدى خداوندزاده وقام الامراء وأبوا ان يجعل (س) ذلك بين أيديهم بنفسه فامرهم بالجلوس وأمر بعض كبار الامراء أن يقوم مقامه وانصرف

(حكاية فى تواضع (س) وانصافه)

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل اخاه من غير موجب ودعاه إلى القاضى فمضى على قدميه ولاسلاح معه الى مجلس القاضى فسلم وخدم وكان قد أمر القاضى قبل ذلك أنه اذا جاءه مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد إلى المجلس ووقف بين يدى القاضى فحكم عليه ان يرضى خصمه من دم اخيه فارضاه (حكاية مثلها)

وادعى على (س) مرة رجل من المسلمين انه له قبله حقا ماليا فتخاصما فى ذلك عند القاضى فأصدر الحكم على (س) باعطاء المال فاعطاه (حكاية مثلها)

وادعى عليه صبى من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ورفعه إلى القاضى لتوجه الحكم عليه ان يرضيه بالمال ان قبل ذلك وإلا امكنه من القصاص فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبى واعطاه عصا وقال له وحق راسى لتضربنى كما ضربتك فأخذ الصبى العصا ضربه بها احدى وعشرين ضربة حتى رايت الكلا (الكلاه) قد طارت على رأسه (ذكر اشتداده فى إقامة الصلاة)

وكان (س) شديدا فى إقامة الصلاة آمرا بملازمتها فى الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل فى يوم واحد تسعة نفر على تركها كان احدهم مغنيا وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الاسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب حتى انتهى الى عقاب الستائر بين الذين يمسكون دواب الخدام على باب المشور إذا ضيعوا الصلاة وامران يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام فكانوا يسالون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتوارسون ذلك بالشور والاسواق ويكتبونا

(ذكر اشتداده فى إقامة أحكام الشرع)

وكان شديدا فى اقامة الشرع ومما فعل فى ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك مفروشة بالبسط وللقاضى بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة (س) ويقعد اخو (س) عن يمينه فمن كان عليه حق من

كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه بحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه

﴿ ذكر وقعة المغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين ﴾

ولما كان في سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم كل يوم اثنين وخميس برحبة أمام المشور ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم إلا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون في الأبواب الأربعة من المشور لأخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز خان أخذ صاحب الباب الأول الرفع من الشاكي فحسن وإلا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع وإن لم يأخذوه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضي المماليك فإن أخذه منه وإلا اشتكى إلى السلطان فإن صح عنده انه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه ادبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة

﴿ ذكر إطعامه في الغلاء ﴾

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتى بلغ من القمح الى ستة دنانير أمر السلطان ان يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة اشهر من المخزن بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل انسان في اليوم صغير أو كبير حر أو عبد وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمة بأهل الحارات ويحضرون الناس ويعطى لكل واحد عولة ستة اشهر يقتات بها

(ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله)

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على اراقة الدماء لا يخلو بابه عن مقتول الا في النادر وكنت كثيرا ما ارى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ولقد جئت يوما فنفر بي الفرس ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت ما هذه فقال بعض اصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على المشور من المسلمين والمغلولين والمقيدين مؤون فمن كان للقتل أو للعذاب عذب او للضرب ضرب وعادته ان يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور ما عدا يوم الجمعة فانهم لا يخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون اعاذنا الله من البلاء

(ذكر قتلة لأخيه)

وكان له أخ اسمه مسعود خان وامه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها

فى الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وسأله عن ذلك فأقر خوفا من العذاب فانه من انكر مايدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس أن القتل اهون عليهم من العذاب فامر به فضربت عنقه فى وسط السوق وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجمت فى ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا رجمها القاضى كمال الدين.

﴿ ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة ﴾

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلى فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك فامر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فامر بقتلهم أجمعين فقتلوا .

﴿ ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله ﴾

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى الذى تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوما وكان السلطانان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجا أن الصدر الأول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلحاء فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام فاظهر الاباية والامتناع فغضب السلطان من ذلك وامر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته فأبى ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت ونفى ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد فاقام بها سبعة اعوام ثم بعث عنه فأكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد فى تعظيمه وامر الامراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد فى دار (س) فوقه ولما انتقل (س) إلى السكنى على نهر الكنك وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار معناه شبه الجنة وامر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن ياذن له فى الاقامة بالحضرة فاذن له إلى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلى فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام

الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويستدونه على انفسهم وأنعامهم خوف سراق الكفار لانهم فى جبل منيع هنالك ولما عاد (س) إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها فعظمه (س) وعانقه عند لقائه وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام فامتنع من إتيانه فبعث اليه مخلص الملك النذرباري وكان من كبراء الملوك فتلطف له فى القول وحذره بطش (س) فقال له لا أخدم ظالما ابدا فعاد مخلص الملك إلى (س) فأخبره بذلك فأمر أن يأتى به فأتى به فقال له أنت القائل إنى ظالم فقال نعم أنت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلى وإخراجه أهلها فأخذ (س) سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال يثبت هذا إنى ظالم واقطع عنق بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية رأس الدويدارية فقيده بأربع قيود وغل يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوما مواصلا لا يأكل ولا يشرب وفى كل يوم منها يؤتى به إلى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا ارجع عنه واريد اناكون فى زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث اليه (س) بطعام مع مخلص الملك فأبى أن يأكل وقال قد رفع رزقى من الارض ارجع بطعامك اليه فلما أخبر بذلك (س) أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة وهى رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الامور وهم طائفة من كفار الهنود فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفى اليوم الذى بعده أتى به إلى دار القاضى صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه واطلبوا منه أن يرجع عن قوله فأبى ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ ذكر قتله للفقيه المدرسى عفيف الدين الكاسانى وفقيهين معه ﴾

وكان (س) فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وأن يزرع هنالك زرع وأعطى الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشى به الى (س) فسجنه وقال له لاى شىء تدخل نفسك فى أمور الملك ثم أنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه فى طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك (س) فأمر بهم فاحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فاضربوا عنقه حمائل وهو

أن يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقال له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا فقال لهما انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

(ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته)

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد وقال لهما انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به فقالا له انما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما أنما قصدكما ان تأكلا أموالى وتضيعاها وتنسبا ذلك إلى هذا التركى الذى لا معرفة له فقالا له حاشا لله ياخوند عالم ماقصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما اليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فأقرا بما قوله لكما إياه ولا تعذبا أنفسكما فقالا والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا فقال لزبانيته ذوقهما بعض شيء يعنى من العذاب فبطحا على اقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة ثم قلعت بعد هنيهة فذهب بلحم صدورهما ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان وأنهما مجرمان مستحقان للقتل فلا حق لهما ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى وكتبا خطهما بذلك واعترفا به عند القاضى فسجل على العقد وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار ولو قالا اكرهنا لعذبا أشد العذاب ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم فقتلا رحمهما الله تعالى

(ذكر قتله للشيخ هود)

وكان الشيخ زاده المسمى بهود حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين بن أبى زكريا الملتانى وجده الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان وقتل فى وقيعة كشلوخان وسنذكره ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفى الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمى فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوما فأعطى السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ وكان كهلا وكان ابن اخى الشيخ فتى واكرمه السلطان وامر بتضييفه فى كل منزل يحله وان يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الامر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ

والاعيان للقائه وكنت فيمن خرج إليه فتلقيناه وهو راكب فى دولة يحملها الرجال وخيله مجنوبة فسلمنا عليه وانكرت أنا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة وقلت إنما كان ينبغى له ان يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامى فركب الفرس واعتذر بان فعله أولا كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة ثم اعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه فاعطى قاضى القضاة خمسمائة دينار وأعطيت أنا مائتين وخمسين دينار أو هذه عادة لهم فى الدعوى السلطانية ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازى بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك واستقر بزاويته وأقام بها أعواما ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الأموال وانفاقها فى الشهوات ولا يطعمون أحدا بالزاوية فنفذ الأمر بمطالبتهم بالأموال فطالبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضا وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين الف دينار مدة أيام حتى استخلاص ما كان عندهم ووجد لهم كثير من الأموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت بيعا بسبعة آلاف دينار قيل انهما كانا لبنت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان فامره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليه كلاهما فى حكم الثقاف فلما وصلا اليه سرح الذى قبض عليه وقال للشيخ هود أين أردت أن تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان إنما أردت أن تذهب إلى الاتراك فتقول أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا وقد فعل السلطان معى كذا وتأتى بهم لقتالنا اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

(ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده)

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكنا بمدينة كول منقطعا للعبادة كبير القدر ودخل السلطان إلى مدينة كول فذهب عنه فلم يأته فذهب السلطان اليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك أن اميرا من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس فنقل للسلطان انه وقع ذكر هذا الامير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه وقال انه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ فقيده وقيد أولاده وقيد قاضى كول ومحتسبها لأنه ذكر انهما كانا حاضرين للمجلس الذى وقع فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف وامر بهم فسجنوا جميعا بعد ان سمل عينى القاضى وعينى

المحتسب ومات الشيخ بالسجون وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ثم يردان إلى السجن وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون فقالوا اله وما فعلناه فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور فقال أخبرني بمن كان يرى رأي هؤلاء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم فاملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

﴿ ذكر قتله للشيخ الحيدري ﴾

وكان الشيخ على الحيدري ساكنا بمدينة كنبايه من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة وإذا قدموا بدؤا بالسلام عليه وكان يكاشف بأحوالهم وربما نذر احدهم النذر وندم عليه فاذا أتى الشيخ للسلام عليه أعلمه بما نذر له وامر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الافغاني وقبيلته بتلك الجهات بلغ السلطان ان الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين واعطاه شاشيته من رأسه وذكر ايضا انه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت احد الوافدين معنا عليه بكنباية وامره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم فاحضر الشيخ على الحيدري بين يديه وثبت انه أعطى للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله فلما ضربه السياف لم يفعل شيئا وعجب الناس لذلك وظنوا انه يعفى عنه بسبب ذلك فأمر سيافا اخر بضرب عنقه فضرب عنقه فضربها رحمه الله تعالى

﴿ ذكر قتله لطوغان وأخيه ﴾

وكان طوغان الفرغاني واخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان فأحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا أقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابهما إلى السلطان فامر بتوسيطهما فوسطا واعطى للذي وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد إذا وشى احد باحد وثبت ماوشى به فقتل اعطى ماله .

﴿ ذكر قتله لابن ملك التجار ﴾

وكان ابن ملك التجار شابا صغير الانبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سنذكره غلب على ابن ملك التجار هذا فكان في جملته مقهورا فلما هزم عين وقبض الملك عليه وعلى اصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك فامر

بهما فعلقا من أيديهما فى خشب وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين ذلك مشاب لم يحب عيه تقتس فبلغ ذلك (س) فقال هلا قلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائتى مقرعة أو نحوها وسجن واعطى جميع ماله لأمير السيافين فرأيته فى ثانى ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه فظننت أنه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه ورده إلى ما كان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه إلى خراسان فاستقر بهراة وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه اكر باز آمدى (أى) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع اليه

﴿ ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات ﴾

وكان قد ولى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر فاتفق ان جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشىء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات رحمه الله تعالى

﴿ ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها وقتل الأعمى والمقعد ﴾

ومن أعظم ما كان ينقم على (س) اجلاؤه لاهل دهلى عنها وسبب ذلك انهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم ما يقرؤها غيره ويرمونها بالمشور ليلا فإذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلى واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد فأبوا ذلك فنادى مناديه ان لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم فى الدور فأمر بالبحث عمن بقى بها فوجد عبيده بازقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى فأتوا بهما فأمر بالمقعد فرمى به فى المنجنيق وأمر أن يجر الأعمى من دهلى إلى دولة آباد مسيرة أربعين يوما فتمزق فى الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثنى من أثق به قال صعد (س) ليلة إلى سطح قصره فنظر إلى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب قلبى وتهدن خاطرى ثم كتب إلى أهل البلاد ان ينتقلوا إلى دهلى ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا (س) ومما نقم عليه ايضا فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث الكائنة فى ايامه.

﴿ ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بوره ﴾

ولما ولى (س) الملك بعد أبيه وبايعه الناس احضر (س) غياث الدين بهادور بوره

الذى كان أسره (س) تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزله العطاء من الأموال والخيل والفيلة وصرفه إلى مملكته وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان وعاهده على ان تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتكتب اسماؤهما معا فى السكة ويخطب لهما وعلى ان يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف بر باط يكون رهينة عند (س) فانصرف غياث الدين إلى مملكته والتزم ماشرط عليه إلا أنه لم يبعث ابنه وادعى انه امتنع واساء الأدب فى كلامه فبعث (س) العساكر الى ابن أخيه إبراهيم وأميرهم دلجلى التترى فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشى بالتبن وطيف به على البلاد

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان (س) تغلق ابن اخت يسمى بهاء الدين كشتاسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحده مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحى فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث (س) اليه العساكر فيهم الامراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجه جهان أمير على الجمع فالتق الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر (س) ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار يعرف بالراى كنبيلة والراى عندهم كمثل ماهو بلسان الروم عبارة عن (س) وكنبيلة اسم الأقليم الذى هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوحة) وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة وهو من اكابر سلاطين الكفار فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعه عساكر (س) وحصروا تلك البلاد واشتد الامر على الكافر ونفد ما عنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين ان الحال قد بلغت لما تراه وانا عازم على هلاك نفسى وعيالى ومن تبعنى فاذهب أنت إلى (س) فلان من الكفا وسماه لهم فاقم عنده فانه سيمنعك وبعث معه من أوصله اليه وامر راى كنبيلة بنار عظيمة فاججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته انى أريد قتل نفسى فمن أرادت موافقتى فلتفعل فكانت المرأة منهم تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصرى وتقبل الأرض بين يديه وترمى بنفسها فى النار حتى هلكن جميعا وفعل مثل نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الرأى وادهن بالصندل ولبس السلاح ماعدا الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا الى عسكر (س) فقاتلوا حتى قتلوا جميعا ودخلت المدينة فاسر اهلها وأسر من اولادى راى كنبيلة احد عشر ولدا فاتى بهم (س) فاسلموا جميعا وجعلهم (س) امراء وعظمهم لاصالتهم ولفعل ابيهم

فرأيت عنده منهم نصراً وبختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب (س) منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ولما قتل راى كنبيلة توجهت عساكر (س) إلى بلد الكفار الذي لجأ إليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك (س) أنا لا أقدر على أن أفعل مافعله راى كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر (س) فقيدوه وغلوه وأتوا به فلما أتى به إليه أمر بادخاله إلى قرابته من النساء فشتمته وبصقن في وجهه وأمر بسلخه وهو نفيد الحياة فسلخ وطبخ لحمه مع الأرز وبعث لأولاده وأهله وجعل باقيه على صحفة وطرح للفيلة لتأكله فأبت أكله وأمر بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلو خان صاحب (س) تلغق ومعينه على أخذ الملك وكان (س) يعظمه ويخاطبه بالعم ويخرج لاستقباله إذا وفد من بلاده أمر كشلو خان بدفن الجلدين فبلغ ذلك (س) فشق عليه فعله وأراد الفتك به .

﴿ ذكر ثورة كشلوخان وقتله ﴾

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين بعث عنه وعلم كشلوخان أنه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الأموال وجمع العساكر وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم حتى كافأ عسكره عسكر (س) أو أربى عليه كثرة وخرج (س) بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر وأخذ (س) بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عوضا منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني وهو حدثني هذا وكان شبيها به فلما حمي القتال انفرد (س) في أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلو خان قصد الشطر معتقدين أن (س) تحته فقتلوا عماد الدين وشاع في العسكر أن (س) قتل فاشتغلت عساكر كشلو خان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا القليل فقصده (س) بمن معه فقتله وجز رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل (س) مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين وأمر بسلخه فسلخ وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه وقد رأيته معلقا لما وصلت إلى ملتان وأعطى (س) للشيخ ركن الدين أخي عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية انعاما عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكريا وامر (س) وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فأخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها قال واحضر بين

يديه القاضي بهاو الخطيب فامر بسلخ جلودهما فقال له اقتلنا بغير ذلك فقال لهما بما استوجبتما القتل فقال بمخالفتنا أمر (س) فقال لهما فكيف أخالف انا أمره وقد امرني أن اقتلكما بهذه القتلة وقال للمتوليين لسلخهما احفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم إذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد (س) إلى حضرته .

﴿ ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان ﴾

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلي مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان (س) بعث ملك نكبية رأس الدويدارية إلى حرب هذا الجبل ومعه مائة الف فارس ورجاله سواهم كثير فملك مدينة جديدة (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف وهي اسفل الجبل وملك ما يليها وسبى وخرب واحرق وفر الكفار إلى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل فلا يجوز فيه الافارس منفرد وخلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التي باعلى الجبل (وضبطها) بفتح الواو والراء (وسكون النون وفتح الكاف) واحتووا على مافيها وكتبوا إلى (س) بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وامرهم بالاقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسي فكتب الامراء إلى (س) واستأذنوه في الخروج عن الجبل والنزول إلى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فاذن لهم في ذلك فأخذ الأمير نكبية الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها إلى أسفل الجبل فعندما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الأشجار العادية قطعاً ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر باحد إلا أهلكته فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من الجند إلا ثلاثة من الأمراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولةشاه وثالث لهما لا أذكره وهذه الوقيعة أثرت في جيش الهند أثراً كبيرا وأضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها اهل الجبل على مال يؤدونه اليه لأن لهم البلاد أسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه

﴿ ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر واتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير ﴾

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر الشريف جلال

الدين أحسن شاه فخالف وادعى الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب فى إحدى صفحتى الدينار سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفى الصفحة الاخرى الواثق بتأييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زر ومعناه قصر الذهب وأقام به ثمانيه أيام لقضاء حوائج الناس وفى تلك الايام أتى أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الامراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور فى مقدمته فوصل إلى مدينة ظهار وهى على مسيرة ابع وعشر من دهلى واقام بها أياما وكان ابن أخته شجاعاً بطلا فاتفق مع الامراء الذين أتى بهم على قتل خاله والهرب بما عنده من الخزائن والاموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم إلى الوزير وكان يسمى الملك نصرة الحاجب وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم إلى السلطان وكنت بين يدى (س) حين وصولهم فرأيت أحدهم وكان طوال اللحى وهو يرعدو يتلو سورة يس فامر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليقتله فقتله وسنذكر ذلك وتلك الفيلة التى تقتل تكسى أنيابها حديد مسنونه شبه سكك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيال على الفيل فاذا رمى الرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمى به إلى الهواء ثم يلتقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده ويفعل به ما يامره الفيال على حسب ما امره (س) فان امره بتقطيعه قطعه الفيل قطعاً بتلك الحدائد وان امر بتركه تركه مطروحا فسلخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار (س) بعد المغرب فرايت الكلاب تاكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله ولما تجهز (س) لهذه الحركة أمرنى بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ومضى فى سفره إلى ان بلغ دولة آباد فثار الامير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خوجه جهان قد بقى أيضاً بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

﴿ ذكر ثورة هلاجون ﴾

ولما بلغ (س) إلى دولة آباد وبعد عن بلاده ثار الامير هلاجون بمدينة الاهوار وادعى الملك وساعده الامير قلجند على ذلك وصيره وزيراً له واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلى فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيما من الخدام بدهلى اخذ اصحابه واخذ فى الجملة اصحابى لانى كنت بها مقيما واعانه (س) بأميرين كبيرين

احدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثانى الملك تمور الشربدار وهو الساقى وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة احد الاودية الكبار فانهزم هلاجون وهرب وغرق كثير من عساكره فى النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض اهلها وقتل آخرين بغير ذلك من انواع القتل وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف باجدر ملك ويسمى ايضاً سك (سك) (س) والشك عندهم الكلب وكان ظالما قاسى القلب ويسميه (س) اسد الاسواق وكان ربما عض ارباب الجنايات باسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور فسجن به ورايت بعضهن هنالك وكان احد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه فى السجن

﴿ ذكر وقوع الوباء فى عسكر (س) ﴾

ولما وصل (س) الى بلاد التلنك وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة بدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة) وهى قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة اشهر ووقع الوباء إذ ذاك فى عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والمماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذى كان (س) يخاطبه بالعم ومثل امير عبدالله الهروى وقد تقدمت حكايته فى السفر الأول وهو الذى امر (س) ان يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة باعضاده ورفعها ولما راى (س) ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد وخالفت البلاد وانتقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته

﴿ ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج ﴾

ولما عاد (س) الى دولة آباد مرض فى طريقه فارجف الناس بموته وشاع ذلك فنشات عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين (س) عهد ان لا يبايع غيره ابدا لا فى حياته ولا بعد موته فلما ارجف بموت (س) هرب الى (س) كافر يسمى بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه فعلم (س) بفراره وخاف وقوع الفتنة فجد السير الى دولة آباد واقتفى اثر هوشنج وحصره بالخيل وارسل الى الكافر ان يسلمه اليه فابى وقال لا اسلم دخيلى ولو آل بى الامر لما آل براى كنبيلة . وخاف هوشنج على نفسه فراسل (س) وعاهده على ان يرحل (س) الى دولة اباد ويبقى هنالك قطلوخان معلم (س) ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الامان فرحل (س)

ونزل هو شنج إلى قطلوخان وعاهده أن لا يقتله (س) ولا يحط منزلته وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على (س) فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون فى الوفاء عليه ومنزلته عند (س) عليه وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له إجلالا فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذى يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب فى الصدقات كثير الايثار مولع بالاحسان للفقراء والمساكين

﴿ ذكر ما هم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله ﴾

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار (س) والياً على بلاد حانسى وسرستى لما تحرك (س) إلى بلاد المعبر وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت (س) طمع إبراهيم فى السلطنة وكان شجاعا كريما حسن الصورة وكنت متزوجا بأخته حور نسب وكانت صالحة تتهجد بالليل لها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت منى بنتا ولا أدرى ما فعل الله فيهما وكانت تقرا لكنها لا تكتب فلما هم إبراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الأموال يحملها إلى دهلى فقال له إبراهيم ان الطريق مخوف وفيه القطع فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن وكان قصده أن يتحقق موت (س) فيستولى على تلك الأموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك ولما وصل (س) إلى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف إبراهيم إليه فوشى به بعض غلمانه واعلم (س) بما كان هم به فأراد (س) ان يعجل بقتله ثم تأنى لمحبته فيه فاتفق ان اتى يوما إلى السلطان بغزال مذبوح ينظر الى ذبحته فقال ليس بجيد الزكاة اطرحوه فرآه ابراهيم فقال ان زكاته جيدة وأنا آكله فأخبر (س) بقوله فأنكر ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فأمر به فقيد وغل ثم قرره على ما رمى به من أنه أراد أخذ الأموال التى مر بها ضياء الملك وعلم ابراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأى الموت خيرا له فأقر بذلك فأمر به فوسط وترك هنالك وعادتهم أنه متى قتل (س) احدا اقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث اخذه طائفة من الكبار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتى اهل المقتول فيرفعونه وربما اعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل الشريف ابراهيم رحمه الله تعالى

﴿ ذكر خلاف نائب (س) ببلاد التلنك ﴾

ولما عاد (س) من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء (س) ودعا لنفسه وتابعه الناس بحضرة بدركوت فبلغ خبره إلى (س) فبعث معلمه قطلوخان فى عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد هلك فيه امم من الناس واشتد الحصار على اهل بدركوت وهى منيعة وأخذ قطلوخان فى نقبها فخرج اليه نصرة خان على الامان فى نفسه فامنه وبعث به إلى (س) وأمن أهل المدينة والعسكر

﴿ ذكر انتقال (س) لنهر الكنك وقيام عين الملك ﴾

ولما استولى القحط على البلاد انتقل (س) بعساكره إلى نهر الكنك الذى تحج اليه الهنود على مسيرة عشرة من دهلى وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الأرض فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذى الناس حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الأرض فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب ووصلت أنا فى تلك الايام لمحلة (س) وكانت البلاد التى بغربى النهر حيث (س) شديد القحط والبلاد التى بشرقيه خصبة وأميرها عين الملك بن ماهر ومنها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد ومدينة اللكنو وغيرها وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر خمسين الف من منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب فأمر (س) أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية الخصبه لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة أخوة وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيهم عين الملك وهرب أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على (س) وهرب اليهم عين الملك بالليل وكاد الامر يتم لهم ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا يكون عينا له عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكن عيونا له على أمرائه ونسوة يسميهن الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك المخبرين فيخبر بذلك (س) ويذكرون أن بعض الأمراء كان فى فراشه مع زوجته فأراد مماستها فحلفته برأس (س) ان لا يفعل فلم يسمع منها فبعث (س) صباحا وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فأخبر (س) بفراره وجوازه النهر فسقط فى يده وظن أنها القاضية عليه لان الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك وعساكر (س) مفترقة فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتى لقتاله وشاور

أرباب الدولة فى ذلك وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم لأنه هندى وأهل الهند مبغضون فى الغرباء لاظهار (س) لهم فكرهوا ماظهر له وقالوا ياخوند عالم إن فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد أمره ورتب العساكر وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والأولى معالجته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهرى ووافقه جميعهم ففعل (س) باشارتهم وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر فأتوا من حينهم وأدار فى ذلك حيلة حسنة فكان إذا قدم على محلته مثلا مائة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم إلى المحلة كان جميعهم مددا له وتحرك (س) مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذى كان ثلاثة أيام فرحل أول مرحلة وقد عبأ جيشه للحرب وجعلهم صفاً واحداً عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود إلى مجلسه والمحلة الكبرى على بعد منهم ولم يدخل (س) فى تلك الايام الثلاثة خباء ولا استظل بظل وكنت فى يوم منها بخبائى فصاح بفتى من فتيانى اسمه سنبل واستعجلنى وكان معى الجوارى فخرجت اليه فقال إن (س) أمر الساعة ان يقتل كل من معه امرأته أو جاريته فشفع عنده الامراء فأمر ان لا تبقى الساعة بالمحلة امرأة وان يحملن إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال يقال له كنبيل فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع (س) وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان فى اليوم الثانى رتب (س) عسكره افواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الأبراج فوقها المقاتلة وتدرع العسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على أهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بأن عين الملك الثائر جاز النهر فخاف (س) من ذلك وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع (س) فأمر فى الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لى حظا منها وكان لى صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى من الشجعان فاعطيته فرسا منها اشهب اللون فلما حركه جمح به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى وجد (س) ذلك اليوم فى مسيره فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج وكان يخاف ان يسبقه القائم اليها وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن فى المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز ومعنا الأمير غدا ابن مهنى والسيد ناصر الدين مطهر وامراء خرسان فاضافنا إلى خواصه وقال انتم اعزة على ينبغى ان تفارقونى وكان فى عاقبة ذلك الخير فان القائم ضرب فى آخر الليل على المقدمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة فى الناس كبيرة فحينئذ امر

(س) أن لا يبرح أحدمن مكانه ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا إلى أصحابهم وحمى القتال وأمر (س) أن يكون شعار جيشه دهلى وغزنة فإذا لقى أحدهم فارسا قال له دهلى فإن أجابه بغزنة علم أنه من أصحابه والا قاتله وكان القائم انما قصد ان يضرب على موضع (س) فأخطا به الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق الدليل وكان فى عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود فصدقوا القتال وكان جيش القائم نحو الخمسين الفا فانهزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجى (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التترى قد اقطعه السلطان بلاد سنديلة وهى قرية من بلاد عين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيله (س) وخيله فوافقاه ايضا وجعل داود حاجبه وكان داود هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسبب (س) ويشتمه اقبح شتم (س) يسمع ذلك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التترى ماذا ترى يا ملك ابراهيم قد فر اكثر العسكر وذو النجدة منهم فهل لك ان ننجوا بانفسنا فقال ابراهيم لاصحابه بلسانهم اذا راد عين الملك ان يفر فانى ساقبض على دبوقته فإذا فعلت ذلك فاضربوا انتم فرسه ليسقط الى الأرض فنقبض عليه ونأتى به إلى (س) ليكون ذلك كفارة لذنبى فى الخلاف معه وسببا لخلاصى فلما ارادعين الملك الفرار قال له ابراهيم الى اين يا سلطان علاء الدين، وكان يسمى بذلك وامسك بدبوقته وضرب اصحابه فرسه فسقط على الأرض ورمى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال لا اتركه حتى أوصله للوزير أو أموت دون ذلك فتركوه فأوصله إلى الوزير وكنت انظر عند الصبح إلى الفيلة والاعلام يؤتى بها إلى (س) ثم جاءنى بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك واتى به الوزير فلم اصدقه فلم يمر الا يسير وجاءنى الملك تمور الشربدار فأخذ بيدى وقال ابشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير فتحرك (س) عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر مافيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا واخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الأموال والخيل والامتعة ونزل (س) على المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد اركب على ثور وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقيه فى عنقه فوقف على باب السراجة ودخل الوزير إلى (س) فأعطاه الشربة عناية به وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون فى وجهه ويصفعون

أصحابه اليه وبعث (س) الملك الكبير فقال له ما هذا الذى فعلت فلم يحدجوابا فامر به (س) ان يكسى ثوبا من ثياب الزمالة وقيد باربعة كبول وغلت يداه إلى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة غوض فاخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك اخلصى بنفسك وبنيك معنا فقالت أفلا أكون كنساء الكفار اللاتى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن فانا أيضا أموت لموت زوجى وأعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك (س) فكان سبب خيرها وادركته لها رقة وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولائك الاخوة فقتله واتى (س) برأسه وأتى بام عين الملك وأخته وامرأته فسلمن إلى الوزير وجعلن فى خباء بقرب خباء عين الملك فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود إلى محبسه ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة أمر (س) بسراح لفيف من الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبابه وأتى بملك ابراهيم البنجى الذى ذكرناه فقال ملك العسكر الملك نوايا خوتد عالم اقتل هذا فإنه من المخالفين فقال الوزير انه قد فدى نفسه بالقائم فعفا عنه (س) وسرحه إلى بلاده .

ولما كان بعد المغرب جلس (س) ببرج الخشب وأتى باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم واتى بالفيلة فطرحوا بين أيديها فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على انيابها وترمى ببعضهم إلى الهواء وتتلقفه والابواق والانفار والطبول تضرب عند ذلك وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ويطرح منهم عليه ثم أعيد إلى محبسه .

وأقام (س) على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب واجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم وبعث إلى بفيل منها أجزت عليه رحلى وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بهرايج (وضبط أسمها بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم) وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السر وهو واد كبير شديد الانحدار واجازه (س) برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذى فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينج منهم اعرابى من أصحاب الأمير غدا وكنار كبنا نحن مركب صغير فسلمنا الله تعالى وكان العربى الذى سلم من الغرق يسمى بسالم وذلك اتفاق عجيب .

وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر فركب فى المركب الذى غرق فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس وتوهموا أنا غرقنا ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا وزرنا قبر الصالح المذكور وهو فى قبة لم نجد سبيلا إلى

دخولها لكثرة الزحام وفى تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتل وأتى الناس براسه وهودون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بإضعاف وقد ذكرناه

﴿ ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة على شاه كر ﴾

ولما ظفر (س) بعين الملك كما ذكرنا عاد إلى حضرته بعد مغيب عامين و نصف وعفا عن عين الملك وعفا أيضا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك وجعلهما معا على عمل واحد وهو النظر على بساتين (س) وكساهما واركبهما وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم وبلغ الخبر بعد ذلك ان أحد أصحاب قطلوخان وهو على شاه كر ومعنى كر الاطرش خالف على (س) وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه وخرجت العساكر إليه وأمر (س) معلمه أن يخرج إلى قتاله فخرج فى عساكر عظيمة وحصره بدركوت و نقبت ابراجها واشتدت به الحال فطلب الامان فأمنه قطلوخان وبعث به إلى (س) مقيدا فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خرسان فاقام بها مدة ثم اشتاق إلى وطنه فاراد العود اليه لما قضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند واتى به (س) فقال له انما جئت لتثير الفساد ثانية وامر به فضربت عنقه .

﴿ ذكر فرار امير بخت واخذه ﴾

وكان (س) قد وجد على امير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فحط مرتبه من أربعين ألفا إلى ألف واحد وبعثه فى خدمة الوزير إلى دهلى فاتفق ان مات امير عبدالله الهروى فى الوباء فى التلنك وكان ماله عند اصحابه بدهلى فاتفقوا مع امير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلى إلى لقاء (س) هربوا مع امير بخت واصحابه ووصلوا إلى ارض السند فى سبعة أيام وهو مسيرة اربعين يوما وكان معهم الخيل مجنوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى معدية قصب يصنعونها وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بالعوم فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجة فقالا له ان هاهنا تجاراً أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا إليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فانكر امير ان يعطى التجار مثل ذلك السرج وامر بالقبض على الرجلين ففر أحدهما ولحق بشرف الملك واصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر فاخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وامر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فامر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا اثرهم

فأدركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الامير جلال الدين بسهم فأثبته فى ذراعه وغلب عليهم فأتى بهم إلى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب إلى الوزير فى شأنهم فامر الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة فبعثهم اليها وسجنوا بها فمات طاهر فى السجن فامر (س) ان يضرب شرف الملك مائة مقرعة فى كل يوم فبقى على ذلك مدة ثم عفا عنه وبعث مع الأمير نظام الدين أمير مجلة إلى بلاد جنديرى فانتهت حاله إلى ان كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الأمير على (س) وهو معه فجعله (س) شاشنكيرة (جاشنكير) وهو الذى يقطع اللحم بين يدى (س) ويمشى مع الطعام ثم انه بعد ذلك نوه له ورفع مقداره وانتهت حاله الى ان مرض فزاره (س) وأمره بوزنه بالذهب واعطاه ذلك وقد قدمنا هذه الحكاية فى السفر الأول وبعد ذلك زوجه باخته واعطاه بلاد جنديرى التى كان بها البقر فى خدمة الامير نظام الدين فسبحان مقلب الأرض ومحول الأحوال

(ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند)

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند وقتل الأمير بها وكان يسمى به زاد وادعى السلطنة لنفسه وتجهز (س) لقتاله فعلم انه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه الافغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاظ (س) مما فعله وكتب إلى عماله ان يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلاف القاضى جلال

(ذكر خلاف القاضى جلال)

وكان القاضى جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة فلما كتب (س) الى عماله بالقبض على الافغانيين كتب الى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهر والة أن يحتال فى القبض على القاضى جلال ومن معه وكانت بلاد بلوذرة اقطاعا لملك الحكماء وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ولها بنت من تغلق هى التى تزوجها الأمير غدا وملك الحكماء إذ ذاك فى صحبة مقبل لأن بلاده تحت نظره فلما وصلوا إلى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء ان يأتى بالقاضى جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكماء الى بلاده حذرهم فى خفية لأنهم كانوا من أهل بلاده وقال ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا لا ندخل إلا جملة فظهر لما انه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فامرهم الرجوع وأظهر تأمينهم فخلفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة (س) بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولمى التاجر وهو

الذى عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسنذكره إثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم فى سبعة آلاف من الفرسان فهزموهم أيضا وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم وادعى القاضى جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث (س) اليه العساكر فهزمها وكان بدولة أباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضا

﴿ ذكر خلاف ابن الملك مل ﴾

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد فى بعض من الأفغان فكتب (س) إلى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم وبعث اليه بأحمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند ان يبعث لكل امير على مدينة ولوجوه جنده خلعتين فى السنة واحدة للشتاء والثانية للصيف وإذا جاءت الخلع يخرج الامير والجند للقائها فاذا وصلوا إلى الآتى بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدم لجهة (س) وكتب (س) لنظام الدين إذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتى الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الافغان فاخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب هو والأفغان معه حتى إذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وأصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ودخلوا المدينة فاستولوا على الخزائن وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

﴿ ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية ﴾

ولما علم (س) مافعله الأفغان بكنباية ودولة آباد خرج بنفسه وعزم أن يبدأ بكنباية ثم يعود إلى دولة أباد وبعث أعظم ملك البايزيدى صهره فى أربعة آلاف مقدمة فاستقبله جند القاضى جلال فهزموه وحصروه ببلوذرة وقاتلوه بها وكان فى جند القاضى جلال شيخ يسمى جلول وهو أحد الشجعان فلا يزال يفتك فى الجند ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته واتفق يوما أنه دفع فرسه فكبا به فى حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى (س) وصلبوا جسده بسور بلوذرة وبعثوا يديه ورجليه الى البلاد ثم وصل (س) بجنده فلم يكن للقاضى جلال من ثبات ففر فى أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها (س) أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذى قدمنا ذكره وقضية فراره واخذه بالسند وسجنه وماجرى له من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة

جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم فادى ذلك الى قتل الشيخ على الحيدرى حسبما قدمناه ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ملك مل بدولة اباد ودخل فى جملته فاتى السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا فى نحو أربعين الفا من الأفغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على ان لا يفروا وان يقاتلوا (س) وأتى (س) لقتالهم ولم يرفع الشطر الذى هو علامته فلما استحر القتال رفع الشطر ولما عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة ولجا ابن ملك مل والقاضى جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقير وبعث لهم ان ينزلوا لحكمه فابوا أن ينزلوا إلا على الأمان فابى (س) ان يؤمنهم وبعث لهم الأطعمة تهاونا بهم وأقام هنالك وهذا آخر عهدى بهم

(ذكر قتال مقبل وابن الكولمى)

وكان ذلك قبل خروج القاضى جلال وخلافه وكان تاج الدين الكولمى من كبار التجار فنزل على (س) من أرض الترك بهدايا جليلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب فاعجب (س) فعله وأعطاه اثنى عشر لكا ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكا واحدا وولاه مدينة كنباية وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير ووصل اليها وبعث السفن الى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا فى السفن وعظمت حاله ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن الكولمى ان يبعث ما عنده من الهدايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة امتنع ابن الكولمى عن ذلك وقال أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى ولا حكم لنائب الوزير على ولا للوزير واغتر بما أولاه (س) من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجز عن بلادنا فاتركها وارجع الينا

ولما وصله الجواب تجهز فى جنده ومماليكه والتقيا بظاهر كنباية فانهزم الكولمى وقتل جملة من الفريقين واستخفى ابن الكولمى فى دار الناخودة (الناخدا) الياس أحد كبراء التجار .

ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب جهد ابن الكولمى وبعث له الأمان نظير أن ياخذ ماله المختص به ويترك مال (س) وهديته ومجبى البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه إلى (س) وكتب شاكياً من ابن الكولمى وكتب ابن الكولمى شاكياً منه وبعث (س) ملك الحكماء ليتنصف بينهما وباثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين فنهب مال ابن الكولمى وهرب ابن الكولمى فى بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

﴿ ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند ﴾

وفي مدة غياب السلطان عن حضرته إذ خرج يقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتد الأمر وانتهى المن إلى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضاقت الأحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع في الأسواق وكان الناس إذا ذبحت البقر أخذوا دماءها فأكلوها وحدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويأكل منها والعياذ بالله ولما اشتد الحال أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في اليوم لكل واحد وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسبما يذكر فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه وإذ قد ذكرنا من أخبار السلاطين وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولا إلى حضرته وتنقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى الصين وعودنا منها إلى بلادنا إن شاء الله تعالى

﴿ ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب ﴾

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الأول ثم الثاني والثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلاني أخوهم برهان الدين ثم الأمير مبارك السمرقندي ثم قرن بغا التركي ثم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ثم بدر الدين الفصال .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزاراسطون (استون) ومعنى ذلك الف سارية وبه يجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض وخدمتنا لناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية بسم الله وخرجنا .

(ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها)

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر وهي مكفوفة البصر وسبب ذلك انه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين وعولجت بأنواع العلاج فلا ينفع وولدها أشد الناس براً بها ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين

ولنعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهنالك سكنى المخدومة جهان فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله .

ودخل معنا قاضي قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سرا ثم عادوا الى القصر ثم رجعوا الى الوزير ثم عادوا إلى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين .

ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب بسم الله ثم أكلنا وأتوا بالفقاع والتنبول وقال الحجاب بسم الله فخدمنا جميعاً ثم دعينا الى موضع هنالك فخلع علينا حلل الحرير المذهبة وأتوا بنا الى باب القصر تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان فاعطى كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة وبطيفور مثله فيه الجلاب وطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم ان الذي يخرج له ذلك ياخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ويخدم بيده الثانية الى الأرض فاخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرة جزاه الله الخير ففعلت كما فعل وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقربة من دروازة بالم منها وبعث لنا الضيافة ،

(ذكر الضيافة)

ولما وصلت إلى الدار التى أعدت لنزولى وجدت فيها مايحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير والقطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتج إلى مايرطبه به لأنه يعطى الرطوبة من ذاته وجاءوا مع السرير بمضربين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (اللحف) وجوها تغشيها من كتان أوقطن بيضاء فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقى مافى داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى ويسمونه الخراص والثانى الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لأوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها ولما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان وسلمنا على الوزير فاعطانى بدرتين كل بدرة من الف دينار دراهم وقال لى هذه سر ششتى (شستى) ومعناه لغسل رأسك وأعطانى خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابى وخدامى وغلمانى فجعلوا أربعة أصناف فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منها مائتى دينار والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين ديناراً وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهى ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرمك وثلثاها من الخشكار وهو المدهون وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها والألف من ورق التنبول والرطل الهندى عشرون رطلا من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر وكانت ضيافة خداوندزاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع مايناسبها مما ذكرناه .

(ذكر وفاة بنتى وما فعلوا فى ذلك)

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لى سنها دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فامر أن تدفن فى زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوي فدفناها بها وكتب بخبرها الى السلطان فأتاه الجواب فى عشى اليوم الثانى وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم ان يخرجوا إلى قبر الميت

صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الأزاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهي زهر أصفر وريبول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرؤن القرآن فاذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت الصبح على العادة وأعددت ما تيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت إلا والقوم المذكورون وقد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً فخدموا ثم جلسوا ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات ثم فرقوا عليهم التنبول ثم أتى باحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت إلى منزلي فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ما ملا الدار ودور أصحابي وأكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الأقراص والحلواء والنبات فأقامت بقاياها أياما وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحمة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال وهي شبه السرير سطحها من ضفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندي المغلوق ويحملها ثمانية رجال في نوبتين تستريح أربعة ويحمل أربعة وهذه الدل كالحمير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن عبيد اكترى رجالا يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الأسواق وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكرى وتكون دول النساء مغشاة بغشاة حرير وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتي هي أم البنت المتوفاه وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثاني وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا وقميص

كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب ولما جاءت بذلك أعطيته لأصحابى وللتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسى وصونا لعرضى لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى .

﴿ذكر إحسان السلطان والوزير فى أيام غيبة السلطان عن الحضرة﴾

وفى أثناء إقامتى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما يكون فائدة خمسة آلاف دينار فى السنة فعينها إلى الوزير وأهل الديوان وخرجت إليها فمنها قرية تسمى بدلى (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسهى (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بالمرة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدى عندهم مجموع مائة قرية من قرى بلاد الهند واحواز المدينة مقسومة اصداء وكل صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذى يضم مجابيها وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبى من الكفار فبعث الوزير إلى عشر جوار منه فأعطيت الذى جاء بهن واحدة منهن فما رضى بذلك وأخذ أصحابى ثلاثا صغاراً منهن وباقيهن لا اعرف ما اتفق لهن والسبى هنالك رخيص الثمن لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الأثمان فلا يفتقر أحد إلى شراء السبى والكفار ببلاد الهند فى بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضها على بعض ولا تؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهى لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بآلات معده لذلك .

﴿ذكر العيد الذى شهدته أيام غيبة السلطان﴾

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة فلما كان يوم ركب الخطيب على الفيل وقدمهد له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة أعلام أركانه الأربعة ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه وفقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى ثم صلى بهم الخطيب

وخطب وانصرف الناس إلى منازلهم وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام لحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا .

﴿ ذكر قدوم السلطان ولقائنا له ﴾

ولما كان فى رابع شوال نزل السلطان بقصر اسمه تلبت (بكسر التاء المعلوة الاولى وسكون اللام وفتح الباء الموحده ثم تاء كالأولى) وهى على مسافة سبعة أميال من الحضرة فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخرسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك فوصلنا إلى باب القصر واجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب، ولما وصلت إلى النوبة دخلت فوجدته قاعدا على كرسى فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى وكنت عرفته أيام غيبة السلطان فخدم الحاجب فخدمت واستقبلنى أمير حاجب وهو ابن عم السلطان فيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لى ملك الندماء بسم الله مولانا بدر الدين وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدى وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب ويقول لى بالفارسى حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من المراحم وأعطيك من الأنعام ما يسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سألنى عن بلادى فقلت له بلاد المغرب فقال لى بلاد عبد المؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لى كلاما جيدا قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات وخلع على وانصرفت واجتمع الواردون فمدلهم سماط ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وكان من كبار الفقهاء وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنورى وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجى وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خداوندزاده غياث الدين بن عم خداوندزاده قوام الدين قاضى الترمذ الذى قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ وتردد إليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك هم خداوندزاده قوام الدين واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخيه أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين امير هند ووزيرا أيضا والأمير هبة الله ابن الفلكى التبريزى وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتبريز وملك كراى من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى وهو من أهل جبل بدخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش

واللازوردو الأمير مبارك شاه السمرقندي وأرون بغا البخاري وملك زاده الترمذي وشهاب الدين الكازروني التاجر الذي قدم تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب في طريقه .

﴿ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب﴾

وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السطان لدخول حضرته وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة أمام السلطان وجعلت عليها الأعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة فوق رأسه شطرا منها وحملت أمامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة قذف في تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام وصنعت قباب الخشب المكسوه بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك .

﴿ذكر دخولنا اليه وما أنعم به من الإحسان والولاية﴾

ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان أتينا باب المشورة فجلسنا في سقائف الباب الثالث ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماؤنا وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معي ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضي القضاة والكتاب ودعوا من الباب من الأعزة وهم الغرباء فميزوا لكل نصيبه من تلك البدر فحصل لي خمسة الاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها وانصرفنا ذلك اليوم وكان (س) بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل الكلام ولقد قال لنا في بعض الأيام انتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم فالكبير منكم مقام والدي والكهل مقام أخي والصغير مقام ولدي وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم إياها فشكرناه ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لي إثني عشر ألف دينار في السنة وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل إحــــداهما قرية جوز والثانية قرية ملك بور في بعض الأيام بعث لنا خداوندزاده وغياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لأنهم كانو يريدون

تحصيل الاموال والانصراف إلى بلادهم وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذى تقدم ذكره فقال أما الوزارة فميراثى وأما الكتابة فشغلى وغير ذلك لا أعرفه

وتكلم هبة الله بن الفلكى فقال مثل ذلك وقال لى خداوندزاده بالعربى ما تقول أنت ياسيدى وأهل تلك البلاد مايدعون العربى إلا بالتسويد وبذلك يخاطبه (س) تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلى

وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى وأما الاماره فتعلمون أن الأعاجم ماأسلمت إلا بأسياف العرب فلما بلغ ذلك (س) أعجبه كلامى وكان بهزار اسطون يأكل الطعام فبعث عنا فأكلنا بين يديه وهو يأكل ثم انصرفنا إلى خارج هزار اسطون فقعد أصحابى وانصرفت بسبب دمل كان يمنعنى الجلوس فاستدعانا (س) ثانية فحضر أصحابى واعتذروا له عنى بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله (س) أميرداد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضى فمن كان له حق على أمير أو كبير حضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين الف دينار فى السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فامر له بخمسين الفاعن يدو خلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط فى باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيها من الذهب وأمر له بفرس من الجنس الأول والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أمير بخت فامره أن يجلس مع الوزير فى مسنده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا أربعين الف دينار فى السنة أعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعين ألفاعن يدو أعطى فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذى قبله ولقب شرف الملك

ثم دخل هبة الله ابن الفلكى فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة أعطى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعة وعشرين الفا عن يدو اعطى فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت (س) على سطح القصر مستندا إلى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لى الملك الكبير اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضى دار الملك دهلى وجعل مرتبك اثنى عشر الف دينار فى السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وامر لك باثنى عشر الفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمر لك بخلعة محاربين وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب فخدمت

وأخذ بيدي فتقدم بي إلى (س) فقال لى (س) لاتحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال هو أكبر الأشغال عندنا وكنت أفهم قوله ولاأحسن الجواب عنه وكان (س) يفهم العربي ولايحسن الجواب عنه فقلت له يامولانا أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية وأنا لاأعرف انسان فقال لى قدعينت بهاء الدين الملتانى وكمال الدين البجنورى ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخديمكم فقال لى باللسان العربي بل أنت سيدنا ومخدومنا تواضعا منه وفضلا وإيناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت إن كان الذى ترتب له لايكفيه لانه كثير الانفاق فانا أعطيه زاوية ان قدر على إقامة حال الفقراء وقال قل له هذا بالعربي وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك وفهم (س) ذلك فقال له برووبكجا بخسبي (بخسبى) وان حكاية براو بكوى و تفهيم كنى (بكنى) تافردا إن شاء الله بيش من بيابى (و) جواب او بكرى (بكوى) معناه امشوا الليلة فارقدوا موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغد إن شاء الله تجىء إلى و تعلمنى بكلامه فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لايخرج أحد فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلى مسدودة فبتنا عند السيد أبى الحسن العبادى العراقى بزقاق يعرف بسرابور خان وكان هذا الشيخ يتجر بمال (س) ويشترى له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على (س) فخدمنا واتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعد ان جعلت عليها الخرق وقدناها بأنفسنا إلى باب دار (س) فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وأمر (س) لأصحابه بألفى دينار وعشر خلع ولم يعط لأصحابى أحد سواى شيئا وكان اصحابى لهم رواء ومنظر فاعجبوا (س) وخدموا بين يديه وشكرهم

﴿ ذكر عطاء ثان أمر لى به وتوقفه مدة ﴾

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتى القضاء والاحسان إلى وأنا قاعد تحت شجرة هنالك وإلى جانبى مولانا ناصر الدين الترمذى العالم الواعظ فاتى بعض الحجاب فدعى مولانا ناصر الدين فدخل الى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ثم أتانى بعض الحجاب فقال اعطنى شيئا وآخذ لك خط خرد بانى عشر الفا أمر لك بها خوند عالم فلم اصدقه وظننته يريد الحيلة على وهو يجد فى كلامه فقال بعض الاصحاب انا اعطيه فاعطاه دينارين او ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه امر خوند عالم ان

يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أى بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء وهم الخان الأعظم قطلوخان معلم (س) والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام والأمير نكبية الدوادار صاحب الدوات فإذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب البراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت فى ديوان الأشراف ثم تثبت فى ديوان النظر ثم تكتب البراوانة وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن فى ديوانه ويكتب تلخيصا فى كل يوما بمبلغ ما أمر به (س) ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الأثنا عشر الماسته أشهر ثم أخذ تهامغ غيرها حسبما يأتى وعادتهم إذا امر (س) باحسان لأحد يحط منه العشرة فمن امر له مثلا بمائة الف أعطى تسعين الفا أو بعشرة آلاف أعطى تسعة آلاف

﴿ ذكر طلب الغرماء مالهم قبلى ومدحى للسلطان وأمره بخلاص دينى وتوقف ذلك مدة ﴾

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته فى طريقى وماصنعت به الهدية (س) وما انفقته فى إقامتى فلما ارادوا السفر إلى بلادهم الحوا على فى طلب دينهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها (طويل)

اليك امير المؤمنين المبجلا	اتينا نجد السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا	ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلو ان فوق الشمس للمجد رتبة	لكنت لأعلاها إماما مؤهلا
فانت الامام الماجد الاوحد الذى	سجاياه حتما ان يقول ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك ارتجى	قضاها وقصدى عند مجدك سهلا
اذكرها ام قد كفانى حياؤكم	فان حياكم ذكره كان اجملا
فعجل لمن وافى محلك زائرا	قضا دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسى فجعلها على ركبته وامسك طرفها بيده وطرفها الثانى بيدى وكنت إذا اكملت بيتا منها لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب (س) وهم يحبون الشعر العربى فلما بلغت إلى قولى فعجل لمن وافى البيت قال مرحمة ومعناه ترحمت عليك فاخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى إلى موقفهم واخدم على العادة فقال (س) اتركوه حتى يكملها فاكملتها وخدمت وهنانى الناس بذلك واقمت مدة وكتبت رفعا وهم يسمونه غرض داشت فدفعته إلى قطب الملك

صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض إلى خواجه جهان فقل له يعطى دينه فمضى اليه وأعلمه فقال نعم وأبطأ ذلك أياما وامره (س) فى خلالها بالسفر إلى دولة آباد وفى اثناء ذلك خرج (س) إلى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئا منها إلا بعد مدة والسبب الذى توقف به عطاؤها اذكره مستوفى وهو انه لما عزم الذين كان لهم على الدين إلى السفر قلت لهم إذا أنا أتيت دار (س) فدروا بى على العادة فى تلك البلاد لعلمى ان (س) متى يعلم بذلك خلصهم وعادتهم انه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية واعوزه خلاصه ووقف له بباب دار (س) فاذا اراد الدخول قال له دروهى وحق راس السلطان ماتدخل حتى تخلصنى فلا يمكنه ان يبرح من مكانه حتى يخلصه او يرغب اليه فى تاخيره فاتفق يوما ان خرج (س) إلى زيارة قبر ابيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما اردت الدخول وقفوا لى بباب القصر فقالوا لى دروهى (س) ماتدخل حتى تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى (س) فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسألهم لاى شىء درهمتموه فقالوا لنا عليه الدين فرجع الى (س) فاعلمه بذلك فقال له اسالهم كم مبلغ الدين فقالوا له خمسة وخمسون الف دينار فعاد اليه فاعلمه فامره ان يعود اليهم ويقول لهم ان خوند عالم يقول لكم المال عندى وانا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وامر عماد الدين السمنانى وخداوندزاده غياث الدين ان يقعدوا بهزاراسطون ويأتى اهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويتحققوها ففعلا ذلك واتى الغرماء بعقودهم فدخلا الى (س) واعلماه بثبوت العقود فضحك وقال ممازحا أنا اعلم أنه قاض جهز شغله فيها ثم امر خداوندزاده ان يعطينى ذلك من الخزانة فطمع فى الرشوة على ذلك وامتنع ان يكتب خط خرد فبعثت اليه مائتى تنكة فردها ولم ياخذها وقال لى عنه بعض خدامه انه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك واعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمنانى بذلك فاعلم به اباه وعلمه الوزير وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فاعلم (س) بذلك وذكر له كثيرا من افعال خداوندزاده فغير خاطر (س) عليه فامر بحبسه فى المدينة وقال لأى شىء اعطاه فلان مااعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئا اذا منعته أو يمنعه إذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء دينى

﴿ ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجى معه وماصنعت فى ذلك ﴾

ولما خرج (س) إلى الصيد خرجت معه من غير تربص وكنت قد أعددت مايحتاج اليه وعملت ترتيب اهل الهند فاشتريت سراجة وهى افراج وضربها هنالك مباح ولا بد منها لكبار

الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق واشتريت الصيوان وهو الذى يظل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم اليكوانية والعادة هنالك أن يكترى المسافر اليكوانية وقد ذكرناهم ويكترى من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن ويكترى الكهارين وهم الذين يحملون أوانى المطبخ ويكترى من يحمله الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكترى الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الأحمال على الجمال ويكترى الدوادية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكتريت أنا جميع من له منهم وأظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج (س) وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس ويعرف من تسارع إلى الخروج ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسى فجئت وسلمت ووقفت فى موقفى بالميمنة فبعث إلى الملك الكبير قبولة سرجامدار وهو الذى يشرد الذباب عنه فأمرنى بالجلوس عناية بى ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائى ثم أتى بالفيل وألصق به سلم فركب عليه ورفع شطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد إلى السراجة وعادته إذا ركب أن يركب الأمراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرنياته ويسمون ذلك المركب أمام (س) إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار والذين يضربون الصرنيات ويكون عن يمين (س) نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة وكنت أنا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والأدلاء ويكون خلفه علاماته وهى من الحرير المذهب والأطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته وخلفهم الأمراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فإذا أمر (س) بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا نضرب سراجته ثم يأتى الموكاون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله خلال ذلك ينزل (س) على نهر او بين اشجار وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد ويحضر أبناء الملوك فى يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترون ذلك ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه وكان فى بعض تلك الايام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهرى احد ندمائه ثم فلان المغربى وهو متغير فقال لماذا فقال

بسبب الدين الذى عليه وغرمائه يلحون فى الطلب وكان خوندعالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك فإن مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو امر بإنصافهم وحضر لهذا الملك دولةشاه وكان (س) يخاطبه باسم فقال يا خوند عالم كل يوم وهو يكلمنى بالعربية ولا أدرى ما يقول ياسيدى ناصر الدين ماذا وقصد أن يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لأجل الدين الذى عليه فقال (س) إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار ومعناه ياعم إلى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضرا فقال يا خوند عالم أنه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين وبعد هذا الكلام استحضرنى (س) للطعام ولا علم عندى بما جرى فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين أشكر للملك دولةشاه وقال لى الملك دولةشاه أشكر لخداوندزاده وفى بعض تلك الأيام ونحن مع (س) فى الصيد ركب فى المحلة وكان طريقه على منزلى وأنا معه فى الميمنة وأصحابى فى الساقة وكان لى خباء عند السراجة فوقف أصحابى عندها وسلموا على (س) فبعث عماد الملك ملك دولةشاه ليسألا لمن تلك الأخبية والسراجة فقيل لهما لفلان فأخبراه بذلك فتبسم فلما كان بالغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهرى وابن قاضى مصر وملك صبيح إلى البلد فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

﴿ ذكر الجمل الذى أهديته للسلطان ﴾

وكان (س) فى تلك الأيام سألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت نعم يركب المهارى فى أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد وأخبرته أن عندى جملا منها فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لى صورة الكور الذى تركب المهارى به من القير وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وتفقنه وكسوته بالملف وصنعت له اكبارا وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء إلى (س) وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد ملك دولةشاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك على (س) وقال يا خوند عالم رأيت العجب قال وما ذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال أئتوا به فادخل الجمل داخل السراجة وأعجب به (س) وقال لراجلى اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتى دينار دراهم وخلعه وعاد الرجل إلى فأعلمنى فسرنى ذلك وأهديت له جملين بعد عودته إلى الحضرة .

﴿ ذكر الجلين اللذين أهديتهما إليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وماتعلق بذلك ﴾

ولما عاد إلى راجلي الذي بعثته بالجمل فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتها بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة المذهبة وجعلت لهما جلين مل زردخانة مبطنين بالكمخا وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت أحد عشر طيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير فلما قدم (س) من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال فأمر بها فحركت بين يديه وهزولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين ابن الفلكى بايل ورارى معنى ذلك ارفع الخلخال فرفعه ثم نظر إلى الطيافير فقال جدارى (چه دارى) درآن طبقها حلوا است معنى ذلك مامعك في تلك الأطباق حلواء هي فقلت له نعم فقال للفقيه ناظر الدين الترمذي الواعظ ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعث إلينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه فرفعت وقام إلى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فأكلت ثم سألني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له فقلت له ياخوند عالم تلك الحلواء انواعها كثيرة ولا أدرى على أي نوع تسألون منها فقال إيتوا بتلك الأطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها فقال عن هذا سألتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقيمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري وينتسب إلى آل العباس رضى الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له (س) والدى فحسدني وأراد أن يخجلني فقال ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه وأخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان بإزائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروى وكان كثيراً ما يمازح هذا الشيخ بين يدى (س) فقال ياخواجه أنت تكذب والقاضي يقول الحق فقال له (س) وكيف ذلك فقال ياخوند عالم هو القاضي وهي لقياته فانه أتى بها فضحك (س) وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هينهة وأتاني الخازن فقال ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين علي وصرف الاثنى عشر ألفا التي مر لى بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب . .

﴿ ذكر خروج السلطان وأمره لى بالإقامة بالحضرة ﴾

وفى تاسع جمادى الأولى خرج (س) برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادرية وقد تقدم ذكرهم فخرج الأمر باقامتى فى جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الأعزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئا وأمرلى (س) أن أتولى النظر فى مقبرة (س) قطب الدين الذى تقدم ذكره وكان (س) يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خديما له ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكاة وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمه وزوجها بعد ذلك لابن قاضى مصر واعتنى به من أجلها وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة ولما خرج (س) بعث عنا للوداع فقام ابن قاضى مصر فقال أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم فكان له فى ذلك الخير فقال له (س) أمض فتجهز للسفر وقدمت بعده للوداع وكنت أحب الإقامة ولم تكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فاخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لى تكلم بلسانك فقلت له أن خوند عالم أمر لى بالقضاء وما قعدت لذلك بعد وليس مرادى من القضاء إلا حرمته فأمرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معى ثم قال لى ايه فقلت وروضة (س) قطب الدين فاذا أفعل بها فيها فانى رتبت فيها أربعمائة وستين شخصا ومحصول أوقافها لايفى بمرتباتهم وطعامهم فقال للوزير پنجاة هزار ومعناه خمسين ألفا ثم قال لابد لك من غلة بدية يعنى اعطه مائة ألف من المغلة وهى القمح والأرز ينفقها فى هذه السنة حتى تاتى غلة الروضة والمن عشرون رطلا مغربية ثم قال لى ماذا أيضا فقلت أن أصحابى سجنوا بسبب القرى التى أعطيتمونى فانى عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ماوصلنى منها أو الاستظهار بامر خوندعالم ان يرفع عنى ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هى أنعام عليك فقلت له ودارى التى أمرتم لى بها مفتقرة إلى البناء فقال للوزير عمارة كنيداى معناه عمروها ثم قال لى ديكر نمانذ فقلت له معناه هل بقى لك كلام فقال لى وصية ديكر هست معناه أوصيك أن لا تاخذ الدين لئلا تطالب فلا تجد من يبلغ خبرك إلى انفق على قدرما اعطيتك قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما

فأردت أن أقبل قدمه فمنعني وأمسك رأسي بيده فقبلتها وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقي وبنيت بإزائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان قد أمرني أن تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها وجعلها بيدي على أن يكون لي العشر من فائدها على العادة

(ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة)

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيباً كترتيبهم بقيد الحياة ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم الختميين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية ورتبت لها مدرساً ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادية والآبدارية وهم السقاؤن والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت أن ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح إلى (س) بدولة آباد فسأله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد فأعجب ذلك السلطان وبعث إلي بخلعة من ثيابه وكنت أصنع في المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحما فيأكل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه ولنذكر عادتهم في ذلك .

(ذكر عادتهم في إطعام الناس في الولائم)

وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السرا أنه اذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له اربع قوائم منسوج سطحه

من الخوص وجعل عليه الرقاق ورأس غنم مشوى وأربعة أقراص معجونة بالسمن محلوة بالحلواء الصابونية مغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر وطبقاً صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك إذ لم يكن لى به عهد وكذلك يبعثون أيضاً لدار كبراء الناس من طعام الولائم

﴿ ذكر خروجى إلى هزار أمروها ﴾

وكان الوزير قد أعطانى من مغله المأمور بها للزاوية عشرة آلاف ونفذلى الباقى فى هزار أمروها وكان والى الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين البذخشانى فبعثت رجالى فأخذوا بعض الإحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك فى أوان نزول المطر فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى واستصحبت معى أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لى فى الطريق فوصلنا إلى بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نوبة والآخران نوبة .

ثم وصلنا إلى أمرها وهى بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقائى وجاء قاضيها الشريف أمير على وشيخ زاويتها وأضافانى معا ضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقاله افغان بور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فأخذنا الأثقال فى معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا فى اليوم الثانى وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا سراجه ثم جاء أخوه إلى الوالى وكان معروفا بالظلم وكانت القرى التى فى عمالته ألفاً وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكافى السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد أقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه أحد غرفة ولا كدنا نقرب منه لأنه ينزل من جبل قراجيل التى بها معادن الذهب ويمر على الخشاش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر وينزل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل وبهذا الموضع جاء إلى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وارقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكاية أحدهما الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بأمروها وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان وإلى شهاب الدين الرومي أن ننظر في قضيتها فمن كان على الباطل بعثاه منقفا إلى الحضرة فاجتمعوا جميعا بمنزلي وادعى عزيز شمس الدين دعاوى منها أن خديماً له يعرف بالرضى الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لي ماشربت الخمر منذ خروجي من ملتان وذلك ثمانية أعوام فقلت له أو شربتها بملتان قال نعم فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث ظهر عليه وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتي نحو شهرين وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه فوزع على أهل القرى التي لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لايحملون إلا على البقر وعليه يعرفون أثقالهم في الأسفار وركوب الحمير عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة وإذا أرادوا إشهار أحد بعد ضربه أركبوه الحمار

﴿ ذكر مكرمة لبعض الاصحاب ﴾

وكان السيد ناصر الدين الاوهري قد ترك عندي لما سافر ألفاوستين تنكة فتصرفت فيها فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداوندزاده قوام الدين وكان قد قدم نائبا على الوزير فاستقبحت أن أقول له تصرفت في المال فأعطيته نحو ثلثه وأقمت بداري أياما وشاع أني مرضت فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي فلما رآني قال ما أرى بك مرض فقلت له أني مريض القلب فقال لي عرفني بذلك فقلت له ابعث إلى نائبك شيخ الاسلام أعرفه به فبعثه فأعلمته فعاد إليه فأعلمه فبعث إلي بألف دينار دراهم وكان له عندي قبل هذا ألفا ثانيا ثم طلب مني بقية المال فقلت في نفسي ما يخلصني منه إلا صدر الجهان المذكور لأنه كثير المال فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة وقلت له انظر قيمة الجميع وابعث إلى ذلك فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث إلي ألفا واقتطع الألفين فتغير خاطري ومرضت بالحمى وقلت لنفسي ان شكوت به إلى الوزير افتضحت فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين

السمنانی وهو فقی مسن فردعلی ذلك وبعث إلی مائتی تنكة واغزروخلصت من ذلك المال فشتان بین محمدو محمد .

﴿ ذكر خرجی من محلة السلطان ﴾

وكان السلطان لما توجه إلی بلاد المعبر وصل إلی التلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد إلی دولة آباد ثم وصل إلی نهر الـكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت فی تلك الأيام الی محلته واتفق ماسردناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان فی هذا اليوم وأعطانی من عتاق الخيل لما قسمها علی خواصه وجعلنی فيهم وحضرت معه الوقيعة علی عين الملك والقبض عليه وجزت معه نهر الـكنك ونهر السرو والزيارة قبر الصالح البطل سالارعود (مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه إلی دهلی لما عاد اليها .

﴿ ذكر ماهم به السلطان من عقابی وما تداركنی من لطف الله تعالی ﴾

وكان سبب ذلك أنی ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام بالغار الذی احتفره خارج دهلی وكان قصدی رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره فذكروا أناساً أنا من جملتهم فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتی بالمشور وعادته أنه متی فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص فكان أول يوم من ملازمتهم لی يوم الجمعة فألهمنی الله تعالی إلی تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ثلاثة وثلاثين الف مرة وبت بالمشور وواصلت إلی خمسة أيام فی كل يوم منها أختم القرآن وأفطر علی الماء خاصة ثم افطرت بعد خمس وواصلت أربعا وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالی

(ذكر انقباضی عن الخدمة وخروجی عن الدنيا)

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبدالله الغاری وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة فقد ذكرت منها ماشاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت الی خدمة هذا الشيخ ووهبت ماعندی للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما يواصل عشرين فكنت أحب أن أواصل فكان ينهانی ويأمرنی بالرفق علی نفسی فی العبادة ويقول لی أن المنبت لا أرضا قطع ولا أبقی وظهر لی من نفسی تكاسل بسبب شیء بقی معی فخرجت عن جميع ما عندی من قليل وكثير وأعطيت ثياب ظهری لفقير ولبست ثيابه ولازمت هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند

(ذكر بعث السلطان عنی وإبايتی عن الرجوع إلی الخدمة واجتهادی فی العبادة)

ولما بلغه قبل خروجی عن الدنيا استدعانی وهو يومئذ بسوستان فدخلت عليه فی

زى الفقراء. فكلمنى أحسن كلام وألطفه وارادمنى الرجوع إلى الخدمة فأبيت وطلبت منه الإذن فى السفر إلى الحجاز فأذن لى فيه وانصرفت عنه ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير وذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام وفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام وكنت اقرأ القرآن كل يوم وأتهجد بماشاء الله وكنت إذا أكلت الطعام أذانى فاذا طرحته وجدت الراحة وأقمت كذلك أربعين يوما ثم بعث عنى ثانية .

(ذكر ما أمرنى به من التوجه إلى الصين فى الرسالة)

ولما كملت لى أربعون بعث إلى (س) خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لى قبة قطن زرقاء مبطنة لبستها أيام اعتكافى فلما جردتها ولبست ثياب (س) انكرت نفسى وكنت متى نظرت الى تلك الجبة أجد نورا فى باطنى ولم تزل عندى إلى أن سلبنى الكفار فى البحر ولما وصلت إلى (س) زاد فى إكرامى على ما كنت أعهده وقال لى إنما بعثت اليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين فانى أعلم حبك فى الأسفار والجولان فجهزنى بما أحتاج له وعين للسفر معى من يذكر بعد

(ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية)

وكان ملك الصين قد بعث إلى (س) مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا منهما مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا وخمسة أمنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر ومثلهم من التراكش مزركشه ومثلهم سيوف وطلب من (س) أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذى هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) واليه يحج أهل الصين وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه ولما وصلت هذه الهدية إلى (س) كتب اليه بأن هذا المطلب لايجوز فى ملة الاسلام اسعافه ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلالمن يعطى الجزية فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى وكافأه على هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاى) وهى التى يكون حرير أحداها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ومثلهم من الشيرين باف ومثلهم من الشان باف وخمسمائة

ثوب من المرعز منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من الكتان الرومي ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب وأربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة وأربع طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها وست طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان من زركشة وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش وأحدها مرصع بالجواهر وعشرة من السيوف احدها مرصع الغمد بالجوهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجواهر وخمسة عشر من الفتيان وعين (س) للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء أهل العلم والفتى كافور الشربدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الأمير محمد الهروي في الف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر وتوجه صحبتنا ارسال ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة وأمر لنا (س) بالضيافة مدة سفرنا ببلاده

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانية أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي .

ورحلنا منها إلى منزل هيلوور ورحلنا منه الى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) وهي كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والأمير بها مظفر بن الداية وأمه هي داية للسلطان وكان بها قبله الملك مجير بن ابي الرجاء احد كبراء الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب إلى قريش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من أهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم .

. ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في اسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور فأمر (س) بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ثم قتله بعد ذلك ومن كبار أهل هذه المدينة الامام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير ابن العوام رضي الله عنه أحد كبار الفقهاء الصلحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف بأعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الى مدينة كول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ونزلنا بخارجها في بسيط

افيح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات فى سجنه وقد ذكرنا حديثه .

﴿ ذكر غزوة شهدناها بكول ﴾

ولما بلغنا إلى مدينة كول بلغنا أن بعض كفارا لهنود حاصروا بلدة الجلالى واحاطوا بها وهى على مسافة سبعة من كول قصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقداشرفوا على التلف ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم فى نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم واستشهد من اصحابنا ثلاثة وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده فكتبنا إلى السلطان بخبره واقمنا فى انتظار الجواب وكان الكفار فى اثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحى بلدة الجلالى وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع امير تلك الناحية لعينوه على مدافعتهم .

(ذكر محنتى بالاسر وخلاصى منه وخلاصى من شدة بعده على يد ولى من أوليا الله تعالى)

وفى بعض تلك الأيام ركبت فى جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نا تقيل فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا اغاروا على قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق اصحابنا فى طلبهم وانفردت فى خمسة من اصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعنى نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عنى إلا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدى وتلك الأرض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسى بين الحجارة فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه والعادة بالهند ان يكون مع الإنسان سفيان أحدهما معلق بالسراج ويسمى الركابى والآخر فى التركش فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حليته ذهبا فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت وهم فى اثرى ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه فكان اخر عهدى بهم .

ثم خرجت إلى واد فى وسط شعراء ملتفة فى وسطها طريق فشيت عليه ولا أعرف منتهاه فبينا أنا فى ذلك خرج على نحو اربعين رجلا من الكفار بايديهم القسى فاحدقوا بى وخفت ان يرمونى رمية رجل واحـــدان فررت منهم وكنت غير متدرع فالقيت بنفسى إلى الأرض واستأسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فأخذونى وسلبونى جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بى إلى تلك الغابة فانتهوا بى إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار واتونى بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى فاخبرتهما ببعضه

وكتمتهما انى من جهة (س) فقالا لى لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ولكن هذا مقدمهم وأشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بى ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمنى أولئك الثلاثة ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلى واحتملونى عشى النهار إلى كهف وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه على ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا إلى بالنزول معهم إلى الحوض وفهمت أنهم يريدون قتلى فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لى وقطعت كمى قميصى وأعطيته أياهما لكى لا يأخذه أصحابه فى ان فررت .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم فأشاروا إلى بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فأبوا وجلس ثلاثتهم أمامى وأنا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض وأنا أنظر اليهم وأقول فى نفسى بهذا الحبل يربطونى عند القتل وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين اخذونى فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لأى شيء ما قتلتموه فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى أتريد أن أسرحك فقلت نعم فقال أذهب فاخذت الجبة التى كانت على فأعطيته إياها وأعطانى منيرة بالية عنده وأرانى الطريق فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونى فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس .

ثم خرجت وسلكت الطريق التى أرانيها الشاب فافضت بى إلى ماء فشربت منه وسرت إلى ثلث الليل فوصلت إلى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى إلى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجنى النبق فآكله حتى أثر الشوك فى ذراعى آثارا هى باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جداً مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء وبعضها يكون فى وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها فى الطرقات التى لاماء بها وسنذكر بعض ما رأينا منها فيما بعد ولما صلت إلى الباين شربت منه ووجدت عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فاكلت منها وأدخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع فبينما أنا كذلك إذ ورد الباين نحو أربعين فارساً مدرعين فدخل بعضهم إلى المزرعة .

ثم ذهبوا وطمس الله ابصارهم دونى ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا إلى الباين وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التى كنت تحتها فلم يشعر بى ودخلت إذ ذاك فى مزرعة القطن واقمت بها بقية نهارى وأقاموا على الباين

يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قدمروا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت إلى باب آخر عليه قبة فنزلت اليه وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التى كانت عندى ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان فى تلك العشب أظنه حية فلا أبالى بها لما بى من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا وسعة تفضى إلى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما وفى بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلنى إلى العمارة ثم انى وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثوراً عليه بردعة ومنجل فاذا تلك الطريق تفضى إلى قرى الكفار فاتبعت طريقا أخرى فانهضت بى إلى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما وأقمت تحت أشجار هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا فى بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفى أسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين .

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت وفى السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى فوجدت حول بئر بها أوراق فجل فأكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعانى طليعتهم فلم أجبه وقعدت الى الأرض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربنى به فلم ألتفت اليه لعظيم مابى من الجهد ففتشنى فلم يجد عندى شيئا فأخذ القميص الذى كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل بى .

ولما كان فى اليوم الثامن اشتد بى العطش وعدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع به ماء المطر فيشربون منه جميع السنة فاتبعت طريقا فافضت بى إلى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسى فى الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم ترونى فربطت خفى واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف فى البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلى بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك فبينا أنا أربطها وأفكر فى حالى إذ لاح لى شخص فنظرت اليه فاذا رجل أسود اللون بيده أبريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لى سلام

عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لى بالفارسية جيكس (جه كسى) معناه من أنت فقلت له أنا تائه فقال لى وأنا كذلك ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت ان أشرب فقال لى اصبر ثم فتح جرابه فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز فأكلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين وتوضأت أنا وصليت وسألنى عن اسمى فقلت له محمد وسألته عن اسمه فقال لى القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به ثم قال لى بسم الله ترافقنى فقلت نعم فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا فى أعضائى ولم أستطع النهوض فقعدت فقال لى ما شأنك فقلت له كنت قادرا على المشى قبل أن ألقاك فلما لقيتك عجزت فقال سبحان الله اركب فوق عنقى فقلت له انك ضعيف ولا تستطع ذلك فقال يقوينى الله لا بد لك فركبت على عنقه وقال لى أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل فأكثرت من ذلك .

وغلبتنى عينى فلم أفق إلا لسقوطى على الأرض فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا وإذا أنا فى قرية عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بى فجاء إلى فقلت له ما اسم هذه القرية فقال لى تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحملنى ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمنى طعاما سخنا واغتسلت وقال لى عندى ثوب وعمامة أودعهما عندى رجل عربى مصرى من أهل المحلة التى بكول فقلت له هاتهما ألبسهما إلى أن أصل إلى المحلة فأتى بهما فوجدتهما من ثيابى كنت قد وهبتهما لذلك العربى لما قدمنا كول فطال تعجبى من ذلك .

وفكرت فى الرجل الذى حملنى على عنقه فتذكرت ما أخبرنى به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدى حسبما ذكرناه فى السفر الأول إذ قال لى ستدخل ارض الهند وتلقى بها أخى ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه وانه من الأولياء ولم يحصل لى من صحبته إلا المقدار الذى ذكر وأتيت تلك الليلة الى أصحابى بكول معلما لهم بسلامتى فجاؤا إلى بفرس وثياب واستبشروا بى ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار عوضا من كافور المستشهد وأمرنا أن نتمادى على سفرنا ووجدتهم أيضاً قد كتبوا للسلطان بما كان من أمرى وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها على وعلى كافور وهم يريدون أن يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان فى السفر أكدت عليهم وقوى عزمى فقالوا ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنرجع اليه أو تقيم حتى يصل جوابه فقلت لهم لا يمكن المقام وحيث ما كنا أدركنا الجواب فرحلنا من كول

ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لأنه لا يلبس عليه إلا ثوباً من سرته الى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به

﴿ حكاية هذا الشيخ ﴾

وكان من أولياء الله تعالى قائماً على قدم التجرد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته الى أسفل ويذكر أنه كان اذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق على المساكين ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء ويقول لمن أخذ منه ذلك اقعد حتى ياخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها وخرج الملك الناصر إلى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الاسلام بعدها وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ انه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بابسياه ثم رحلنا مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دهلي وعليها سور عظيم وقد تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا بها وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (چوبين) صاحب كسرى وسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد سرف جهان وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه

﴿ حكاية ﴾

يذكر أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أداء فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده ان له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده ان يحلفه فبعث القاضي له فقال لرسوله بم ادعى علي فقال بعشرة آلاف دينار فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف وسلمت للمدعي وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فأعاده إلى القضاء وأعطاه عشرة آلاف وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه ان لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا منه ثم رحلنا من هذه المدينة

فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزيربور ثم بمنزل البجالصة ثم وصلنا إلى مدينة مورى (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهى صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغانى وكان بحال مرض فدعا لى وزودنى رغيف شعير وأخبرنى أن عمره ينيف على مائة وخمسين وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيراً ويكثر الاعتكاف وربما أقام فى خلوته أربعين يوما يقتات فيها بأربعين تمرة فى كل يوم واحدة وقد رأيت بدهلى الشيخ المسمى برجب البرقعى دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مرة وضبط اسمها (بفتح وسكون الراء وهاء) وهى مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهى حصينة وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها ومنها يحمل إلى دهلى وحبو به طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أر قمحاً مثله إلا بأرض الصين وتنسب هذه المدينة إلى المأمورة (بفتح اللام) وهى قبيلة من قبائل الهنود كبار الأجسام عظام الخلق حسان الصور لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة وكذا نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل ثم سافرنا إلى مدينة علابور (وضبط اسمها بفتح العين ولام وألف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو سلطان جنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذى حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك.

(حكاية)

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابرى وهى على نهر الجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الأفغانى وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور وحاصر مدينة رابرى فبعث خطاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك ونحو أربعمائة من سائر الناس وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم وهى عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما إلى السلطان ولم ينج من الكفار إلا الشريد.

(ذكر أمير علابور واستشهاده)

وكان أمير علابور بدر الحبشى من عبيد السلطان وهو من الأبطال الذين تضرب بهم

الأمثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار .

وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في اكلة وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان له ابن يدانيه في الشجاعة فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقود وتاء معلوة) حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسوا ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقى فقتله بتلك الضربة ومات فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأتوا به ولده فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا ثم سافرنا إلى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضا كيااليروهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفرة ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فاني ما رأيت أحداً قط يقتل بمحضري فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه في رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل والسباع بها كثيرة وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا وكانوا يعجبون في شأن دخوله

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها انه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد فخرج اصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه وذكروا أنه كذلك فعله بالناس ومن العجب أن بعض الناس أخبرني ان الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع ولما أخبرت بذلك أنكرته وأخبرني به جماعة ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

﴿ ذكر السحرة الجوكية ﴾

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم العجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور وسمعت ان بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم قد رفعت له طبلة وأقام باعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا ادرى كم أقام بعدى والناس يذكرون أنهم يركبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر فلا يحتاج فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب ويخبرون بامور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون والظاهر من حالهم انهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها ومنهم من ينظر إلى الانسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة انه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ويقولون أكل قلبه وأكثر ما يكون هذا فى النساء والمرأة التى تفعل ذلك تسمى كفتار

(حكاية)

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التلنك نفذ أمره ان يعطى لأهل دهلى ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم فكان عندى منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف فى دارى وأسكنتهم بها وكنت أعطيتهم نفقتهم خمسة أيام فلما كان فى بعض الأيام أتونى بمرأة منهم وقالوا انها كفتارة وقد أكلت قلب صبى كان إلى جانبها وأتوا بالصبى ميتاً فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان فأمر بإحراقها وذلك بأن ملوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها فى نهر الجون فلم تغرق فعلم انها كفتار ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار فأمر بإحراقها بالنار وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها وزعموا أنه من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر كفتار

﴿ حكاية ﴾

بعث إلى السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم فأمرنى بالجلوس فجلست فقال لهما ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه مالم يره فقالا نعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وأدركنى الوهم فوقعت على الأرض فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلاله من شكارة كانت معه فضرب بها الأرض

كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا فقال السلطان أن المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت فانصرفت عنه وأصابنى الخفقان ومرضت حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى .

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون إلى منزل أموارى ثم منزل كجرا وبه حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الأصنام قد مثل بها المسلمون وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الأربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة ، وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوى اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحو الخمسين لحفر لهم غارا تحت الأرض وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة وشأنهم كله عجب ومنهم الرجل الذى صنع للسلطان غياث الدين الدمغانى سلطان بلاد المعبر حبوبا يأكلها تقويه على الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فأعجبه فعلها فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات وولى ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكى ورفع قدره

ثم سافرنا إلى مدينة جنديرى (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين الزبيرى والفقيه العالم وجيه الدين البيانى نسبة إلى مدينة بيانه التى تقدم ذكرها والفقيه القاضى المعروف بقاضى خاصة وأمامهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكى من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر إلا فى يوم الجمعة أو فى غيرها نادراً ثم سرنا من جنديرى إلى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهى مدينة المالوة أكبر عمار تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلى وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه وما بقى له إلى المنزل وإلى المدينة التى يقصدها قرأ النقش الذى فى الأعمدة فعرفه ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذى من أهل ذيبة المهل

حكاية

كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فأحيا أرضا مواتا هنالك وصار يزدرعها بطيخا فتأتى فى الغاية من الحلاوة ليس بتلك الأرض مثلها ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى اليه هذا الشيخ بطيخا فقبله واستطابه وأقطعه مدينة ظهار وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا فضل مما كنت أطعمه الناس وبيت المال أحق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى إطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان ان يفتك بخاله ويستولى على أمواله ويسير الى القائم ببلاد المعبر فنمى خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء ورد ابن اخته اليه فقتله الوزير .

(حكاية)

ولما رد ابن اخت الوزير اليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها التنبول واطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملىء تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فاخرجت ودفن لحمه معها فى قبر واحد وسمى قبور (كور) عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة اجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربى الغرناطى الأصل ثم سافرنا من مدينه اجين إلى مدينة دولة آباد وهى المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة أقسام احدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره والقسم الثانى اسمه الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينها) والقسم الثالث قلعتها التى لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك

وما أضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها بالحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقير التى ذكرناها فى قطعة حجر فى بسيط من الأرض قد نحت وبنى بأعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون بأولادهم وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة فى جبوب بها وبهافيران ضخام أعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها ولا تصاد إلا بحيل تدار عليها وقد رأيتها هناك فعجبت منها

(حكاية)

اخبرنى الملك خطاب الافغانى انه سجن مرة فى جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران قال فكانت تجتمع على ليلا لتأكلنى فأقاتلها والقى من ذلك جهد ثم إنى رأيت فى النوم قائلا يقول لى اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما اتممتها اخرجت وكان سبب خروجى ان ملك مل كان مسجونا فى جب يجاورنى فمرض وأكلت الفيران صابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان فقال اخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضى جلال حين هزمهما السلطان واهل بلاد دولة آبادهم قبيل المرهته الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا فى الانوف والحواجب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن وكفار هذه المدينة اصحاب تجارا واكثر تجارتهم فى الجواهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه باهمال السين وهم الاكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والرمان ويثمران مرتين فى السنة وهى من اعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها واخبرت أن بعض الهنود التزام مغارمها وعمالتها جميعا وهى كما ذكرناها مسيرة ثلاثة اشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة والك مائة ألف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقى عليه بقية واخذ مالة وسلخ جلده

﴿ ذكر سوق المغنيين ﴾

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الأسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه وللدار باب سوى ذلك والحانوت مزين بالفرش وفى وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهى متزينة بأنواع الحلى وجواريها يحركن مهدها وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف وفى تلك السوق المساجد للصلاة ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغنى المغنيات بين يديه وقد فعل

ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا ثم سافرنا إلى مدينة ندربار (وضبط اسمها بنون و بذال معجم مفتوحين وراء مسكن و باء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهته وهم أهل الاتقان فى الصنائع والأطباء والمنجمون وشرفاء المرهته هم البراهمة وهم الكتريون أيضا وأ كلهم الأرز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة ولا ينكحون فى أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة اجداد لا يشربون الخمر وهى عندهم أعظم المعائب وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهى مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى ايضا صاغر كاسمها وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف .

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كنباية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهى على خور من البحر وهو شبه الوادى تدخله المراكب وبه المد والجزر وعاينت المراكب بمرساة فى الوحل حين الجزر فإذا كان المد عامت فى الماء وهذه المدينة من أحسن المدن فى اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك ان أكثر سكانها التجار الغرباء فهم ابداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون فى ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرى الذى اتفقت لى معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم أر قط اضخم من الخشب الذى رايته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازرونى وإلى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز معناه خياط الشواشى .

(حكاية)

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الأفغانى أراد شمس الدين المذكور والناخودة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذى تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا فى حفر خندق عليها إذ لا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون فى دار واحدة وخافوا أن يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا انفسهم

فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلانى وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وامره عليها وأعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنباية حين وصلنا إليها مقبل التلنكى وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان فى صحبته الشيخ زاده الاصبهانى نائبا عنه فى جميع أموره وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل فى الفرار وبلغ خبره إلى السلطان وذكر عنه أنه يروم الهروب فكتب إلى مقبل أن يبعثه فبعثه على البريد وأحضر بين يدى السلطان ووكل به والعادة عنده أنه متى وكل باحد فقلما ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه وهربا جميعاً وذكر لى أحد الثقات أنه رآه فى ركن مسجد بمدينة قلهات وانه وصل بعد ذلك إلى بلاده فحصل على امواله وآمن مما كان يخافه .

(حكاية)

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر ان جلس قاضى المدينة وهو أعور العين اليمنى وفى مقابلته شريف بغدادى شديد الشبه به فى صورته وعوره إلا أنه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضى ويضحك فزجره القاضى فقال له لا تزجرنى فانى أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى فضحك الأمير والحاضرون وخجل القاضى ولم يستطع ان يرد عليه والشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا إليه واكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضى جلال مدينة كنباية حين خلافه أنه أتاه وذكر للسلطان انه دعا له فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجه اسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمى ويزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة إلى بلد كاوى وهى على خور فيه المد والجزر من بلاد الرى جالنسى الكافر وسنذكره وسافرنا منها إلى مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء والف وراء) وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

(ذكر سلطانها)

سلطان قندهار كافر أسمه جالنسى (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الإسلام ويعطى لملك الهند هدية كل عام لما وصلنا إلى قندهار خرج إلى أستقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء الينا من عنده من كبار

المسلمين كأولاد خواجه بهره ومنهم الناخوده إبراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبنا البحر .

(ذكر ركوبنا البحر)

وركبنا فى مركب لإبراهيم المذكور تسمى الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا فى مركب لأخى إبراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون وواو مد وراء مسكن وتاء معلوة) وأعطانا جالنسى مركبا جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولده فى مركب يسمى العكيرى (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الغراب إلا أنه أوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة وكان ركوبى أنا فى الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهى خاليه وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين .

ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى الى مدينة قوقة وهى (بضم القاف الأولى وفتح الثانية) وهى مدينة كبيرة عظيمة الاسواق فرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت فى عشارى مع بعض أصحابى حين الجزر لادخل إليها فوحل العشارى فى الطين وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل فكنت لما نزلنا فى الوحل اتوكا على رجلين من أصحابى وخوفنى الناس من وصول المد قبل وصولى إليها وأنا لا أحسن السباحة ثم وصلت اليها وطفت بأسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب .

(ذكر سلطانها)

وسلطانها كافر يسمى دنكول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو فى الحقيقة عاص ولما اقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثه أيام إلى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحده وواو مد وراء) وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب وإذا كان المد فهو ملح أجاج وفى وسطها مدينتان أحداهما قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح

الأول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخوذة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري وسيأتى ذكره وذكر عند حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ان شاء الله وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجد بها أحد الجوكية .

(حكاية هذا الجوكى)

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستنداً إلى حائط بدخانة وهي بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها واتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى فدفعها لى وكانت بيدى سبحة زيلع فقلبها فى يدى فاعطيته أياها ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ثم إلى سمت القبلة فلم يفهم أصحابى اشارته ففهمت أنا عنه انه أشار انه مسلم يخفى إسلامه من أهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما ودعناه قبلت يده فانكر أصحابى ذلك ففهم انكارهم فأخذ يدى وقبلها وتبسم وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا .

وكنت آخر أصحابى خروجا فجذب ثوبى فرددت رأسى إليه فأعطانى عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى لم جذبك فقلت لهم أعطانى هذه الدنانير وأعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى وأشار الى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام وأخذ السبحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغد وصلنا إلى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) وهى على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفى أيام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة اشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه وفى يوم وصولنا اليها جاءنى أحد الجوكية من الهنود فى خلوة وأعطانى ستة دنانير وقال لى البرهمى بعثها إليك يعنى الجوكى الذى أعطيته السبحة وأعطانى الدنانير فأخذتها منه واعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف واخبرت أصحابى بالقضية وقلت لهما ان شئتما فخذا نصيبكما منها فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه وقالا لى أن الدنانير الستة التى أعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها وتركنا بين الصنمين حيث وجدناه فطال عجبى من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التى اعطانيها وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد فى البحر وقوة وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور .

وسنذكر ذلك ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقورى اضافنى بزاويته وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضى بها نور الدين عليا والخطيب لا أذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفى الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجعل احداهن خرص ذهب فى انفها ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن الكريم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ولم أر ذلك فى سواها ومعاش أهلها من التجارة فى البحر ولا زرع لهم وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته فى البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة .

(ذكر سلطان هنور)

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سنذكره والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة فى الجماعة وعادته أن يأتى إلى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر فيصلى أول وقت ثم يركب إلى خارج المدينة ويأتى عند الضحى فيركع فيه ثم يدخل فيه ثم يدخل إلى قصره وهو يصوم الأيام البيض وكان أيام اقامتى عنده يدعونى للافطار معه فاحضر لذلك ويحضر الفقيه على والفقيه اسماعيل فتوضع أربع كراسى صغار على الأرض فيقعد على أحداها ويقعد كل واحد منا على كرسى .

(ذكر ترتيب طعامه)

وترتيبه ان يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) وتأتى جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة وتجعلها فى الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا فيأكل الإنسان لقمة ويتبعها بشىء من تلك المواخ فإذا تمت الغرفة التى جعلها فى الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سكرجة فيؤكل بها الأرز أيضا فاذا تمت الغرفة الثانية وغرفت وافرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بالوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضا فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبهذا يختمون طعامهم فإذا وضع علم أنه لم يبق شىء

يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء السخن لأن الماء البارد يضربهم فى فصل نزول المطر ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كرة أخرى أحد عشر شهر الم آكل خبزا أنما طعامهم الأرز وبقيت أيضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز حتى كنت لا استسيغه الا بالماء ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشدفى وسطه فوطة ويلتحف ملحفتين أحدهما فوق الاخرى ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة وإذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال وكانت اقامتنا عندهفى هذه المرة ثلاثة أيام وزودوناوسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة والف وراء) وهى بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم والطريق فى جميعها بين ظلال الاشجار وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعدعليها كل واردوصادر من مسلم وكافر وعند كل بيت منها بئر يشرب ورجل كافر موكل بها فمن كان كافراسقاه فى الاوانى ومن كان مسلماسقاه فى يديه ولايزال يصب له حتى يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى أوانيهم فان طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين وإذا دخل المسلم موضعا منها لايكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الادام ومافضل عنه ياكلونه الكلاب والطير وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديارالمسلمين ينزل عندهم المسلمين فيبيعون منهم جميع مايحتاجون إليه ويطبخون لهم الطعام ولولاهم لما سافر فيه مسلم وهذا الطريق ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة وكل انسان بستانه على حدة وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب والطريق يمرفى البساتين فاذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخرينزل عليهاإلى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة ولاتكون الخيل الاعند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين ومن لم يستطع أن يركب ركب فى دولة مشى على قدميه كائنا من كان ومن كان له رحل أومتاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فادونها أو فوقها يحملون امتعته وبيدكل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى أعلاه مخطاف حديد فاذا أعياولم يجدد كانه يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه فاذا استراح أخذحمله من غير معين ومضى به ولم أرطريقا آمن من هذاالطريق وهم يقتلون السارق

على الجوزة الواحدة فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره إلى الحاكم فامر بعود فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذا العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا ليراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز والمسلمون أعز الناس بها غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم وفى بلاد المليبار اثنى عشر سلطانا من الكفار منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين الفا ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البته ولا يطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ويسمونه باب أمان فلان وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل الى بلاد أمان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه وإن كان القوى صاحب العدد والجيوش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون أولادهم ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوفة اهل اللثام (اللثام) وسنذكرهم فيما بعد إذا أراد السلطان من اهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء امر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشترى مادامت عليها تلك الأغصان

﴿ ذكر الفلفل ﴾

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب وهم يغرسونها إزاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالى ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالى وأوراق شجره تشبه آذان الخيل بعضها يشبه أوراق العليق ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبى قنينة إذا كانت خضراء وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر فى الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ثم يبيعونه من التجار والعامة ببلادنا أنهم يقلونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبى سرور (بفتح السين) وهى صغيرة على خور كبير كثيرة اشجار النارجيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعه المعروف بأبى ستة أحد الكرماء أنفق امواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكنور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذى لا مثل له بتلك

البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين المذكور مسجدا لإقامة الجمعة .

(ذكر سلطانها)

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحد والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو) وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمى لولا وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما ارسينا على فاكنور وبعث سلطانها إلينا ولده فأقام بالمركب كالرهينة ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه رغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلابد من إرسائه بها وإعطائه هدية إلى صاحب البلد يسمونها حق البندر ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم وادخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن السفر ماشاؤا وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة منجرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانيه) مدينة كبيره على خور يسمى خور الدنب (بضم الدال المهمل وسكون النون وياء موحدة) وهو أكبر خور ببلاد المليبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا .

(ذكر سلطانها)

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح بينهم لحاجته إلى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعى المذهب يسمى بدر الدين المعبرى وهو يقرىء العلم صعد إلينا إلى المركب ورغب منا فى النزول إلى بلده فقلنا حتى يبعث ولده يقيم بالمركب فقال إنما يفعل ذلك سلطان فاكنور لأنه لا قوة للمسلمين فى بلده وأما نحن فالسلطان يخافنا فأبينا عليه إلا أن بعث السلطان ولده كما فعل الآخر ونزلنا إليهم فأكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عنده ثلاثة أيام ثم سافرنا الى مدينة هيلى فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء مدولام مكسور) وهى كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار وإلى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين لاتدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط ومدينة هيلى معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فإنه عظيم البركة مشرق النور وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيت بهذا

المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو يسمى سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكر أنه جاور بمكة أربع عشر سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الأمير بمكة ابا نمى والأمير بالمدينة منصور ابن جماز وسافر فى بلاد الهند والصين ثم سافرنا من هيلى مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون) وبينه وبين هيلى ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصرى نسبة الى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد فى طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التى عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار أوصى اليه بهم وتركته آخذا فى حملهم الى بغداد وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف انما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعا

(ذكر سلطانها)

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف على لفظ التصغير) وهو من أكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن ومن بلاده فتن وبدفتن وسنذكرهما وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهى مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم أر فى البلاد أكثر منه ولا أرخص ثمنا وفيها الباين الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر فى كل قبة أربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات فى كل طبقة أربع مجالس وذكر لى أن والد هذا (س) كويل هو الذى عمر هذا الباين وبازائه مسجد جامع المسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد والباين أيضا هو أحد أجداد كويل وانه كان مسلما ولاسلامه خبر عجيب نذكره .

(ذكر الشجرة العجيبة الشأن التى بازاء الجامع)

ورأيت أنا بازاء الجامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين الا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) واخبرت هنالك أنه اذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد

رسول الله وأخبرنى الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرؤا المكتوب الذى فيها وأخبرنى أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها فى خزانة (س) الكافر وهم يستشفون بها للمرضى وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذى عمر المسجد والباين فإنه كان يقرأ الخط العربى فلما قرأها وفهم مافيها أسلم وحسن إسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثنى الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ثم نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعا ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن وهى مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوى إليه غرباء المسلمين لأنه لامسلم بهذه المدينة ومرساها من أحسن المراسى وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون فى المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

﴿ حكاية ﴾

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار فى بيته فاحرق هو وأولاده ومتاعه فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن إلى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحة وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات فى كل محلة مسجد وفى الجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثانى وآخره طاء مهمل) وهى إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطانها كافر يعرف بالسامرى شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها وسنذكره إن شاء الله وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون فى سماطه وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى وله تعطى النذور التى ينذر بها أهل الهند والصين

للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به وبهذه المدينة الناخودة مثقال الشهير الاسم صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا ابراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب (س) الكافر والمسمى بقلاج (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها

﴿ ذكر مراكب الصين ﴾

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة اسمها الزو (بفتح الزاي وواو) والصغار اسم أحدها الككم (بكافين مفتوحتين) ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا فما دونها إلى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة أذرع فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش الأسفل ودفعوهما في البحر وأتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيه البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا اذا وصلا بعض البلاد والبحرية يسكنون فيه أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب ووكيل المركب كأنه أمير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب

والسيوف والاطبال والابواق والانفار امامه وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة إقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلى البلاد وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين

﴿ ذكر أخذنا من السفر إلى الصين ومنتهى ذلك ﴾

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكا من الجنوك الثلاث عشر التي بمرسى قالقوط وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي وبيني وبينه معرفة فقلت له أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لأجل الجواري ومن عادتي ان لا أسافر إلا بهن فقال ان تجار الصين قد أكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ولصهري مصرية أعطيتها لكنها لا سنداس فيها وعسى ان تمكن معاوضتها فأمرت أصحابي فاوسقوا ما عندي من المتاع وصعد العبيد والجواري إلى الجنك وذلك في يوم الخميس وأقمت لاصلي الجمعة وألحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم ان فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال ان المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك للناخودة فقال ليست في ذلك حيلة فإن أحببت ان تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك فقلت نعم وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة هذا البحر ان يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية وجنك عزم أصحابه على ان يشتوا بفندرينا والككم المذكور فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم ولا يستطيع من فيه النزول الينا ولم يكن بقي معي إلا بساط افترشه وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى ورمى البحر بالجنك الذي كان اهله يريدون فندرينا فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في أعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فأخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير وقال إنما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفناهما ورأيت الكافر سلطان قالقوط في وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه في الساحل وزبانيته

يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمى البحر وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا فى هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رأى أهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارى وبقيت منفردا على الساحل ليس معى إلا فتى كنت أعتقته فلما رأى ما حل بى ذهب عنى ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير التى اعطانيها الجوكى والبساط التى كنت افترشه واخبرنى الناس ان ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر إليها وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر أيضاً لمن أراد ذلك فسافرت فى النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لى البساط وعادتهم إذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى فيبيتوا بالقرى التى على حافتيه ثم يعودوا إلى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذى اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد على فيزيد خاطرى ووصلنا فى اليوم الخامس من سفرنا الى كنجى كرى (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهى باعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

﴿ ذكر القرفة والبقم ﴾

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهى حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق وفى اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهى أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصوليين (بضم الصاد) لهم أموال عريضة يشترى أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجى من أهل آواة من بلاد العراق وهو رافضى ومعه اصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيها فاضل من أهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهزب وهذه المدينة أول ما يوالى الصين من بلاد المليبار واليها يسافر أكثرهم والمسلمون بها اعزة محترمون

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو كافر يعرف بالتيرورى بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء وواو مفتوحين وراء مكسورة وياء) وهو معظم للمسلمين وله أحكام شديدة على السراق والدعار

﴿ حكاية ﴾

ومما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الاوجى وكان له مال كثير واراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتى تدفعوا

لناقاتله فيقتل به وتركوه فى تابوته على باب الأوجى حتى أنتن وتغير فكنهم الأوجى من القاتل ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حياً فأبوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول

﴿ حكايه ﴾ أخبرت أن (س) كولم ركب يوماً إلى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحده من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان (س) ينظر اليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

(حكاية)

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفاً لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك إلى ابن عمه فوعده بالنظر فى أمره وقعد على باب داره فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لأعوانه امسكوه ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرونى شيخ زاوية قالقوط فلم أتعرف للككم خبراً وفى أثناء مقامى بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا وكانوا مع احد تلك الجنود فانكسرا يضا فكساهم تجار الصين ودعادوا إلى بلادهم ولقيتهم بها بعد وأردت أن أعود من كولم الى (س) لأعلمه بما اتفق على الهدية ثم خفت أن يتعقب فعلي ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة الى (س) جمال الدين الهنورى وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الككم فعدت الى فالقوط ووجدت بها بعض مراكب (س) فبعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن وهو من البرددارية وهم خواص البوابين بعثه (س) بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته فى العرب فتوجهت إلى هذا الأمير ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر الى بلاد العرب فشاورته فى العودة الى (س) فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من فالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسوا الى الغد ولقينا فى طريقنا أربعة أجفان غزو يه فخفنا منها ثم لم يتعرضوا لنا بشر ووصلنا الى مدينة هنور فنزلت الى (س) وسلمت عليه فأنزلني بدار ولم يكن لى خديم وطلب منى أن أصلى معه الصلوات فكان اكثر جلوسى فى مسجده وكنت أختم القرآن كل يوم ثم كنت أختم مرتين فى اليوم أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال واجدد الوضوء وابتدىء القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت فيها أربعين يوما

(ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور)

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف فكتب ولده الى (س) جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه (س) أخته فلما تجهزت المراكب ظهر لى أن أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان فى أول الصفح يذكر فيه اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك واتى (س) الى صلاة العصر فقلت له إنى أريد السفر فقال فأنت إذا تكون أميرهم فأخبرته بما خرج لى فى أول الصفح فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وأنا معه وذلك فى يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة فلما أصبح ضربت الطبول والانفار والابواق وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بقربة من (س) ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبأيديهم الترسة والسيوف ونزل (س) الى العكيرى وهو شبه الشلير ورميت بنفسى فى الماء فى جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحتى المواخر فيها الخيل وهى بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج ففعلوا ذلك واذن الله فى فتحها وأنزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم ثم أن (س) أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم ببعض المدينة وسكن (س) القصر وأعطى الديار بمقربة منه لاهل دولته واعطانى جارية منهن تسمى بلمكى فسميتها مباركة واراد زوجها فداءها فابيت وكسانى فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الاولى الى منتصف شعبان وطلبت منه الاذن فى السفر فأخذ على العهد فى العودة اليه وسافرت فى البحر إلى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلى ثم الى جرفتن ردهفتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهى بالشين المعجم والف ولام وياء آخر الحروف والف وتاء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها وأقمت بها فطال مقامى فعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لى بالكم فأخبرانى ان الجارية التى كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطرى توفيت وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى واستولت الأيدى على المتاع وتفرق أصحابى إلى الصين والجاوة وبنجالة فعدت ولما تعرفت هذا إلى هنور ثم الى سندابور فوصلنها فى آخر المحرم واقمت بها

الى الثانى من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانهم الكافر الذى دخلنا عليه برسم أخذها وهرب اليه الكفار كلهم وكانت عساكر (س) متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت إلى قالقوط وعزمت على السفر الى ذيبه المهل وكنت اسمع باخبارها فبعد عشر أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبه المهل وديبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهى نحو الفى جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لاتدخل المراكب الا منه وإذا وصل المركب الى احداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر وهى من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل التى باحداها عند الخروج من الاخرى فان اخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر او سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهى منقسمة الى اقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبى ومن أقاليمها اقليم بالبور (وهو بباءين معقودتين وكسر اللام وآخره زاء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب (بفتح التاء المعلوة واللام والف ودال مهمل وباء مدوباء موحدة) ومنها اقليم كرايدو (بفتح الكاف وسكون الياء المسفوله وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم التيم (بفتح التاء المعلوة او سكون الياء المسفوله) ومنها اقليم تلدمتى (بفتح التاء المعلوة الاول واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخرى وياء ومنها اقليم هلدمتى وهو مثل اللفظ الذى قبله الا ان الهاء أوله ومنها اقليم برويدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم كندكل (بفتح الكافين والدال المهمل وواو (ومنها اقليم ملوك (بضم الميم ومنها اقليم السويد (بالسين المهمل) وهو اقصاها وهذه الجزائر كلها لازرع بها الا ان فى اقليم السويد منها زرعا يشبه انلى ويجلب منه الى المهل وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا زفرله انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه اربع قطع وطبخوه يسيرا ثم جعلوه فى مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه أكلوه ويحمل منها الى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

(ذكر أشجارها)

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره

وأشجار النار جيل شأنها عجيب و تثمر النخل منها اثنى عشر عذقا فى السنة يخرج فى كل شهر عذق فتكون بعضها صغيرا و بعضها كبيرا و بعضها يابسا و بعضها أخضر هكذا أبدا و يصنعون منها الخليت والزيت والعسل حسبما ذكرنا لك فى السفر الاول و يصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذى يغتذون به قوة عجيبة فى الباءة لا نظير لها ولاهل هذه الجزائر عجب فى ذلك ولقد كان لى بها اربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم و أبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة و نصف اخرى على ذلك ومن أشجارها الجوح و الاترج و الليمون و القلقاص وهم يصنعون من اصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية و يطبخونها بحليب النارجيل وهى من اطيب طعام كنت استحسنها كثيرا و آكلها

(ذكر اهل هذه الجزائر و بعض عوائدهم وذكر مساكنهم)

وأهل هذه الجزائر اهل صلاح وديانة وايمان صحيح و نية صادقة أكلهم حلال دعاؤهم مجاب واذا رأى الانسان احدهم قال له الله ربى و محمد نبيى و أنا أمى مسكين وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من اخذ لهم شيئا اصابته مصيبة عاجلة وإذا اتت اجفان العدو الى ناحيتهم اخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يتعرضوا لاحد منهم بسوء وان اخذ احد الكفار ولو ليمونة عاقبه امير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولو لا هذا لكانوا اهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة واكثر عماراتهم بالخشب وهم اهل نظافة وتنزه عن الاقذار واكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها و يتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشوا ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امرأة الى زوجها او ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه و يدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان (بكسر الواو وسكون اللام وياء وهى شبه الاحاريم و بعضهم يجعل عمامة و بعضهم منديلا صغيرا عوضا منها واذا لقى احدهم القاضى او الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب

القطن من باب دارها إلى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه وكذلك عادتهم في السلام على (س) عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسنذكره

وبناؤهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات لأن أرضهم ندية وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (بفتح اللام) يجلس الرجل مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الوالج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار فالماشي بها كأنه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة (بضم الكاف والدال) وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكرنبة وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشتري وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي

من القطن ويحملون منها أوانى النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل إلى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر وصرف أهل الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه فى البحر ويضعونه فى حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثنى عشر الفا منه الكتى (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة) ويسمون المائة الف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل) ويباع بها بقيمة أربعة بساتى بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتى منه بدينار ويبيعونه من اهل بنجالة بالارز وهو ايضا صرف اهل بلاد بنجالة ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان فى رايته يباع بمالى وجوجو بحساب الف وخمسين للدينار الذهبى

(ذكر نسائها)

ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطى راسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس اكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى اسفل وسائر اجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان اقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم استطع ذلك فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة فى خصومة إلا مسترة الجسد وماعدا ذلك لم تكن عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لى جوار كسوتهن لباس اهل دهلى يغطين رؤسهن فعابهن ذلك اكثر مما زانهن اذلم يتعودنه وحليهن الاساور وتجعل المرأة منها جملة فى ذراعها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهى من الفضة ولا يجعل اساور الذهب الا نساء السلطان واقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل (بباء موحدة والف وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسد (بالباء الموحدة وسكن السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب افعالهن انهن يؤجرن انفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستاجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله اكثر

بناتهم فتجد فى دار الإنسان الغنى منهن العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج اليها العدد الذى هى مرتهنة فيه فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها ويبقى عليها للاخرين واكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمى صداقا إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فاذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها بل هى تأتيه بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معى بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تاكل معى ولا استطعت ان أراها تاكل ولا نفعتنى حيلة فى ذلك .

﴿ ذكر السبب فى إسلام هذه الجزائر ﴾

﴿ وذكر العفاريت من الجن التى تضربها فى كل شهر ﴾

حدثنى الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمنى والفقيه المعلم على والقاضى عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن يأتى ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكراً فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة وهى بيت الأصنام وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر اليه ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطى بنته ثم أنه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرى وكان حافظاً للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن فى مأتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها أبو البركات أنا أتوجه عوضا من بنتك بالليل وكان سناطا لا لحية فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى بدخانة وهو متوضىء وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربى يتلوا فمضوا به إلى ملكهم وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم

وضم النون وواو وراء وألف وزاي وهاء) وأعلموه بخبره فعجب وعرض المغربي عليه الإسلام ورغبه فيه فقال له أقم عندنا إلى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت فاقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فاسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر إلى بدخانة ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الأصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا إلى سائر الجزائر فاسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبنى مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذ كان إسلامه بسببهم فسمي على ذلك حتى الآن بسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام .

ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شاني إذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤسهم المصاحف والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس فعجبت من فعلهم وقلت ما شانكم فقالوا ألا تنظر إلى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوء سرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرة في الشهر فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا .

﴿ ذكر سلطانة هذه الجزائر ﴾

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي وكان الملك لجدها ثم لأبيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه وغلب عليه وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى علي كلكم ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف الى حرم أهل دولته وخواصه بالليل فخلعوه لذلك ونفوه الى اقليم هلدتني وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الأمر وقدم ولده محمداً للخطابة عوضا منه ولكن الأوامر

إنما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الأوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون فى الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى الى المشور وهم يسمونه الدار فلابد له أن يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمى باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمى بالثانى وجندها نحو الف نفر من الغرباء وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم الى الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم بانا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتى أيضا الى الدار كل يوم القاضى وأرباب الخطط وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون

﴿ ذكر أرباب الخطط وسيرهم ﴾

وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطانة كلكى (بفتح الكاف الأولى واللام) ويسمون القاضى فندرياقالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف والف وراء وقاف والف ولام مضموم) وأحكامهم كلها راجعة الى القاضى وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره كأمر السلطان وأشد ويجلس على بساط فى الدار وله ثلاث جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة جراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هنديجرى (بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفاملدارى (بفتح الفاء والميم والدال المهمل) واسم صاحب الأشغال مافاكلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) واسم الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلوة وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) واسم قائد البحر مانايك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر إنما يحبس أرباب الجرائم فى بيوت خشب هى معدة لأمتعة التجار ويجعل أحدهم فى خشبة كما يفعل عندنا بأسارى الروم

﴿ ذكر وصولى إلى هذه الجزائر وتنقل حالى بها ﴾

ولما وصلت اليها نزلت بجزيرة كنلوس وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها وأضافنى بها الفقيه على وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم لقيت بها

رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحموض فأضافني وقال لي ان دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فانهم لاقاضي عندهم وكان غرضي ان أسافر منها إلى المعبر وسرنديب بنجالة ثم إلى الصين وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري وهو من الحجاج الفضلاء.

ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجها فأردت السفر معه فقال لاتسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فأبيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد الينا بعد أربعة أيام وقد لقي شدائد فاعتذر لي وعزم علي السفر معه بأصحابي فكنا نرحل غدوة فنزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنبيت بأخرى .

ووصلنا بعد أيام الى اقليم التيم وكان الكرودى يسمى بها هلالا فسلم علي وأضافني وجاء إلي ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عليهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فأخبرت انهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال ورسلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فأكرمنا وأضافنا وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة الوزير ويقال له التلمذي وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها وأرسينا بمرساها وعادتهم ان لاينزل أحد من المرسى إلا باذنهم فأذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه إلى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل وقالوا لابدمن الدخول إلى الوزير .

وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني لا أعرفه خوفا من امساكهم إياي ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبري واني كنت قاضيا بدهلي فلما وصلت إلى الدار وهو المشهور ونزلنا في سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة ابراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمى بثوب منها ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر ورمى بجميعها وسئل عني فقال لا أعرفه ثم أخرجوا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث الينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرز وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليماني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير إلى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القرباني (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والفاء ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر وأتوا بمائة ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء

من العرب والعجم يعرفونى فعرفوا خدام الوزير بامرى فزاد اغتباطى وبعث عنى عند استهلال رمضان فوجدت الأمراء والوزراء وأحضر الطعام فى موائد يجتمع على المائدة طائفة فاجلسنى الوزير إلى جانبه ومعه القاضى عيسى والوزير الفاملدارى والوزير عمر دهرى ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاويه وهو يهضم الطعام وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند (س) شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منها لصغرها فردها أبوها الداره وأعطانى دارها وهى من أجمل الدور واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فاذن لى فى ذلك وبعث إلى خمسا من الغنم وهى عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والابازير فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك فطبخ لى بها فاحسن فى طبخه وزاد فيه وبعث الفرش وأوانى النحاس وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لى وأنا أحضر أيضا فشكرته وانصرفت إلى دارى فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس فى قبة خشب مرتفعة وكان كل من يأتى من الامراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء وقدم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم أخذوا فى السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤنها بالاقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت

(ذكر بعض إحسان الوزير إلى)

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لى الوزير هذا البستان لك وسأعمر لك فيه دارا لسكناك فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لى من الغد بجاريه وقال لى خديمه يقول لك الوزير ان اعجبتك هذه هى لك وإلا بعثت لك جارية مرهتيه وكانت الجوارى المرهتيات تعجبنى فقلت له إنما أريد المرهتية فبعثها لى وكان اسمها قل استان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسى فاعجبتنى واهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه ثم بعث الى فى غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير الى بعد العشاء الاخيرة فى نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسألنى عن حالى فدعوت له وشكرته فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهى شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر

فاعطانى ذلك وقال لى لو بعثته لك مع الجارية لقالت هو مالى جئت به من دار مولاى والآن هو مالك فاعطه إياه فدعوت له وشكرته وكان اهلا للشكر رحمه الله

(ذكر تغيره وما اردته من الخروج ومقامى بعد ذلك)

وكان الوزير سليمان ما نايك قد بعث إلى أن تزوج بنته فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا فى ذلك فعاد الى الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عدتها فابيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابتنى ذلك حمى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحم فقوى عزمى على الرحلة عنها فبعت بعض الحلى بالودع واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلى القاضى فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما أعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلى اشتريت به الودع فشانكم وإياه فعاد الى فقال يقول انما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع فقلت له أنا أبيعه وآتيكم بالذهب فبعث الى التجار ليشتروه منى فامرهم الوزير أن لا يفعلوا وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه ثم بعث الى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت فى نفسى أنا تحت حكمهم وان لم أقم مختارا أقمت مضطرا فالاقامة باختيارى أولى وقلت لرسوله نعم أنا أقيم معه فعاد اليه ففرح بذلك واستدعانى فلما دخلت اليه قام الى وعانقنى وقال نحن نريد قربك وانت تريد البعد عنا فاعتذرت له فقبل عذرى وقلت له ان أردتم مقامى فانا اشترط عليكم شروطا فقال نقبلها فاشترط فقلت له انا لا استطيع المشى على قدمى ومن عادتهم ان لا يركب احد هنالك الا الوزير ولقد كنت لما أعطونى الفرس فركبته يتبعنى الناس رجالا وصبيانا يعجبون منى حتى شكوت له فضربت الدنقرة وبرح فى الناس ان لا يتبعنى احد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح فى الناس بما يراد فقال لى الوزير ان أردت أن تركب الدولة والا فعندنا حصان ورمكة فاختر ايهما شئت فاخترت الرمكة فاتونى بها فى تلك الساعة وأتونى بكسوة فقلت له وكيف اصنع بالودع الذى اشتريته فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة فقلت له على ان تبعث انت من يعينه على ذلك فقال نعم فبعث حينئذ رفيقى ابا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصارى والقربة واقاموا ست عشرة ليله لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد

وقدم على صاحبي أبو محمد بعدسنة وقدزار القدم وزارهامرة ثانية معي

﴿ ذكر العيد الذى شاهدته معهم ﴾

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الى بكسوة وخرجنا الى المصلى وقدزينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتاتى الودع يمنة ويسرة وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النار جيل وأشجار الفوفل والموز ومدمن شجر الى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الأخضر ويقف صاحب الدار عند بابها فاذا أمر الوزير رمى على رجليه ثوب من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده من الودع الذى يجعل على طريقه أيضا والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفى رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه والعساكر أمامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى فخطب ولده بعد الصلاة ثم اتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب فى المحفة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسى ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والامراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصى ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصرى فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السرذين مملوحا غير مطبوخ أهدى لهم من كولم وهو من بلاد المليبار كثير فأخذ الوزير سرذينة وجعل يأكلها وقال لى كل منه فانه ليس ببلادنا فقلت كيف آكله وهو غير مطبوخ فقال انه مطبوخ فقلت انا اعرف به فانه ببلادى كثير

﴿ ذكر تزوجى وولايتى القضاء ﴾

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فأجاب الى ذلك وأحضر التنبول على العادة والصندل وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعى فلم يأت ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت فقال لى الوزير سرا أن بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج ربيبة (س) زوجة أبيها وهى التى ولده متزوج بنتها فقلت له نعم فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الى بعد أيام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت اذا تزوجت عليها تطيبنى

و تبخر اثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها اكرهني الوزير على القضاة وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على اربابها فقلت له إنما لك اجرة تتفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيئا فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك واتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق واخرجت النساء عنهم ثم اشتددت في اقامة الصلوات وامرت الرجال بالمبادرة الى الازقة والاسواق اثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته والزمت الأئمة والمؤذنين اصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت ان اكسو النساء فلم اقدر على ذلك

﴿ ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذي نفاه (س) شهاب الدين ﴾
﴿ الى السويد وما وقع بيني وبينه ﴾

كنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته واحببتها حبا شديدا ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعث له التحف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وانزله في دار جيدة فكنت ازوره بها واتفق ان اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس الاهو وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى اخوال زوجتي ربيبته اولاد الوزير جمال الدين السنجري فان أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله وأن مالهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجلس الحكم وكانت عادتي اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغد مكتوبة فعندما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعي والاعاقبته فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقدها لي وأضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه وبلغني عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم ان يوصلوا السبابة الى الأرض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادي فنادى بدار (س) على رؤس الاشهاد انه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد واخذت عليه ان لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت ايضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده (س) داود حفيد (س) احمد شنوازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت (س) شهاب الدين وعمرت

ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير وكانت الرابعة هى ربيبة الوزير عبد الله تسكن فى دارها وهى أحبهن إلى قلما صاهرت من ذكرته هابنى الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا منى لأجل ضعفهم وسعوا بينى وبين الوزير بالنمائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة .

﴿ ذكر انفصالى عنهم وسبب ذلك ﴾

واتفق فى بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان الذى شكته زوجته إلى الوزير وأعلمته أنه عند سريه من سرارى السلطان يزنى بها فبعث الوزير الشهود دخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوهما فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت إلى المشور وجلست فى موضع جلوسى لم أتكلم فى شىء ومن أمرها فخرج إلى بعض الخواص فقال يقول لك الوزير ألك حاجة فقلت لا وكان قصده أن أتكلم فى شأن السرية والغلام إذ كانت عادتى أن لا أقطع قضية الا حكمت فيها فلما وقع التغير والوحشه قصرت فى ذلك فانصرفت الى دارى بعد ذلك وجلست بموضع الأحكام فاذا ببعض الوزراء فقال الوزير يقول لك أنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغى الحكم أن يكون فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس وأحضرت السرية والغلام فأمرت بضربهما فى الخلوة وأطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى دارى فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريح الغلام فقلت لهم أتشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاه وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقصبان الخيزران وهى أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفى عنقه حبل فذهبوا الى الوزير فأعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عنى فجئته وكانت عادتى أن أخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه فكلمنى الوزير فصعدت وقعدت بموضع أقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب وأذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون انى سلطان وها أنا ذا طلبته لاغضب عليه فغضب على وانما كان اعتزازى عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحققوا امكانتى عنده وان كانوا على بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن فلما دخلنا الى داره بعث الى القاضى المعزول وكان جرىء اللسان فقال لى أن مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت أخدم له حين كان قلبى له طيبا فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هى السلام وقد سلمت فبعثه الى ثانية فقال انما غرضك الرحيل عنا فاعط صدقات النساء

وديون الناس وانصرف إذ شئت لخدمت له على هذا القول وذهبت إلى وارى فخلصت مما على من الدين وقد أعطانى فى تلك الأيام فرش دار وجهازها من أوانى نحاس وسواها وكان يعطينى كل ما أطلبه ويحبنى ويكرمنى ولكنه غير خاطره وخوف منى فلما عرف أنى قد خلصت الدين وعزمت على الرحيل ندم على ما قاله وتلكأ فى الأذن لى فى الرحيل فحلفت بالايمان المغلظة أن لا بد من رحيلى ونقلت ما عندى إلى مسجد على البحر وطلقت احدى الزوجات وكانت احداهن حاملا فجعلت لها اجلا تسعة أشهر أن عدت فيها وإلا فأمرها بيدها وحملت معى زوجتى التى كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك وزوجتى الأولى التى بنتها أخت السلطانة وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على أن أمضى إلى بلاد المعبر وكان ملكها سلفى فآتى منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه وأنوب عنه فيها وجعلت بينى وبينهم علامة رفع أعلام بيض فى المراكب فإذا رأوها ثاروا فى البحر ولم أكن حدثت نفسى بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير وكان الوزير خائفا منى يقول للناس لا بد لهذا أن يأخذ الوزارة إما فى حياتى وإما بعد مماتى ويكثر السؤال عن حالى ويقول سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها على وكان يخاف من سفرى لئلا آتى بالجيوش من بلاد المعبر فبعث إلى أن أقيم حتى يجهز لى مركبا فأبيت وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معى فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها أن جميع ما عندك من الحلى هو من مال البندر فان كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك وإلا فرده وكان حليا له خطر فردته اليهم وأتانى الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا منى الرجوع فقلت لهم لولا أنى حلفت لعدت فقالوا تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك وتعود فقلت لهم نعم ارضاء لهم فلما كانت الليلة التى سافرت فيها أتيت لوداع الوزير فعانقنى وبكى حتى قطرت دموعه على قدمى وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا أن يثور عليه اصهارى وأصحابى ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير على فأصابت زوجتى أوجاع عظيمة وأحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده وطلقت التى كنت ضربت لها الأجل وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا تلك الجزائر من إقليم الى إقليم

﴿ ذكر النساء ذوات الثدى الواحد ﴾

وفى بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدى واحد فى صدرها ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدى واحد والأخرى ذات ثديين الا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن ووصلنا الى جزيرة من تلك الجزائر ليس بها الا

دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد وتخيلات نار جيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر وفى جزيرته أيضا شجيرات مور ولم نرا فيها من طيور البر غير غرابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لى فانقطعت فيها الى أن يأتينى اليقين ثم وصلت إلى جزيرة ملوك حيث المركب الذى للناخوذة ابراهيم وهو الذى عزمت على الرحيل فيه إلى المعبر فجاء إلى ومعه أصحابه وأضافونى ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لى أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة وهى الودع وعشرين قدحا من الأطوان وهى عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك فى كل يوم وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين وهى من أحسن الجزائر وخضرة نضرة رأيت من عجائبها أن الغصن يقتطع من شجرها ويركز الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول مافى السنة وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة ابراهيم أن ينهبهم عند سفره فأرادوا أمساك مافى مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا إلى المهل ولم ندخلها وكتبت إلى الوزير معلما بذلك فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح وعدنا الى ملوك وسافرنا منها فى نصف ربيع الثانى عام خمسة وأربعين وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله وكانت السلطانة حاملا منه فولدت أثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحو تسعة أيام وفى التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا فى السماء كأنه عمود دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس فى بلاد السلطان الذى يدخل التجار الى بلاده آمنين انما هذا مرسى فى بلاد السلطان ايرى شكروتى وهو من العتاة المفسدين وله مراكب تقطع فى البحر فخفنا أن ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت للناخوذة نزلنى الى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان ففعل ذلك وأنزلنى بالساحل فأتانا الكفار فقالوا ما أنتم فأخبرتهم أنى سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذى فى هذا المركب هدية له فذهبوا الى سلطانهم فأعلموه بذلك فاستدعانى فذهبت له الى مدينه بطالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها) وهى حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة تأتى بها السيول فتجمع بالساحل كأنها الروابى ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن الا أنهم يهدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيره يوم وليلة وبها أيضا من

خشب البقم كثير ومن العود الهندى المعروف بالكلخى إلا أنه ليس كالقمارى والقاقلى وسنذكره

﴿ ذكر سلطان سيلان ﴾

واسمه ايرى شكروتى (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوى فى البحر رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت الى هنالك وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصه فيها قالوا إنا جئنا لحماية مراكب لنا تسير أيضا الى اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الى وأجلسنى الى جانبه وكلمنى بأحسن كلام وقال ينزل أصحابك على الأمان ويكونون فى ضيافتى الى أن يسافروا فإن سلطان المعبر بينى وبينه الصحبة ثم أمر بانزالى فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسى ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لى هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى جئت منها فقلت له نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التى لابن السواملى فقال سمعت بها ثم أخذت منه حبات فقال أيكون فى تلك الجزيرة مثل هذه فقلت له رأيت ماهو دونها فأعجبه ذلك وقال هى لك وقال لى لا تستحى واطلب منى ماشئت فقلت له ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة الا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) قال هذا هين نبعث معك من يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذى جئت به يسافر امنا إلى المعبر واذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لى لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك فأخبرت السلطان بذلك فقال يقيم فى ضيافتى حتى تعود فأعطانى دولة تحملها عبيده على أعناقهم وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد واما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعه من قصب الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلى (وضبط ذلك بفتح الميم والنون وألف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء)
مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان اضافنا اهلها ضيافة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها احياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن

وليس بالمدينة مسلما غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه فسافرمعنا ورحلنا إلى بتلاوات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل واللام والواو والف وتاء معلوة) بلدة صغيرة وسافرنا منها فى أوعار كثير المياه وبها الفيلة الكثيرة إلا انها لا تؤذى الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ أبى عبد الله ما ذكرنا فى السفر الاول من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم وهم الى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الاول وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء) وهى حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها فى خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت لان الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش (بشينين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الادلاء اولاده وغلمانه وسبب قطعه أنه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة ذبح كمثلها أو جعل فى جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله واعطوه مجبى بعض الاسواق

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) وعنده الفيل الابيض ولم أر فى الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه فى الاعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة واتفق له ان قام عليه اهل دولته وسملوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك اعمى

﴿ ذكر الياقوت ﴾

والياقوت العجيب البهرمان إنما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت فى جميع مواضعها وهى متملكة فيشترى الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد أحجاراً بيضاء مشعبة وهى التى يتكون الياقوت فى اجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه الاحمر ومنه الأصفر ومنه الازرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف) وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فنم (بفتح الفاء والنون)

فهو للسلطان يعطى ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمه فهو لأصحابه وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القائد من الياقوت الملون ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضاً من الاسورة والخلاخيل وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ورأيت عند السلطان ايرى شكروتى سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود فجعلت أعجب منها فقال ان عندنا ما هو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم اسطا محمود اللورى (بضم اللام) وكان من الصالحين واحتفر تلك المغارة فى سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعرف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاى ونون وهاء) وبوزنه هى القرود

﴿ ذكر القرود ﴾

والقرود بتلك الجبال كثيرة جداً وهى سود الالوان لها أذناب طوال ولذكورها لحى كما هى للادميين وأخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق الاشجار يتوكأ على عصى ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود ولها عصى بايديها وانه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه وتاتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتاتى القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الاربعة فتنصرف القرود كلها ثم يأتى كل فرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم واولاده والقرود الاربعة واخبرنى بعض الجوكية انه رأى القرود الاربعة بين يدى مقدمها وهى تضرب بعض القرود بالعصى ثم نتفت وبره بعد ضربه وذكر لى الثقات انه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها وأخبرنى بعض أهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين اعطاهما لسلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه فى السفر الاول ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا إلى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف) وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك

﴿ ذكر العلق الطيار ﴾

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه لزلو (بضم الزاى واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التى تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليه فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويحردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معه لذلك ويذكر ان بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فاظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فنزف دمه ومات وكان اسمه باباخوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى وهنالك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا اليه السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر ثم مغارة الاصفهانى وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل اى بابه

﴿ ذكر جبل سرنديب ﴾

وهو من اعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسعة ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل قد حال بيننا وبينه وبين رؤية اسفله وفيه كثير من الاشجار التى لا يسقط لها ورق والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفى الجبل طريقان الى القدم احدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم فمن لم يزر واما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفى اسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب ايضا للاسكندر وعين ونحت الاولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها اوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهى عشر سلاسل ثنتان فى اسفل الجبل الى حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هى سلسة الشهادة لان الانسان إذا وصل اليها ونظر إلى اسفل الجبل ادركه الوهم خوف السقوط ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملة ومن السلسلة العاشر إلى مغارة الخضر سبعة اميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه ايضا ملاى بالحوت ولا يصطاده احد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبتى الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ماعندهم ويصعدون منها ميلين إلى اعلى الجبل حيث القدم

(ذكر القدم)

واثر القدم الكريمة قدم ابينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها احد عشر

شبراوأتى اليها أهل الصين قديمافقطعوا من الصخرة موضع الابهام ومايليه وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون ويقصدونها من اقصى البلاد وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفارفيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لاخذما بالحفر ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب اعطيناها الدليل والعادة ان يقيم الزاور بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا

ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق مالأ فنزلنا بمغارة شيم وهو شيث ابن آدم عليهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبر كاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دلدينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مدو نون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح وهنالك(كان) يشتى الشيخ أبو عبدالله بن خفيف وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل وعند أصل الجبل فى هذا الطريق درخت روان ودرخت هى (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والف ونون) وهى شجرة عاديه لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراه بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين اسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهى بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهم اكاذيب فى شانها من جملتها ان من اكل من اوراقها عاد له الشباب ان كان شيخا ذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم مذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مدونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عيظمه على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة فيها نحو الف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجابيها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها ياكلون ذلك والصنم من ذهب على قدر الآدمى وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان اخبرت انهما تضيئان بالليل كالقنديل ثم رحلنا الى مدينة قالى (بالقاف وكسر اللام) وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه

ورحلنا إلى مدينة كلنبو (بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب واكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة ايام الى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا إلى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم فى انتظارى فسافرنا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ثم دخلنا بحراً قصيراً فنجلس المركب ورأينا الموت عيانا ورمى الناس بما معهم وتوادعوا وقطعنا صارى المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البحر فرسخان فأردت ان انزل فى المعدية وكان لى جاريتان وصاحبان من اصحابى فقال اتنزل وتتركنا فآثرتهما على نفسى وقلت انزلا أنتما والجارية التى احبها فقالت الجارية انى احسن السباحة فأتعلق بحبل المعدية واعوم معهم فنزل رفيقاى واحدهما محمد بن فرحان التوزرى والآخر رجل مصرى والجارية معهم والأخرى تعوم وربط البحرية فى المعدية حبالا وسبحوا بها وجعلت معهم ما عز على من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا إلى البر سالمين لأن الريح كانت تساعدهم وأقمت بالمركب ونزل صاحبه إلى البر على الدقة وشرع البحرية فى عمل اربع من المعادى فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت الى المؤخر واقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء إلينا بعض الكفار فى قارب لهم ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر فأعلمناهم انا من اصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغزو وكتبت انا اليه بما اتفق على وأدخلنا اولئك الكفار إلى غيضة عظيمة فأتوا بفاكهة تشبه البطيخ يثمرها شجر المقل وفى داخلها شبه قطن عليه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل وهى تشبه السكر وأتوا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة من فرسان ورجال وجاؤا بالدولة وبعشرة خيول ركبت وركب أصحابى وصاحب المركب وإحدى الجاريتين وحملت الثانية فى الدولة ووصلنا إلى حصن هركاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف والف وتاء معلوة مضمومة وواو) وبتنا وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والأصحاب ووصلنا فى اليوم الثانى إلى محلة السلطان

(ذكر سلطان بلاد المعبر)

هو غياث الدين الدامغانى وكان فى أول أمره فارساً من فرسان الملك مجير بن أبى الرجا أحد خدام السلطان محمد ثم خدم الأمير حاجى بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى

الملك وكان يدعى سراج الدين قبله فلما ولى تسمى غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى ثم صار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين اديجى (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فملك سنة ثم خرج إلى غزو الكفار فاخذ لهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد إلى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم ان رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم غرب فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجا أختها بدهلى

﴿ ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين ﴾

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا وكان قاعدا فى برج خشب وعادتهم بالهند أن لا يدخل احد على السلطان دون خف ولم يكن عندى خف فأعطانى بعض الكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فأمرلى بالجلوس ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين وأنزلنى فى جواره ثلاثة من أخبية وهم يسمونها الخيام وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك ان يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة المهل وان يبعث الجيش اليها فأخذ فى ذلك بالعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم وفوض إلى فى عقد نكاحه مع أخت السلطانة وأمر بوثق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر وقال لى يكون رجوعك بعد خمسة ايام فقال له قائد البحر خواجه سرلك لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لى السلطان اما إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فتن حتى تقضى هذه الحركة وتعود إلى حضرتنا مترة ومنها تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجوارى والأصحاب .

﴿ ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان ﴾

وكانت الأرض التى نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فأمر السلطان ان يكون لكل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك فاذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشى وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فحملوها على كتفيه

يحملها ومعه امراته واولاده ويؤتى بهم إلى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له اربعة ابواب ويسمونه الكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء) ويصنعون على دار (س) كتكرا ثانيا ويصنعون خارج الكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا اتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا اوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء وخرجت الفرسان فى اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار الماسورون بالامس اربعة اقسام واتى الى كل باب أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت بالخشب التى كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشاب ويذبح الاولاد الصغار فى حجورهن ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة اخرى ويصنعون بمن اسروه كذلك وذلك امر شنيع ما علمته لأحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيته يوما والقاضى عن يمينه وانا عن شماله وهو يأكل معنا وقد اتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع فأشار إلى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن أوو بسراو معناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصرى عنهم فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرت عنده يوما وقد اتى برجل من الكفار فتكلم بما لم افهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام فقال لى الى اين فقلت اصلى العصر ففهم عنى وضحك وامر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطا فى دمائه

(ذكر هزيمته للكفار وهى من اعظم فتوحات الاسلام)

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلاديو (بفتح الباء الموحدة ولام والف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء اخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة الف ومعه نحو عشرين الفا من المسلمين اهل الدعارة وذوى الجنايات والعبيد الفارين فطمع فى الاستلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين ستة الاف منهم النصف من الجياد والنصف الثانى لاخير فيهم ولاغناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهى من اكبر مدنهم واحصنها وحاصرها عشرة اشهر ولم يبق لهم من الطعام الاقوت اربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لابد من مطالعة سلطاننا بذلك فوعدهم الى تمام اربعة عشر يوما فكتب الى السلطان غياث الدين بامرهم فقرأ كتابهم

على الناس يوم الجمعة فبكوا وقالوا نبيع انفسنا من الله فان الكافر. ان اخذ تلك المدينة انتقل الى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم جعلوها فى اعناق الخيل وهى علامة من يريد الموت وجعلوا ذوى النجدة والابطال منهم فى المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة الاف وجعل الثلاثة الالاف الباقين ساقة لهم وعليهم اسد الدين كيخسرو الفارسى وقصدوا محلة الكافر عند القايلة واهلها على غرة وخيلهم فى المرعى فاغاروا عليها وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبية وقاتلوهم فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة واراد سلطانهم ان يركب وكان ابن ثمانين سنة فادركه ناصر الدين بن اخى السلطان الذى ولى الملك بعده فأراد قتله ولم يعرفه فقال له احد غلمانه هو السلطان فأسره وحمله الى عمه فأكرمه فى الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة الخيل وكان بعده السراح فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملا جلده بالتبن فعلق على سور مترة ورأيته بها معلقا ولنعد الى كلامنا فنقول ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينه فتن (بفتح الفاء والتاء والمثناة المشددة ونون) وهى كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو ضموا اليها الاجفان التى تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان والطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابورى احد الفقراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على اكتافهم ومعه سبع رباه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لاحدهم غزالة تكون مع الاسد فى موضع واحد فلا يعرض لها واقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له احد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها برادة الحديد فأكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه واهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر واراد ان يعطينى قيمة الهدية فابيت ثم ندمت لانه مات فلم أخذ شيئا وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته واقمت انا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهى مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع واول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين

أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلى وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه او ثالثه وإن أبطأ موته فالى الرابع فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا واشتريت بها جارية على انها صحيحة فماتت فى يوم آخر ولقد جاءت إلى فى بعض الايام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنه ثمانيه أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتهما نفقة وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا وإذا به قد توفى من حينه وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتى أتى بهن لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى فاقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه فى يوم خميس فامر بانزالى الى جانب القاضى فلما ضربت لى الاخبية رأيت الناس يسرحون ويموج بعضهم فى بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد فى مرضه وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان

﴿ ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه ﴾

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالى بعده خارجا إلى المحلة قد وجه عنه إذ ليس للسلطان ولد فطلبنى فى الرجوع معه فابيت واثر ذلك فى قلبه وكان ناصر الدين هذا خدم بدهلى قبل أن يملك عمه فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فاجزل لهم العطا وأول من قام مقام منشد القاضى صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمى بالقاضى فاعطاه الفى دينار دراهم وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخلعة وبعث الصدقات فى الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم فى اطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره واقاموا على ذلك اربعين يوما ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة وأول ما بدا به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه إلى وانا بفتن ليتلقانى فتوفى سريعا فولى الوزراء خواجه سرور قائد البحر وأمر ان يخاطب بخواجه

جهان كما يخاطب الوزير بدهلى ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك مسعودا زاره فى محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء وامر لى بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابتنى الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية والهمنى الله إلى التمر الهندى وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته فاسهلنى ثلاثة أيام وعافانى الله من مرضى فكرهت تلك المدينة وطلبت الاذن فى السفر فقال لى السلطان كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر الى الجزائر غير شهر واحد اقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم فابيت وكتب لى الى فتن لاسافر فى أى مركب اردت وعدت إلى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن فسافرت فى احدها ولقينا اربعة اجفان فقاتلتنا يسيرا ثم إنصرفت ووصلنا الى كولم وكان فى بقية مرض فاقمت ثلاثة اشهر ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنورى فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور

﴿ ذكر سلب الكفار لنا ﴾

ولما وصلنا الى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مركبا حربية وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ما عندى مما كنت ادخره للشدائد وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان وأخذوا ثيابى والزرادات التى كانت عندى مما اعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل وأخذوا ما كان لجميع الناس وانزلونا بالساحل فرجعت إلى قالقوط فدخلت بعض المساجد فبعث الى أحد الفقهاء بثوب وبعث القاضى بعمامة وبعث بعض التجار بثوب آخر وتعرفت هنالك بزوج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبان زوجتى التى تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا فخطر لى السفر الى الجزائر وتذكرت العداوة التى بينى وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا فاستخرت الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل ونزلت منها بكلنوس فاكرمنى واليها عبد العزيز المقدشاوى وأضافنى وجهز لى كندرة ووصلت بعد ذلك الى هللى وهى الجزيرة التى تخرج السلطانة واخوتها اليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التفجر ويلعبون فى المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متى كانت بها وجدت بها اخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وامها التى كانت زوجتى فجاء الخطيب

إلى وأتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبدالله فأعلموه بقدومى فسأل عن حالى وعمن قدم معى وأخبر أنى جئت برسم حمل ولدى وكان سنه نحو عامين وأتته أمه تشكو من ذلك فقال لها أنا لا أمنعه من حمل ولده وصادرنى فى دخول الجزيرة وأنزلنى بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالى وبعث إلى بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم وجئت بثوبى حرير للرمى عند السلام فأخذوهما ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم وأتى إلى بولدى فظهر لى ان اقامته معهم خير له فرددته اليهم واقمت خمسة ايام وظهر لى ان تعجيل السفر اولى فطلبت الاذن فى ذلك فاستدعانى الوزير ودخلت عليه وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما منى فرميتهما عند السلام على العادة وأجلسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى وأكلت معه الطعام وغسلت يدى معه فى الطست وذلك شىء لا يفعله مع أحد وأتوا بالتنبول وانصرفت وبعث إلى بأثواب وبساتى من الودع وأحسن أفعاله وأجمل وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقودة وألف ولام مفتوح) وهى بلاد متسعة كثيرة الارز ولم أرفى الدنيا أرخص أسعاراً منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة معناه جهنم ملاى بالنعم رأيت الارز يباع فى اسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضى والدينار الفضى هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدراهم النقرة سواء والرطل الدهلى عشرون رطلا مغربية وسمعتهم يقولون ان ذلك غلاء عندهم وحدثنى محمد المصمودى المغربى وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديماً ومات عندهم بدهلى انه كانت له زوجة وخادم فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم وانه كان يشترى الارز فى قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فإذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية وهى عشرة قناطير ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر بدرهم ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ورطل السكر بأربعة دراهم وهو رطل دهلى ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن بأربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوا ان

وضبط اسمها (بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم ويجتمع بها نهر الكنك الذى يحج اليه الهنود ونهر الجون ويصبان فى البحر ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتى

(ذكر سلطان بنجالة)

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل محب فى الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذى ولى ولده معز الدين الملك بدهلى فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر وسمى لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجاله فأقام بها إلى أن توفى وولى ابنه شمس الدين إلى أن توفى فولى ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على أن يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتل وولى على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها على شاه وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتى فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسدكاوان وبلاد بنجاله واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتى فى البحر لقوته فيه وإذا عادت الأيام التى لا مطر فيها أغار على شاه على بنجاله فى البر لقوته فيه

(حكاية)

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى ان جعل أحدهم نائبا عنه فى الملك بسدكاوان وكان يسمى شيدا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف) وخرج إلى قتال عدوله فخالف عليه شيدا وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولد السلطان فخر الدين ولم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فكر عائدآ الى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سنركاوان وهى منيعة فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شيدا وبعثوه إلى عسكر السلطان فكتبوا اليه بأمره فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته وأنه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك

وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو وهى (بفتح الكاف والميم وضم الراء) وبينهما وبين سدكاوان مسيرة شهر وهى جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة والغلام منهم يساوى أضعاف مايساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاناة السحر

والاشتغال به وكان قصدى بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولى من الاولياء وهو الشيخ جلال الدين التبريزى

(ذكر الشيخ جلال الدين)

وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرنى رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسى ببغداد وكان بها حين قتله وأخبرنى أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين وانه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طوالا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

(كرامة له)

أخبرنى بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم إنى أسافر عنكم غدا إن شاء الله وخليفتى عليكم الله الذى لا إله إلا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله فى آخر سجدة منها ووجدوا فى جانب الغار الذى كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله تعالى

(كرامة له أيضا)

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقينى أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه فأخبرونى أن الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح من المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ولم يكن عندهم علم من أمرى وإنما كوشفت به وسرت معهم الى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ولما دخلت عليه قام إلى وعانقنى وسألنى عن بلادى وأسفارى فأخبرته فقال لى أنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم ياسيدنا فقال والعجم فأكرموه فاحتملونى إلى الزاوية وأضافونى ثلاثة أيام

(حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له)

ولما كان يوم دخولى إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتنى وقلت فى نفسى ليت الشيخ أعطانيها فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة فأخبرونى الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وإنما لبسها عند قدومى وانه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربى ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجى وهى له وبرسمه كانت فلما أخبرنى

الفقراء بذلك قلت لهن لقد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية علي فبينا أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان فسألني عن سلاطين الاسلام فأجبته ونظر إلى الفرجية فاستحسنها فقال لي الوزير جردها فلم يمكني خلاف ذلك فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة وتغير خاطري لذلك ثم ذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان باليق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي فقال لي لم تقلبها وأنت تعرفها فقلت له نعم هي التي أخذها مني سلطان الخنسا فقال لي هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي وكتب الي ان الفرجية تصلك على يد فلان ثم اخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ وأعلمته بأول الحكاية فقال لي اخي جلال الدين اكبر من ذلك كله وهو يتصرف في الكون وقد انتقل الى رحمة الله تعالى .

ثم قال بلغني انه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لأنه يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما ودعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حبنق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف) وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو ويسمى النهر الأزرق ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكانا نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب مالا يحصى كثرة وفي كل مركب منها طبل فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يأخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطى الزاد لمن لازاد له منهم وإذا وصل الفقير الى مدينة أعطي نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا إلى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهمل والنون وسكون الراء) وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ اليها ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر إلى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا فيه ووصلنا بعد

خمسة عشر يوما إلى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره وسكناهم فى بيوت مسقفة بحشيش الأرض على شاطىء البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورتنا إلا أفواههم كأفواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد يجعل ذكره وأنثييه فى جعبة من القصب منقوشة معلقة فى بطنه ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون فى حارة على حدة أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وأنهم لا يزنون وإذا زنا رجل منهم فحد الرجل أن يصلب حتى يموت أو يؤتى صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو وحد المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت ويرمون بها فى البحر ولأجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل اليهم الا أن كان من المقيمين عندهم وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لأنهن يطمحن الى الرجال الحسان والفيله كثيرة عندهم ولا يبيعها أحد غير سلطانهم ثم يشترى منهم بالأثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكثر التردد اليهم ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا فى قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسمك

(ذكر سلطانهم)

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعز وقد جعل الوبر إلى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفى يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة فبعثنا اليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذى يكون بجزائر ذيبة المهل وأثوابا من بنجالة وهم لا يلبسونها انما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلى ذهب تجعله زوجته فى محزمها وأصابع رجليها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك

(حكاية)

واتفق فى ليلة من ليالى إقامتنا بمرساهم أن غلاما لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء

الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء فى جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به فحملا الى سلطانهم فأمر بالغلام فقطعت أنثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى وقال انا لا نجد بدا من امضاء أحكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المطلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة (بالجيم) وهى التى ينسب اليها اللبان الجاوى رأيناها على مسيرة نصف يوم وهى خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندى والشكى والبركى والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار إنما هو منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولما وصلنا المرسى خرج الينا أهلها فى مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل واحد على قدره وصعد الينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنا فى النزول إلى البر فنزلنا إلى البندر وهى قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور اسمها السرحى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد أربعة أميال ثم كتب الى بهروز نائب صاحب البحر الى (س) فعرفه بقدومى فأمر الأمير دولسة بلقائى والقاضى الشريف أمير سيد الشيرازى وتاج الدين الأصفهانى وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب (س) وأفراس سواه فركبت وركب أصحابى ودخلنا الى حضرة (س) وهى مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

(ذكر سلطان الجاوة)

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك شافعى المذهب محب فى الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتى الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون فى الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

(ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه الينا)

ولما قصدنا إلى دار (س) وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة على جانبى الطريق وهى علامة

على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك فقام إلينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة وقعدمعنا وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فأتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد ببقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هى السبنية فأخذها النائب بيده وأخذ بيدى وأدخلنى إلى دويرة يسمونها فردخانة على وزن زردخانة (الا أن أولها فاء) وهى موضع راحته بالنهار فان العادة أن يأتى السلطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والأمراء الكبار وأخرج من البقشة ثلاث فوط احداها من خالص الحرير والأخرى حرير وقطن وأخرى حرير وكتان وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمى الوسطانيات وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك أحدها أبيض وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض عن السراويل على عادتهم وثوبا من كل جنس وأخذ أصحابى ما بقى منها .

ثم جاؤا بالطعام أكثره الأرز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف فأخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب وفى وسطها دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ

وفى البيت اسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لى يقول لك السلطان هذا على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقى الأمير دولسة عندى وكانت بينى وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلى فقلت له متى تكون رؤية السلطان فقال لى إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاثة ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه فأقمنا ثلاثة أيام يأتى إلينا الطعام ثلاث مرات فى اليوم وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتانى الأمير دولسة فقال لى يكون سلامك على (س) بمقصورة الجامع بعد الصلاة فأتيت الجامع وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف الراء) ثم دخلت إلى (س) فوجدت القاضى أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحنى وسلمت عليه وأجلسنى عن شماله وسألنى عن (س) محمد وعن أسفارى فاجبته وعاد إلى المذاكرة فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر فلما صلاها دخل

بيتا هنالك فنزع الثياب التى كانت عليه وهى ثياب الفقهاء وبها يأتى الجامع يوم الجمعة ماشيا ثم لبس ثياب الملك وهى الأقبية من الحرير والقطن

(ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه)

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه والعادة عندهم أنه إذا ركب (س) الفيل ركب من معه الخيل وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل (س) راكبا وقد اصطف فى المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدوله ووجوه العسكر صفوفا فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزرائه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والماليك ووقف (س) على فيله ازاء قبة الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهى خيل النوبة ووقف بين يديه خواص الحجاب ثم اتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتى بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأساور حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل (س) إلى داره وانصرف الناس إلى منازلهم

﴿ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك﴾

وكان له ابن أخ متزوج بنته فولاه بعض البلاد وكان الفتى يتعشق بنتا لبعض الأمراء ويريد تزوجها والعادة هنالك أنه اذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقى أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر السلطان فى شأنها ويبعث (س) من النساء من تنظر اليها فان أعجبته صفتها تزوجها والا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤا والناس هنالك يرغبون فى تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف ولما استأمروا والد البنت التى تعشقها ابن أخى السلطان بعث السلطان من نظر اليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا إليها ثم أن السلطان خرج الى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة ابن أخيه الى سمطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل راجعا عائدا إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر وأخذ

الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوه ولهذا في عمه السور على سمطرة وكانت اقامتى عنده بسمطرة خمسة عشر يوما ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه ولا يتهيأ السفر إلى الصين في كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاه الله خيرا وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة ثم وصلنا إلى مل جاوة (بضم الميم) وهى بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاوية العطرة والعود الطيب القافلى والقمارى وقافلة وقمارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندى وإنما معظم ذلك بمل جاوه ولنذكر ماشهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه

(ذكر اللبان)

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى مادون ذلك وأغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في اغصانها وهى في بلاد الإسلام أكثر منها في بلاد الكفار

(ذكر الكافور)

وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا الا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور داخل الأنابيب فإذا كسرت القصبة وجد في القصبه داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكون شيء منه والطيب المتناهى في البرودة الذى يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم بالخردلة هو الذى يذبح عند قصبة الآدمى ويقوم مقام الآدمى في ذلك الفيلة الصغار

(ذكر العود الهندى)

وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط الا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعرقه طويلة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد الإسلام من شجره فهو متملك وأما الذى في بلاد الكفار فأكثره غير متملك والمتملك منه ما كان بقافلة وهو أطيب العود وكذلك القمارى هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب ومن القمارى صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا

فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

﴿ ذكر القرنفل ﴾

وأما أشجار القرنفل فهى عادية ضخمة وهى ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان والذى يسميه أهل بلادنا نور القرنفل هو الذى يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعرفة فى بلانا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا إلى مرسى قاقلة فوجدناه به جملة من الجنوك معد للسرقة ولمن يستعصى عليهم من الجنوك فإن لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة (وهى بقافين آخرها مضموم ولامها مفتوح) وهى مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندى يوقدونه فى بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم وأما التجار فيبيعونه الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون كل إنسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره ويحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

﴿ ذكر سلطان مل جاوه ﴾

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك إلا عند السلطان وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون فعرف شأنى فاستدعانى فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا إلا لفظ السلام فرحب بى وأمر أن يفرش لى ثوب اقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان جالس على الأرض فقال هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعا وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب إكرامك فجلست وسألنى عن السلطان فاوجز فى سؤاله وقال لى تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثه أيام وحينئذ يكون انصرافك

﴿ ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه ﴾

ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالأرض فعجبت من شأنه وقال لى السلطان أيفعل أحد هذا عندكم فقلت ما رأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا وأمر به فرفع وأحرق وخرج لاحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا واجرى

الرزق الواسع على اولاده واهله واخوانه وعظموا الاجل فعله واخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به كان تقرير المحبته فى السلطان وانه يقتل نفسه فى حبه كما قتل ابوه نفسه فى حب ابيه وجده نفسه فى حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الى بضيافة ثلاثه أيام وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد اربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمرة زعموا انها من تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعه ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه تجذف به فتجره ويكون فى الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصوارى يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوها ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الاخر وفى المجذاف حبلان عظيما كالطوابيس فتجذف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الاخرى وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان واكثرهم مايقولون لعلى لعلى واقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين وهى انهى ما يكون التيسير عليهم ثم وصلنا إلى بلاد طوالسى وهى (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكها هو المسمى بطوالسى وهى بلاد عريضة وملكها ايضاهى ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتى يصالحوه على شىء وأهل هذه البلاد عبدة اوثان حسان الصور اشبه الناس بالترك فى صورهم والغالب على الوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكرى (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وراء مكسور) وهى من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما ارسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ونزل الناخودة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسالهم عنه فاخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم وولى بنته بتلك المدينة (واسمها أردجا بضم الهمزه وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

﴿ ذكر هذه الملكة ﴾

ولما كان فى اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كيلوكرى استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب والكوانى وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل وهو مقدم الرجال وسباه سالار وهو مقام الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة

منى ان احضر معهم فابيت لانهم كفار لايجوز أكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقى احد منكم لم يحضر فقال لها الناخودة لم يبق الا رجل واحد بخشى وهو القاضى بلسانهم وبخشى (بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمتين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت ادعوه فجاء جنادرتها واصحاب الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيتها وهى بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بايديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسى الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفرش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبة من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها اوانى ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابى القلال والبواقل أخبرنى الناخودة انها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وأنه عطر الرائحة حلو المطعم ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية حسن مسن يخشى مسن (خوشميس يخشميسن) معناه كيف حالك كيف انت واجلستنى على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربى فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور (كتور) معناه الدواة والكاغدة فاتى بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ماهذا فقلت لها تنضرى (تنكرى) نام وتنضرى (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون والف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش) ومعناه جيد ثم سالتنى من أى البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلاد الفلفل فقلت نعم فسألتنى عن تلك البلاد واخبارها فاجبتها

فقالت لابد ان اغزوها وآخذها لنفسى فانى يعجبنى أكثر مالها وعساكرها فقلت لها افعلى وامرت لى باثواب وحمل فيلين من الارز وبجاموستين وعشر من الضان وأربعة أرطال جلاب واربعة مرطبات وهى ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر وأخبرنى الناخودة ان هذه الملكة فى عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وانها تخرج فى العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الابطال واخبرنى انها وقع بينها وبين بعض اعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه اهله منها بمال كثير فلما عادت الى ابيها ملكها تلك

المدينة التى كانت بيداخيها واخبرنى ان ابناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج إلا من يبارزنى فيغلبنى فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن البلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها اشد السير واحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثيرا الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه فى ذلك إقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حيات معنى ذلك ماء الحياة ويسمى ايضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذى بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود يمر فى وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى ان ينتهى الى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا اكثر عمارة عليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى بل يفضله والاعناب والاجاص كنت اظن ان الاجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له حتى رايت الاجاص الذى بالصين وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله واحسن منه والقمح بها كثير جدا ولم ار قمحا اطيب منه وكذلك العدس والحمص

﴿ ذكر الفخار الصينى ﴾

واما الفخار الصينى فلا يصنع منه الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة ايام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة ايام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا او ارخص ثمنا ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو ابدع انواع الفخار

(ذكر دجاج الصين)

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم اضخم من بيض الاوز عندنا واما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فاردنا طبخها فلم يسع لحمها فى برمة واحدة فجعلناها فى برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتف ريشها فيبقى بضعة حمراء واول ما رايت الديك الصينى بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لى صاحبه ان ببلاد الصين ما هو اعظم منه فلما وصلت الى الصين

رأيت مصداق ما اخبرني به من ذلك

﴿ ذكر بعض من اهالى الصين ﴾

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعيات وسواها وهم معظمون محترمون وكفار الصين ياكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى اسواقهم وهم اهل رفاهية وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون فى مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى امواله كثرة وعليه جبه قطن خشنة وجميع اهل الصين انما يحتفلون فى اوانى الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جدا لان الدود تتعلق بالثمار وتاكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة ويباع الثمن الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل اصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه الستى (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوة) وهو بمعنى البكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

﴿ ذكر دراهم الكاغد التى بها يبيعون ويشترون ﴾

واهل الصين يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت (بباء موحدة والف ولام مكسور وسين معجم مسكن وتاء معلوة) وهى بمعنى الدينار عندنا واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فاخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطى على ذلك اجرة ولا سواها لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار امير من كبار الامراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شى لم ياخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما اراد

(ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم)

وجميع اهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتى الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيتقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم وإذا صار رمادا عجنوه بالماء وييبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ويضيفون اليه حجارة سواه كما قلنا

(ذكر ماخصوا به من أحكام الصناعات)

وأهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك انى مادخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق .

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصره مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكور فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لاتخطىء شيئا من شبهه .

وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل مايوجب فراره عنهم بعث صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزى هذا مثل ماحكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذى الأكتاف ملك الفرس حين دخل إلى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الأوانى فنظر اليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس فكان الأمر على ماقاله وجرى فيه ماهو مسطور فى الكتب

(ذكر عادتهم فى تقييد مافى المراكب)

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك

إلى الصين صعدوا اليه أيضا وقابلوا ماقيدوه بأشخاص الناس فان فقدوا أحدا مما قيدوه طالبوا صاحب الجنك فأما من يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه والا أخذ فيه فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلا بجميع مافيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ماعندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع مافيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين اللهم الا انه كان بالهند مايقرب منه وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

(ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد)

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين الفساد أو الفندق فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وأنفق عليه منه بالمعروف فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه فإن أراد التسرى اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها فى الفندق وأنفق عليهما والجوارى رخيصات الأثمان إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس عيبا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه وكذلك ان أراد التزوج تزوج وأما انفاق ماله فى الفساد فشيء لاسبيل له اليه ويقولون لانريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا فانها أرض ضلال

(ذكر حفظهم للمسافرين فى الطرق)

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فان الواحد يظل منفردا مسيرة تسعة شهور وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك ان لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان بعد المغرب او العشاء جاء الحاكم الى الفندق ومعه الكاتب لكتابة اسماء جميع من يبيت به المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثانى له ويأتيه ببراءة من حاكمه ان الجميع قد وصلوا اليه وان لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين

الصين إلى خان بالق وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والأوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه إسم وضع عليها وهى مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها رأيت نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض ودارة فى وسطها كمثل ما هى بلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفى يوم وصولى اليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولا بالهدية ومضى فى صحبتنا وغرق به الجنك فسلم على وعرف صاحب الديوان بى فأنزلنى فى منزل حسن وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الاردويلى وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الأصفهانى وهو من الصلحاء وجاء إلى كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزى أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند واحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار سكناهم فى بلاد الكفار وإذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازرونى له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التى ينذرونها للشيخ أبى إسحق الكازرونى ولما عرف صاحب الديوان أخبارى كتب إلى القان وهو ملكهم الأعظم يخبره بقدومى من جهة ملك الهند فطلبت منه ان يبعث معى من يوصلنى لبلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونه صين كلان لأشاهد تلك البلاد وهى فى عمالته بخلال ما يعود جواب القان فأجاب إلى ذلك وبعث معى من أصحابى من يوصلنى وركبت فى النهر فى مركب يشبه اجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم فى وسط المركب والركاب فى المقدم والمؤخر ويظلون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب .

وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما وكل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج اليه ونصلى الظهر ثم ننزل بالعشى إلى أخرى وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهى مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار وبالزيتون ايضاً وهنالك يصب نهر آب حياة فى البحر يسمونه مجمع البحرين وهى من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين

والهند والان وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الأبواب كلها وفى داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الأغذية وفيها الأطباء والخدام وذكر لى أن الشيوخ الذين لاقدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الأيتام والارامل ممن لا مال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينه وما وليها من القرى والبساتين وقفا عليها وصور ذلك الملك مصورة بالكنيسه المذكورة وهم يعبدونها وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان عند نزولى عند أوحد الدين السنجارى وهو أحد الفضلاء الاكابر ذو الاموال الطائلة وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضى وسائر المسلمين تتوالى على وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالعشارين الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لى يسكنها كفار رحالة يأكلون بنى آدم إذا ظفروا بهم ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه

(حكاية عجيبة)

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتى سنة وأنه لايأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وأنه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت إلى الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فامسك يدى وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لقد رأيت عجباً أتذكر يوم قدومك الجزيرة التى فيها الكنيسة والرجل الذى كان بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبلت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج الينا وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمتم

عشر سنين لم تروه فان عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاوي بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء ولا يعلم احد ما ينتحله من الأديان والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو وأخبروني أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطى لكل أحد على قدره وليس في الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر وانه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبي ﷺ ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى بن ابي طالب بأحسن الذكر ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية وحدثوني عنه بأمور كثيرة واخبرني اوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه الغار فأخذ بيدى فخيل الى انى فى قصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك وتخيلت إنى اخذت تفاحة لآكلها فإذا انا بالغار وبين يديه وهو يضحك منى وأصابنى مرض شديد لازمنى شهورا فلم أعد اليه

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكن لم يراه احد يصلى أما الصيام فهو صائم ابداً وقال لى القاضى ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام فقال لى اتدرى انت ما اصنع ان صلاتى غير صلاتك واخباره جميعها غريبه وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون .

ثم بعد وصولى اليها بايام جاء أمر القان بوصولى إلى حضرته على البر والكرامة ان شئت فى النهر وإلا ففى البر فاخترت السفر فى النهر فجهزوا إلى مركبا من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الأمير معنا اصحابه ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة ثم سرنا فى الضيافة نتغذى بقرية ونتعشا باخرى فوصلنا بعد سفر عشرة ايام إلى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة فى بسيط افيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطه دمشق وعند وصولنا خرج الينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار معهم الاعلام والطبول والانفار واهل الطرب واتوا بالخيل فركبنا ومشوا بين ايدينا ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ وخرج امير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم دخلنا المدينة ولها اربعة اسوار يسكن ما بين السور الاول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها يسمون البصوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة

وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون) ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلد ويسكن داخل الثالث المسلمون وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلانى (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهو أعظم المدن الأربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثه أميال وأربعة ولكل إنسان كما ذكرنا بستانه وداره وأرضه

- (حكاية)

وبينا انا يوما فى دار ظهير الدين القرلانى إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له على وقالوا مولانا قوام الدين السبتى فعجبت من اسمه ودخل إلى فلما حصلت المؤانسة بعد التحية سنح لى ان اعرفه فأطلت النظر اليه فقال اراك تنظر الى نظر من يعرفنى فقلت له من أى البلاد أنت فقال من سبته فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لى نعم دخلت حضرة فى دهلى فلما قال لى ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشرى قال نعم وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبى القاسم المرسى وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بامره فاعطاه ثلاثة آلاف دينار وطلب منه الاقامة عنده فابى وكان قصده فى بلاد الصين فعظم شانه بها واكتسب الاموال الطائلة اخبرنى أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى وأهدى إلى منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيا بعد ما بينهما وكانت إقامتى بقنجنفو خمسة عشر يوما .

وسافرت منها الى بلاد الصين على مافيها من الحسن لم تكن تعجبنى بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فمتى خرجت عن منزلى رأيت المناكير الكثيرة فاقلقنى ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا اخرج إلا لضرورة وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت اهلى وأقاربى ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشرى ان سافر معى لما رحلت عن قنجنفو اربعة ايام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلوا (وهى بياء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين إلا اربعة من اهل الدور اهلها الفقيه المذكور نزلنا بدار احدهم واقمنا عنده ثلاثة ايام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى باخرى إلى ان وصلنا بعد سبعة عشر يوما من مدينة الخنساء واسمها على نحو اسم الخنساء

الشاعرة ولا أدرى إعرابي هوام وافق العربي وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهى على ماذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره وهى منقسمه إلى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والاطبال والانفار والأبواق وخرج أميرها فى موكبه ودخلنا المدينة وهى ست مدن على كل مدينة سور ومحدق بالجميع سور واحد فاول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثنى القاضى وسواه أنهم أثنا عشر ألفاً فى زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى وكان أحـــد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه وورث عقبه به الجاه والحرمة على ماكان عليه من الايثار على الفقراء والأعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير.

وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ولا يزالون يحتفلون فى اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى اقطار المدينة وركبوا معى يوما فدخلنا إلى المدينة الرابعة وهى دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير قرطى ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابى ولقينى الوزير وذهب بى إلى دار الأمير الكبير قرطى فكان من أخذه الفرجية التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ماقد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهى من أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتى فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام واحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور فى وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الأمارة فى وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب اخبرنى الأمير قرطى أن عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين وهم اجمعون عبيد القان وفى أرجلهم

القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الامير مائة مائة فإن نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم انه إذا خدم احدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير فى النظرين أما ان يقيم فى الخدمة غير مقيد وأما ان يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها وإذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه كذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الأحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى احدهم آطا ومعناه الوالد .

(ذكر الأمير الكبير قرطى)

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير امراء الصين أضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوى (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة واتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده واقمنا فى ضيافته ثلاثة أيام وبعث ولده معنا إلى الخليج فركبنا فى سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الأمير فى اخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصينى وبالعربى وبالفارسى وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسى فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من افواههم وله تلحين عجيب وهو (راجزا)

تاذل بمحنت دادیم در بحر فکرا فتادیم
چن (جون) درنمازا ستادتم قوی بمحراب اندری اندریم

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة ابدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارونج والليمون وعدنا بالعشى إلى دار الأمير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

(حكاية المشعوذ)

وفى تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الأمير أرنا من عجائبك فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن فى وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير فى يده الا يسير امر متعلما له فتعلق به وصعد فى الهواء إلى ان غاب عن أبصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ

وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ثم برجله الأخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الأرض بين يدي الأمير وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء.

ثم أنه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دواء أذهب عني ماوجدت وكان القاضي أفخر الدين إلى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وإنما ذلك شعوذة وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب مايصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعه أبدع الصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الأطباق عشرة واحداً في جوف آخر لطورفتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها.

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان الى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون ويدعون دودكاران (درودكران) والأصباهية وهم الرماه والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهز لنا الأمير قرطي مركبا بما يحتاج اليه من زان وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها احد من المسلمين إلا من كان حاضرا غير مقيم لانها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أرفي الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق (وضبط أسمها بخاء معجم والف ونون مسكن وباء معقود والف ولام مكسور وقاف) وتسمى أيضا خانقو

(بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهى حضرة القان والقان هو سلطانهم أعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطأ ولما وصلنا اليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا فأذنوا النافى دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا الى المدينة وهى من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين داخلها انما هى كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان فى وسطها كالقصبة حسبما نذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجى وهو الذى بعث اليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبى أن يسير اليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان .

(ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان)

والقان عندهم سمة لكل من يلى الملك الأقطار كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور باتابك واسمه باشاى (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الأرض مملكة من مملكته .

(ذكر قصره)

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الأول منها يجلس به الكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرد دارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت انهم كانوا فيما تقدم ألف رجل والباب الثانى يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنون والزاى) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم) وهم اصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدى الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف اربع احداها تسمى ديوان الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج أو أميرها من كبار الامراء والمستخرج هو مابقى قبل العمال وقبل الأمراء من اقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقه مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها امير الاخبار بين

والباب السادس من ابواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين .

﴿ ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله ﴾

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائباً عنها إذذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة اشهر عامرة واخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة الاف فارس وأميرهم يسمى أمير طومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفاً زائداً الى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة ألف ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعه لأنه كان قد غير أحكام اليساق وهي الأحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام فمضوا إلى ابن عمه القائم وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه وتكون مدينة الخنساء اقطاعا له فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر .

ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه واقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الأرض وفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان في داره من اواني الذهب والفضة وجعل معه اربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم اواني الشرب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم .

ثم جاؤا بأربعة افراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرساً وكان هذا اليوم يوما مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الاخبية على قبره اربعين يوماً وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا القصر فاما الكفار من

الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا ايديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم أنه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم فديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كما ذكرنا واستولى ابن عمه فيروز على الملك أختار أن تكون حضرته مدينة قراقرم (وضبطها بفتح القاف الأول والراء وضم الثانيـة وضم الراء الثانية) لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

(ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند)

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار علي الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنساء ثم إلى قنجنفو ثم إلى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر إلى الهند وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر واقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فارادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك واقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن .

(ذكر الرخ)

ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا إلى صوبه فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا فلجأ الناس إلى التضرع والاخلاص وجددوا التوبه وابتهلنا إلى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وبذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند

طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحر يبكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ما شأنكم فقالوا أن الذى تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا اهلكنا وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال ثم أن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة ونزلنا إلى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبى كثير فبعث لى جاريتين وغلامين وأنزلنى على العادة وحضرت أعراض ولده مع بنت أخيه .

﴿ ذكر أعراس ولد الملك الظاهر ﴾

وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا فى وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن إلا فى الاعراس خاصة وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة والتاج على رأس العروس المذكور عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك وأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشى المرصعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها والخواتين يروحون عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها ثم أخذت هى بيديها وجعلت فى فمه ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها فى فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هى كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت فى بعض الجنوك .

وأعطانى السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وزودنى وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما إلى كولم فنزلت بها فى جوار القزوينى قاضى المسلمين وذلك فى رمضان وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد

ليلا فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط وأقمنا بها أياما وأردت العودة إلى دهلى ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

(ذكر سلطانها)

ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث الذى كان ملكا بها حين وصولى اليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر التركى الأصل وأنزلنى هذا السلطان وأكرمنى ثم ركبت البحر فوصلت إلى مسقط (بفتح الميم) وهى بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ثم سافرنا إلى مرسى القريات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وتاء مثناة) ثم سافرنا إلى مرسى شبة (وضبط إسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم إلى مرسى كلبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب ثم إلى قلهات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهى محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا إلى هرمز وأقمنا بها ثلاثا وسافرنا فى البر إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا إلى كارزى (وضبط أسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاى) وأقمنا بها ثلاثا .

ثم سافرنا إلى جمكان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون) ثم سافرنا منهم إلى ميمن (ضبط اسمها بفتح الميمين وبينهما ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون) ثم سافرنا إلى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها) ثم إلى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا أسحاق على ملكه الا أنه كان غائبا عنها ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضى القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت الى ماين ثم إلى يزدخاص ثم الى كليل ثم الى كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزاء ثم الى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التى بها وهى قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وحليمة السعدية وأبى بكرو أنس بن مالك والحسن البصرى وثابت البنانى ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمى وسهل بن عبد الله التسترى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا الى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه ثم توجهنا الى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ثم الى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان واتفق فى بعض تلك الايام ان ولها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه

على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الأمير فأصابت ذلك الوالي علة مات منها سريعا فزادذلك في فتنة الرافضة وقالوا إنما اصابه ذلك لأجل منعه الدابة فلم تمتنع بعد ثم سافرت إلى صرصر ثم إلى مدينة بغداد وصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين ولقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء جبر الله صدع الاسلام في ذلك

(ذكر سلطانها)

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة (س) أبي سعيد رحمه الله ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته دلشاد بنت دمشق خواجة ابن الأمير الجوبان حسبما كان فعله (س) أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان (س) حسن غائبا عن بغداد في هذه المدة متوجها لقتال (س) اتابك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الانبار ثم إلى هيت ثم إلى الحديثة ثم إلى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة كأن الماشي في سوق من الأسواق وقد ذكرنا إنا لم نر مايشبه البلاد التي على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت إلى مدينة الرحبة وهي التي تنسب إلى مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا إلى السخنة وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى وإنما سميت السخنة لحرارة مائها وفيه بيوت الرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد ثم سافرنا إلى تدمر مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النابغة

(بسيط) * يبنون تدمر بالصفاح والعمد *

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لي حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ إلى جده للام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينار ذهبا هنديا فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي فدخلت الجامع فوفق لي نور الدين السخاوي امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفني فعرفته بنفسي وسألته عن الولد فقال مات منذ ثنتي عشر سنة وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يقيم بالمدرسة الظاهرية فسرت إليه لاسأله عن والدي وأهلي فوجدته شيخا كبيرا فسلمت عليه وانتسبت له فأخبرني أن والدي توفي منذ خمس عشرة سنة وأن الوالدة بقيد الحياة وأقمت بدمشق الشام بقيه العام

والغلاء شديد والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواق بدرهم نقرة وأوقيتهم أربع أواق مغربية وكان قاضى قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المسلاتى وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوى وقدم معه دمشق فعرف بها ثم ولى القضاء وقاضى قضاة الشافعية تقى الدين بن السبكى وأمير دمشق ملك الأمراء ارغون شاه

(حكاية)

ومات فى تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للمساكين فكان المتولى لإنفاذ الوصية يشترى الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا فى بعض الليالى وتزاحموا واختطفوا الخبز الذى يفرق عليهم ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه فأخرج زبانيته فكانوا حيث ما لقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تأخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة وركب من الغدو أحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم براء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا الى حمص وحماه وحلب وذكر لى أنه لم يعش بعد ذلك الاقليلا وقتل ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماه ثم المرة ثم سرمين ثم الى حلب وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رغطى (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة)

(حكاية)

واتفق فى تلك الأيام أن فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن فى جبل خارج مدينة عنتاب والناس يقصدونه ويتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لازوجة له قال فى بعض كلامه أن النبى ﷺ كان لايصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضى ورفع أمره الى ملك الأمراء وأتى به وبتلميذه الموافق له على قوله فافتى القضاة الأربعة وهم شهاب الدين المالكى وناصر الدين العديم الحنفى وتقى الدين الصائغ الشافعى وعز الدين الدمشقى الحنبلى بقتلهما معا فقتلا وفى أوائل شهر ربيع الاول عام تسعة وأربعين بلغنى الخبر فى حلب الوباء وقع بغزة وأنه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الألف فى يوم واحد فسافرت الى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولى اليها نحو ثلثمائة انسان ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام حسبما ذكرناه فى السفر الأول فخفف الله الوباء عنهم فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة فى اليوم ثم سافرت إلى عجلون ثم إلى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن

عم عز الدين قاضى القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر

(حكاية)

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعانى فيمن دعا إليها فسألته عن سببها فأخبرنى أنه نذر أيام الوباء إنه إن ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلى فيه على ميت صنع الدعوة ثم قال لى وما كان بالأمس لم أصل على ميت فصنعت الدعوة التى نذرت ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله فلم يبق منهم إلا القليل مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى ومثل الصالح شرف الدين الخشى شيخ زاوية المسجد الأقصى ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى فأضافنى ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه .

ثم سافرت عن القدس ورافقنى الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبد الوادى فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام ثم سرنا إلى غزة فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة فى اليوم .

ثم سافرنا فى البر فوصلت إلى دمياط ولقيت بها قطب الدين النقشوانى وهو صائم الدهر ورافقنى منها إلى فارسكور وسمنود ثم إلى أبى صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين بها

(حكاية)

وبينما نحن بتلك الزواية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام فأبى وقال إنما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر والفقير بركن الزاويه فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه فمضى إليه فوجده ميتا فصلينا عليه ودفناه رحمة الله عليه ثم سافرت إلى المحله الكبيرة ثم إلى نحرارية ثم إلى أبيار ثم إلى دمنهور ثم إلى الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد أن بلغ عدد الموتى إلى ألف وثمانين فى اليوم ثم سافرت إلى القاهرة وبلغنى أن

عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفا فى اليوم ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالى

(ذكر سلطانها)

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة وجدت قاضى القضاة عز الدين ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قد توجه إلى مكة فى ركب عظيم يسمونه الرجبى لسفرهم فى شهر رجب وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقبة أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة إلى بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها إلى عيذاب وركبت منها البحر فوصلت جدة ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين ونزلت فى جوار أمام المالكيه الصالح الوالى الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعى ولقيت ممن أعهد من أشياخها شهاب الدين الحنفى وشهاب الدين الطبرى وابا محمد اليافعى ونجم الدين الأصفونى والحرازى وحججت تلك العام ثم سافرت مع الركب الشامى إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم زاده الله طيبا وتشريفا وصليت فى المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم إلى غزة ثم إلى منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم إلى القاهرة وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفى ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية وأفاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه وأملت لثم ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع تذكار الأوطان والحنين الى الأهل والخلان والمحبة الى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان

بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

فركبت البحر فى قرقورة لبعض التونسيين صغيرة وذلك فى صفر سنة خمسين وسرت حتى نزلت بجربة وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه ثم سافرت فى مركب صغير الى قابس فنزلت فى ضيافة الأخوين الفاضلين ابى مروان وابى العباس ابنى مكى أميرى جربة وقابس وحضرت عندهما مولد رسول الله ﷺ ثم ركبت فى مركب إلى سفاقس ثم توجهت فى البحر إلى بليانة ومنها سرت فى البر مع العرب فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس والعرب محاصرون لها

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وكانت تونس فى ايالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الأجواد القانت الأواب الخاشع العادل أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذى سارت الأمثال بجوده وشاع فى الاقطار أثر كرمه وفضله ذى المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدى آثار الجهاد ومعيدها ناصر الإيمان الشديد السطوة فى ذات الرحمان ، العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبى يوسف ابن عبد الحق رضى الله عنهم أجمعين وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسى لما بينى وبينه من مودات القرابة والبلدية فانزلنى بداره وتوجه معى إلى المشور فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبى الحسن رضى الله عنه وأمرنى بالقعود فقعدت وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبته وسألنى عن ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالاسكندرية ومالقى من اذايتهم انتصارا منهم لمولانا أبى الحسن رضى الله عنه وكان فى مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله السطى والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ ومن أهل تونس قاضيها أبو على عمر بن عبد الرفيع وأبو عبد الله بن هارون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ

الجلة أبو عمر وعثمان بن عبد الواحد التنالفتي وأبو حسون زيان بن أمريون العلوى وأبو زكرياء يحي بن سليمان العسكرى والحاج أبو الحسن الناميسى فسألنى عن ملك الهند فأجبته عما سأل

ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتى بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم أباعبد الله الابلى وكان فى فراش المرض وباحثنى عن كثير من أمور رحلتى

ثم سافرت من تونس فى البحر مع القطلانيين فوصلنا إلى جزيرة سردانية من جزر الروم ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا باذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه أسواق كثيرة ونذرت لله تعالى ان خلصنا الله صوم شهرين متتابعين لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ثم إلى مازونة ثم إلى مستغانم ثم إلى تلمسان فقصدت العباد وزرت الشيخ أبامدين رضى الله عنه ونفع به ثم خرجت عنها على طريق مدرومة وسلكت طريق أخندقان وبت بزاوية الشيخ ابراهيم ثم سافرنا منها فبينما نحن بقرب أزغنغان إذا خرج علينا رجلا وفارسان وكان معى الحاج ابن قريعات الطنجى وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك فى البحر فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله ووصلت إلى مدينة تازى وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوفاء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس فمثلت بين يدى مولانا الأعظم الإمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ابى عنان وصل الله علوه وكبت عدوه فانستنى هيبته هيبة سلطان العراق وحسنة حسن ملك الهند وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبوزيان ابن ودرار فسألنى عن الديار المصرية إذ كان قد وصل اليها فاجبته عما سأل وغمرنى من إحسان مولانا ايده الله تعالى بما أعجزنى شكره والله ولى مكافأته وألقيت عصى التسيار ببلاده الشريفة بعد أن تحققت بفضل الانصاف أنها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسرة والمياه والاقوات غير

معتذره وكل إقليم يجمع ذلك ولقد أحسن من قال (مجتث)

الغرب أحسن أرض ولى دليـــل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق فى ذلك ولاح فضل بلاد المغرب فاقول أن لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثمانية عشر أوقية بدرهمين وهما ثلث النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الاوقات والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ولان أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه فى قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلا وهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن والقلقاس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك وأما الخضر فهى أقل الأشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام وأما العنب فاذا كان رخيصا يبيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة إلا إنها ببلاد الغرب أرخص منها ثمنا فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية وإذا رخص ثمنه يبيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهى درهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا إلى شرفها وفضلا إلى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذى مد ظلال الأمن فى أقطارها وأطلع شمس العدل فى أرجائها وأفاض سحاب الاحسان فى باديتها وحاضرتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم

(ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله)

أما عدله فأشهر من أن يسطر فى كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة فان كانت متظلمة عجل انصافها أو طالبة إحسان وقع إسعافها ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شىء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فان ملك الهند عين بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم الكبار التى لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزى من أعجب ما شاهدته من حلم مولاه أيده الله أنى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة وخمسين لم أشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى قصاص أو حرابة هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف

ولم يسمع بمثل ذلك ما تقدم من الاعصار وفيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا وإلا فلا

قال ابن جزى لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادى ومولانا أيده الله قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد فانه لما خرج الأسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال وفرت أمامه الفرسان والرجال برز اليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعا لليدين وللفم وأما هزائم الاعادى فإنها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال وأما مولانا أيده الله فانه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه انه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الاعداء وانهزموا أمامه فكان من العجائب قرار

الأمم أمام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وما هو إلا ثمرة ما يمتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى ﷺ وفروع مذهب مالك رضى الله عنه وكتب المتصوفة وفى كل علم منها له القدح المعلى يجلو مشكلاته بنور فهمه ويلقى نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعى وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتى العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة وقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء

قال ابن جزى لو أن عالما ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم مع اشتغاله بامور الامة وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية . ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان إلا جلا مشكلها وباحث فى دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه مافاتهم من مغلقاتها ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التصوفى ففهم إشارات القوم وتخلق بأخلاقهم وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته وشفقته على رعيته ورفقه فى أمره كله وأعطى للآداب حظا جزيلا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا وأعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله ﷺ وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا .

وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ولا رام إدراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى وأحاط علما بمحصولها لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها وجمع له بين الطبيعى والمكتسب منها وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر

فذلك مالم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت .

قال ابن جزى اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورا لم تخطر فى الأوهام ولا اهتدت اليها السلاطين فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة فى جميع البلاد أيضا ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به وكسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده وتعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف فى عيد الأضحى والتصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه وإطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لإقامة رسمه ومنها إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم وصدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم

وتلك مكرمة لايعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات فى كل بلد من بلاده وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف فى طلبهم إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر كافأ الله أياديه وشكر نعمه وأما رفعه للمظالم عن الرعية فمنها الرتب التى كانت تؤخذ بالطرقات أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مجبى عظيم فلم يلتفت اليه وماعند الله خير وأبقى وأما كفه أيدى الظلام فأمر مشهور وقد سمعته أيده الله يقول لعماله لاتظلموا الرعية ويؤكد تلك الوصية .

قال ابن جزى ولو لم يكن رفق مولانا أيده الله برعيته إلى رفعه التضييف الذى كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا لكفى ذلك أثرا فى العدل ظاهرا ونورا فى الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق مالا يحيط به الحصر وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم فى الرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ماهو اللائق باحسانه والمعهود من رأفته وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام مافيه زجر الظلمة وردع المعتدين .

وأما فعله فى معاونة أهل الأندلس على الجهاد ومحافظته على إمداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح وفته فى عضد العدو بإعداد العدد وإظهار القوة فذلك أمر شهير لم يعب علمه عن أهل المغرب والمشرق ولا سبق اليه أحد من الملوك .

قال ابن جزى حسب المتشوف إلى علم ماعند مولانا أيده الله من سداد الفطر الى المسلمين ودفاع القوم الكافرين ما فعله فى فداء مدينة طرابلس أفريقية فإنها لما استولى العدو عليها ومد يد العدوان اليها ورأى أيده الله أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعد الاقطار كتب إلى خدامه ببلاد افريقية ان يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النذر اليسير وأمر للحين يبعث ذلك العدد إلى افريقية وعادت المدينة إلى الإسلام على يده ولم يخطر فى الأوهام أن أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزار يسيرا حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل فى الملوك أمثالها وعز عليهم مثالها ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد إنشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا فى زمان الصلح والمهادنة اعدادا لايام الغزاة وأخذ بالحزم فى قطع اطماع الكفار واكد ذلك بتوجهه بنفسه إلى جبال جانانه فى العام الفارط ليباشر قطع الخشب للإنشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته أعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء .

(رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلى وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضاً فى عجب وضعها وبديع صنعها وأبدع زاوية رأيتها بالمشرق زاوية سرياقص (سرياقص) التى بناها الملك الناصر وهذه أبدع منها وأشد إحكاما وإتقاناً والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافىء فضائله المنيفة ويديم للإسلام والمسلمين أيامه وينصر ألويته المظفرة وأعلامه .

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم وعمنى فضل إحسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت إلى بلدة طنجه وزرتها وتوجهت إلى مدينة سبتة فأقمت بها اشهرا وأصابنى المرض ثلاثة أشهر ثم عافانى الله فأردت ان

يكون لى حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة فى شطى لاهل أصيلا فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك أثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه أنه يستولى على مابقى من بلاد الأندلس للمسلمين فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفا منه وأول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب مابنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر .

قال ابن جزى جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجى فى حلوق عبدة الاصنام حسنة مولانا أبى الحسن رضى الله عنه المنسوبة اليه وقربته التى قدمها نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الأجناد والثغر الذى افتر عن نصر الايمان وأذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق وجبل الفتح لأن مبدأه كان منه وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن تسمى بسور العرب شاهدتها أيام إقامتى به عند حصار الجزيرة أعادها الله ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدى الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارة وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائه ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المائرة العظمى بأعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة ولم يكن به دار صنعة وبنى السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بها بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص ولما كان فى الاشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرة توكله فى أموره على الله وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية وذلك أن عامل الجبل الخائن الذى ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبى منديل نزع يده المغلولة

ثم استمر فى قصيدته على مدح عبد المؤمن بن على قال ابن جزى ولنعد إلى كلام الشيخ أبى الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق وجمح فى الغدر والشقاق وتعاطى ما ليس من رجاله وعمى عن مبدأ حاله السيء وماله وتوهم الناس إن ذلك مبدأ فتنة تنفق على إطفائها كرائم الأموال ويستعد لاتقائها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة فى هذه الفتنة فلم تكن إلا أيام يسيرة وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقى المخالف وقاموا بالواجب من الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق وأتى بهما مصفدين إلى الحضرة العلية فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين وأراح الله من شرهما ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس مالم يكن فى حساب أهلها وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد أبا بكر المدعو من السماة السلطانيه بالسعيد أسعده الله تعالى وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم وبذل لهم جزيل الإحسان وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل المذكور فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان عجيبا أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وما ذلك إلا لتشوقه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه وإعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه ويحقق ما يؤمله فى فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الاديب البليغ المفلق أبى عبدالله محمد بن غالب الرصافى البلنسى رحمه الله فى وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة فى مدح عبد المؤمن بن على التى أولها (بسيط)

لو جئت نارا لهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور

وفيها يقول فى وصف الجبل وهو من البديع الذى لم يسبق إليه بعد وصفه السفن وجوازها .

حتى رمت جبل الفتحين من جبل معظم القدر فى الاجيال مذكور
من شامخ الانف فى سحنائه طلس له من الغيم جيب غير مزرور
تمسى النجوم على تكليل مفرقه فى الجو خاتمه مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه مجرور

وادرد من ثناياه بما أخذت منه معاجم أعواد الدهارير
محنك حلب الأيام أشطرها وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر فى عجيب أمريه من ماض ومنظور
قدواصل الصمت والاطراق مفتكرا بادى السكينة معفر الاسارير
كأنه مكمد مما تعبده خوف الوعيدين من دك وتسيير
اخلق به وجبال الأرض راجفة أن يطمئن غدا من كل محذور

عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رندة وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا وكان قائدها إذذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرى وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضى الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى وأضافنى بمنزله ولقيت بها أيضاً خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندرخ المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفار وسواه وأقمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مربلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة ومربلة بليدة حسنة خصبة ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقه فأردت التوجه فى صحبتهم ثم إن الله تعالى عصمنى بفضله فتوجهوا قبلى فأسروا فى الطريق كما سنذكره وخرجت فى أثرهم فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت فى حوز سهيل مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالأرض فرابنى ذلك وكان أمامى برج الناظور فقلت فى نفسى لو ظهر هاهنا عدو لانذر به صاحب البرج ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا فبينما أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفى وكنت قد تقدمت أصحابى فعدت إليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمنى ان أربعة اجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها إلى البر ولم يكن الناظور بالبرج فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة وكانوا اثنى عشر فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض وأشار على ذلك القائد بالمبيت فى موضعه ليوصلنى منه إلى مالقة فبت عنده بحصن الرابط المنسوبة إلى سهيل والأجفان المذكورة مرساة عليه وركب معى بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقه أحدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب

ثمانية أرطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزي والى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي في قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حييت يا تينها فالفلك من أجلك يأتينها
نهى طبيبي عنك في علة ما لطبيبي عن حياتي نهى

وذيلها قاضي الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله في قصد المجانسة (سريع)

وحمص لا تنس لها تينها واذكر مع التين زياتينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها إلى أقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له في الحسن فيه أشجار النارنج البعيدة ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أباعبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولي الله تعالى أبي عبد الله الطنجالي قاعدا بالجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم فداء الاسارى الذي تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم واخبرته بما اتفق لي بعدهم فعجب من ذلك وبعث إلي بالضيافة رحمه الله واضافني ايضا خطيبها أبو عبد الله الساحلي المعروف بالمعمم .

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلا وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الأعناب والفواكه والتين كمثل ما بمالقه ثم سافرنا منها الى الحمة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على صفة واديها وبينها وبين البلد ميل أو نحوه وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافر منها الى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثل لها بسواها قال ابن جزي لولا خشيت ان أنسب إلى العصبية لاطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن احمد بن شيرين البستي نزيل غرناطة حيث يقول : (طويل)

رعى الله من غرناطة متبوأ يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبي عند ما راى مسارحها بالثلج عدن جليدا

هي الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغر لايكون برودا

﴿ رجع ذكر سلطانها ﴾

وكان ملك غرناطه فى عهد دخولى اليها السلطان ابو الحجاج يوسف بن السلطان ابى الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بين يوسف بن نصر ولم القه بسبب مرض كان به وبعثت الى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفعت بها ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السبتى ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البيانى ومنهم قاضي ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى البلفيقى قدم علينا من المرية فى تلك الأيام فوقع الاجتماع به فى بستان الفقيه أبو القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبى عبد الله بن عاصم وأقمنا هنالك يومين وليلة .

قال ابن جزى كنت معهم فى ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبدالله بأخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامى ولهذا الفتى أمر عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يامن اختار فؤادى منزلا بابه العين التى ترمقه
فتح الباب سهادى بعدكم فابعثو طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا على عمر بن الشيخ الصالح الولى أبى عبدالله محمد بن المحروق وأقمت أياما بزاويته التى بخارج غرناطة وأكرمنى أشد الإكرام

وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة البيرة الخربة ولقيت أيضا ابن الفقيه أبا الحسن على بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المتسببين من الفقراء .

وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى والحاج احمد التبريزى والحاج ابراهيم القونوى والحاج حسين الخراسانى والحاجان على ورشيدى الهنديان وسواهم .

ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى بلش ثم الى مالقة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن

كثير المياه والأشجار والفواكه ثم سافرت منه إلى رفدة ثم إلى قرية بني رياح فأنزلني شيخنا أبو الحسن على سليمان الرياحي وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان يطعم الصادر والوارد وأضافني ضيافة حسنة ثم سافرت إلى جبل الفتح وركبت البحر في الجفن الذي جزت فيه أولا وهو لأهل أصيلا فوصلت إلى سبتة وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه أبو محمد الزجندري ثم سافرت منها الى أصيلا وأقمت بها شهورا ثم سافرت منها إلى مدينة سلا فوصلت إلى مدينة مراكش وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فما شبهته إلا ببغداد إلا أن أسواق بغداد أحسن .

وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء الامام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزى في مراكش يقول قاضيها التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي (بسيط)

لله مراكش الغراء من بلد ... وحبذا أهلها السادات من سكن
ان حلها نازح الأوطان مغترب ... اسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها ... ينشأ التحاسد بين العين والأذن

(رجع) ثم سافرنا من مراكش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا إلى مدينة سلا ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب وإيرارمنه لا نظير له في البلاد ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فياشد ما تباعدا فأكرمني غاية الإكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر .

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله تعالى وفيها من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازى وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم والف وزاى مفتوح) أيضا وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة

الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلى المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى الى أربعين مثقالا .

وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر وأقمنا بها عشرة أيام فى جهد لأن ماءها زعاق وهى اكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها وهى مسيرة عشرة لاماء فيها إلا فى النادر ووجدنا نحن بها ماء كثيرا فى غدران أبقاها المطر ولقد وجدنا فى بعض الأيام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا والكماة بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس فى أعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها .

وكنا فى تلك الأيام نتقدم أمام القافلة فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعى رعينا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع فى الصحراء رجل يعرف بابن زيرى فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت وكان ابن زيرى وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدى منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فأشرت على ابن خاله بان يكترى من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فأبى وانتدب فى اليوم الثانى رجل من مسوفة دون أجرة اطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ولقد لقينا قافلة فى طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفى يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا إلى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء) وهى احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون سقيتهم ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ومن هنالك يبعث التكشيف .

(ذكر التكشيف)

التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع

ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتن كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه فى ذلك وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك اهلها أو الكثير منهم وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك اذ لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هى رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل فى مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواه والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكى ورأيت من العجائب ان الدليل الذى كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو اعرف الناس بالطريق واكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفى ليلة اليوم السابع رأينا الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهى آمنه من السراق والبقر الوحشية بها كثير يأتى القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولد أكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك ومن العجائب ان هذه البقرة إذا قتلت وجد فى كروشها الماء ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذى فيه والحيات ايضا بهذه الصحراء كثيرة

﴿ حكاية ﴾

وكان فى القافلة تاجر تلمسانى يعرف بالحاج زيان ومن عادته ان يقبض على الحيات ويعبث بها وكنت انهاه عن ذلك فلا ينتهى فلما كان ذات يوم أدخل يده فى حجر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فأخذها بيده وأراد الركوب فلسعته فى سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فكويت يده وزاد ألمه عشى النهار فنحر جملا وأدخل يده فى كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل وأخبرنا أهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل الينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عهدناو كنا نرحل بعد صلاة العصر ونسرى الليل كله وننزو عند الصباح وتأتى الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع ثم وصلنا إلى مدينة أيوالاتن فى غرة شهر ربيع الأول بعد شهرين كاملين من سجلماسة وهى أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا بفتح الفاء وسكون الواو وفتح الباء الموحدة ومعناه النائب ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفربا وهو جالس على بساط فى سقيف وأعوانه بين يديه

بأيديهم الرماح والقسى وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له أن يكترى لى دارا ففعل ذلك ثم أن مشرف ايوالاتن ويسمى منشاجوا (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته فأبيت من حضور ذلك فعزم الأصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ثم أتى بالضيافة وهى جريش انلى مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا الأسود قالوا نعم وهى الضيافة الكبيرة عندهم فأيقنت حينئذ أن لاخير يرتجى منهم وأردت أن أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت إقامتى بأيوالاتن نحو خمسين يوما وأكرمنى أهلها وأضافونى منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيى وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ وماؤهم من إحساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال

﴿ ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن ﴾

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلاغيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولايرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه وذلك شىء ما رأيته الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك الرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

﴿ حكاية ﴾

دخلت يوما على القاضى بايوالاتن بعد اذنه فى الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل وقال لى

القاضى لم ترجع انها صاحبتى فعجبت من شانهما فإنه من الفقهاء الحجاج واخبرت أنه استأذن السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته لاأدرى أهى هذه أم لا فلم يأذن له

حكاية نحوها

دخلت يوما على أبى محمد يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفى وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة فقال هى زوجتى فقلت وما الرجل الذى معها فقال هو صاحبها فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع فقال لى مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لاتهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد اليه بعدها واستدعانى فى مرات فلم أجبه ولما عزمت على السفر الى مالى وبينها وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوما للمجد اكتريت دليلا من مسوفة إذ لاحاجة إلى السفر فى رفقة إلا من تلك الطريق وخرجت فى ثلاثة من أصحابى وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكانها بئر ويشرب الناس من الماء الذى فيها ويكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مررت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزى ببلاد الاندلس شجرتين من شجر القسطل فى جوف كل واحدة منها حائك ينسج الثياب إحداها بسندادى آس والأخرى ببشارة غرناطة

(رجع) وفى أشجار هذه الغابة التى بين ايوالاتن ومالى ما يشبه شجرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس فإذا طاب انفلق عن شىء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتى والغرتى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون

به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد فى قرع كبار تسع القرعة منها قدر ماتسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها وهى من القرع

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلى واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفونى وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشترى منهن ما أحب من ذلك إلا ان الأرز يضرا كله بالبيضان والفونى خير منه وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا إلى قرية زاغرى (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراتة (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والف وتاء مثناة وتاء تأنيث) ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسمون صغنغو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الأول والنون وضم الغين الثانى وواو) والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم تورى (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة)

ومن هذه القرية يجلب انلى إلى ايوالاتن ثم سرنا من زاغرى فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو) والنيل ينحدر منها الى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء) ثم إلى زاغة (بفتح الزاى والغين المعجم) ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى وأهل زاغة قدماء فى الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكو ثم الى كوكو وسنذكرهما ثم الى بلدة مولى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهى آخر عمالة مالى ثم إلى يوفى واسمها) بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة) وهى من اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها ثم ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة وهى اكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعى بابن كنز الدين اسلم على ايام الملك الناصر ثم ينحدر إلى جنادل وهى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر

ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة فاذا باحد السودان قدجاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء ادبه وقلة حيائه وذكرت ذلك لبعض الناس فقال انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح فحال بينك وبينه ثم سرنا من كارسخو فوصلنا الى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة اميال من مالي وعادتهم ان يمنع الناس من دخولها الا باذن وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري ليكتروا لي دارا فلما وصلت الى النهر المذكور جزت في المعديه ولم يمنعني احد فوصلت الى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت الى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لي دارا ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه الى من الغد شمس الدين بن النقويش وعلى الزودي المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن جاءني وهو من السودان حاج فاضل له مكارم اخلاق بعث الى بقرة في ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال وواو وغين معجم) وهو من افاضل السودان وكبارهم وبعث الى بثور وبعث الى الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني وقرعة من الغرتي وبعث الى ابن الفقيه الارز والفوني وبعث الى شمس الدين ضيافة وقاموا بحقي اتم قيام شكر الله حسن افعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتقدنا بالطعام وغيره واكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القافي (بقاف والف وفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فاصبحنا جميعا مرضى وكنا ستة فمات احدنا وذهبت انا لصلاة الصبح فغشي على فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فاتى بشيء يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء) وهو عروق نبات وخلطه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولكنني مرضت شهرين

﴿ ذكر سلطان مالي ﴾

وهو السلطان منسى سليمان ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء واتفق انى اقمت هذه المدة

ولم أره بسبب مرضي ثم صنع له طعاما برسم غداء مولانا ابي الحسن رضي الله عنه واستدعى الامراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضرت معهم فاتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا لمولانا ابي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسي سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسي سليمان واعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فاجابهم بلسانهم فقالوا لي يقول لك السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

(ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها)

ولما انصرفت بعث الى الضيافة فوجهت إلى دار القاضي وبعث بها مع رجاله الى دار ابن الفقيه فخرج الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة اقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي وقرعة فيها لبن رائب فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير

(ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه إلي)

واقمت بعد بعث هذه الضافية شهرين لم يصل الي فيهما شيء من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت خلال ذلك اترددالى المشور واسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وانا أعبر عنك بما يجب فجلس في اوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له اني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولي ببلادك اربعة اشهر ولم تضفني ولا اعطيتني شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين فقال اني لم اركولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فامر لي عند ذلك بدار انزل بها ونفقة تجري علي ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا واحسن إلي عند سفري بمائة مثقال ذهبا

(ذكر جلوسه بقبته)

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها اكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذاهب اوهي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس

أخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدى بعضهم القسى وفى ايد بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسى كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجاموسى وتاتى القرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفى رجليه الخلف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون فى يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد

ويجلس الاجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور فى شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والاطبال والابواق بوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسه وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

(ذكر جلوسه بالمشور)

ويجلس أيضاً فى بعض الأيام بالمشور هنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبى (بفتح الباء المعقود الاولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازى ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشة ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشى مشيا رويدا ويكثر التانى وربما وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب

المنبر وعندجلوسه تضرب الطبول والابواق والانفاق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف ذوغا على الباب وسائر الناس فى الشارع تحت الاشجار

(ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له وغير ذلك من أحوالهم)

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كى فاذا دعا باحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخا ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لاتعمى أعينهم وإذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤسهم وأنصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم وتصديقهم ان ينزع أحدهم وترقوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى فاذا قال له السلطان صدقت أوشكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزى وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله انه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده

(ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه)

وحضرت بمالى عيد الاضحى والفطر فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان لايلبسون الطيلسان إلا فى العيد ماعدا القاضى والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه فى سائر الايام وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها وأصلح من شانه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان

وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على البنبى ويأتى السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضى والخطيب على العادة ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رأسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه ويضرب بالآلة التى هى من قصب وتحتها قريعات ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله ويغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ويكون معه نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف والحمر وفى رؤوسهم الشواشى البيض وكل واحـــد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتى أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون فى الهواء كما يفعل السندى ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا وعنـــد ذلك يأمر السلطان له بالاحساس فيأتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ويذكر ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية فينزعون فى قسيهم شكرا للسلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه

(ذكر الأضحوكة فى إنشاد الشعراء للسلطان)

وإذا كان يوم عيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجلا (بضم الجيم) وأحدهم جالى وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه الشقشاق ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان أن هذا البنبى الذى عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا وفلان كان من أفعاله كذا فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبى ويضع رأسه فى حجر السلطان ثم يصعد إلى أعلى البنبى فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل وأخبرت أن هـــذ الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه .

(حكاية)

وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام فأتى أحدفقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدى (س) وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضى فصدقه ثم صدقهما (س) فوضع كل واحد منهم عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبى رجل من البيضان فقال أتعرف ماقالوه فقلت لا أعرف فقال أن الفقيه قد أخبر أن الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فأجابته جرادة منها وقالت أن البلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفسادزرعها فصدقها القاضى والسلطان وقال عند ذلك للأمراء أنى برىء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظالم ولم يعلمنى به فذنوب ذلك الظالم فى عنقه والله حسيبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرؤا من الظلم

(حكايه)

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبى حفص فقال ياأهل المسجد أشهدكم أن منسى سليمان فى دعوتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة (س) فقالوا له من ظلمك من أخذلك شيئا فقال منشاجو ايوالاتن يعنى مشرفها أخذ منى ماقيمته ستمائة مثقال وأراد أن يعطينى فى مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث (س) عنه للحين فحضر بعد أيام وصرفها للقاضى فثبت للتاجر حقه فأخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

(حكاية)

واتفق فى يوم إقامتى بمالى أن (س) غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهى شريكته فى الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى فى مكانها زوجته الأخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام فى ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يتربن رؤوسهن ثم أن (س) سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتربن على العادة فشكت بنجو إلى (س) بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا

دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضى عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدو أو عشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور منتقبة لا يرى وجهها وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها فجمعهم السلطان فى المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام فى امر قاسا وأنها أذنبت ذنبا كبيراً

ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمى بما عندك فاخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرنى واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهى تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد وإن لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسى مغا منسى موسى وكان كريماً فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذى أعطى لأبى إسحاق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال واخبرنى بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد وكان جده سارق جاطه أسلم على يدى جد مدرك هذا .

(حكاية)

وأخبرنى الفقيه مدرك هذا إن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى فى صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبى غير معتبر ثم اتفق ان جاء اليه فى خصومة وهو سلطان فعرفه وادناه منه حتى جلس معه على البنبى ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل مافعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها فاعطه سبعين مثقالا فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما وامره أن لا ينقطع عنه واخبرنى بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالى .

(ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها)

فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه ومنها شمول الأمن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة إنما

يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ومن عادتهم ان يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه .

ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى ما فعل هذا اقتل فقهم عنى الشاب وضحك وقيل لى إنما قيد حتى يحفظ القرآن ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة فإن عادة الفرارية ان يفطروا بدار (س) ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جوار به وهن عرايا ومنها دخول النساء على (س) عرايا غير مستترات وتعرى بناته ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تادبا ومنها ماذكرته من الاضحوكة فى إنشاد الشعراء ومنها ان كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير .

﴿ ذكر سفرى عن مالى ﴾

وكان دخولى اليها فى الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وخروجى عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لى جمل أركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوى أحدها مائة مثقال فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل لايجاز إلا فى المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

﴿ ذكر الخيل التى تكون بالنيل ﴾

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشر دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة

لكثرتها هنالك ثم انى رأيتها دخلت فى النهر فقلت لأبى بكر بن يعقوب ماهذه الدواب فقال هى خيل البحر خرجت ترعى فى البر وهى اغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب ورؤسها كرؤس الخيل وأرجلها كارجل الفيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو وهى تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ولهم حيلة فى صيدها حسنة وذلك أن لهم رماحا مثقوبة قد جعل فى ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع (س) منسى موسى لما حج .

(حكاية)

أخبرنى فربامغا ان منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بابى العباس ويعرف بالدكالى فاحسن اليه بأربعة الاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى (س) بان الأربعة الاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر (س) امير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ماضاع له شىء انما دفنها بيده فى ذلك الموضع وأشارت له إلى الموضع فاخرجها الأمير وأتى بها (س) وعرفه الخبر فغضب على القاضى ونفاه الى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى أدم فاقام عندهم أربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج والأسود هو النضج بزعمهم

(حكاية)

قدمت على (س) منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم معهم أمير لهم وعادتهم ان يجعلوا فى آذانهم اقراطا كبار أو تكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون فى ملاحف الحرير وفى بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم (س) واعطاهم فى الضيافة خادمة فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وايديهم بدمها وأتوا (س) شاكرين واخبرت ان عادتهم متى ما وفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكر لى عنهم انهم يقولون

ان اطيب ما فى لحوم الآدميات الكف والثدى ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قرى منسا وقرى (بضم القاف وكسر الراء) ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه فاخبرنى راعيه بذلك فخرجت لا نظر اليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجيف فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتى ليشتريا لى جملا بزاغرى وهى على مسيرة يومين وأقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فأقمت سبعة أيام اضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

﴿ حكاية ﴾

وفى أيام أقامتى بهذه البلدرأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لى محمد بن بطوطة لماذا لا يقرأ سورة يس فى كل يوم فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حضر ثم رحلت الى بلدة ميمة (بكسر الميم الأول وفتح الثانى) فنزلنا على آبار بخارجها .

ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمى فربا موسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أميراً على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة واجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم وبهذه البلده قبر الشاعر المفلق أبى إسحاق الساحلى الغرناطى المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

﴿ حكاية ﴾

كان (س) منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل (س) واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه امراؤه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال فأقام بمالى فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحق الساحلى فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس فى ذلك واتهموا أنه سم فقال لهم ولده إنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضى اجله ووصل الوالى إلى مالى واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تنبكتو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات

وبحلى الزجاج ثم وصلت إلى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لايتعاطى أحد النزاع فى قوسه ولم أر فى السودان أطول منه ولاأضخم جسما واحتجب بهذا البلدة إلى شىء من الذرة فجئت إليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى وكان معه فقيه يكتب له فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه يافقيه قل لهـذا الأمير إنا نحتاج إلى شىء من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ مافيه سرا ويكلم الأمير فى ذلك بلسانه فقرأه جهرا وفهمه الأمير فأخذ بيدى وأدخلنى إلى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسى والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزى فجعلت أقرأ فيه .

ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو) وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض المـاء لأنهم ان شربوا المـاء خالصا أضربهم وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه ودخل غلام خماسى فدعاه وقال لى هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فأخذته وأردت الانصراف فقال أقم حتى يأتى الطعام وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية فكلمتنى بالعربى فبينما نحن فى ذلك إذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت إليه فأعلمته أن بنتا له قد توفيت فقال إنى لاأحب البكاء فتعالى نمش إلى البحر يعنى النيل وله على ساحله ديار فأتى بالفرس فقال لى أركب فقلت لا أركبه وأنت ماش فمشينا جميعا ووصلنا إلى دياره على النيل وأتى بالطعام فأكلنا وودعته وانصرفت

ولم أر فى السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذى أعطانيه باق عندى إلى الآن ثم سرت إلى مدينة كوكو وهى مدينة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس العنانى الذى لانظير له وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالى وأقمت بها نحو شهر وأضافنى بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا وتوفى بها بعد خروجى عنه وأضافنى بها الحاج محمد الوجدى التازى وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالى إمام مسجد البيضان .

ثم سافرت منها برسم تكدا فى البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الوو وتشديد الجيم المفقودة) ومعناه الذئب بلسان السودان وكان

وكان لى جمل لركوبى وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله وكان فى الرفقة مغربى من أهل تادلى فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره وعطش غلامى يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به ثم وصلنا إلى بلاد بردامة وهى قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل إلا فى فى خفارتهم والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل ويقيمون أعواد من الخشب ويصنعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد متشبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن أراد التزوج منهن سكن بهن فى أقرب البلاد إليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا أيوالاتن وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا فى السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده) ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى وأضافنى قاضيها أبو ابراهيم إسحاق الجاناتى وهو من الأفاضل وأضافنى جعفر بن محمد المسوفى وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدا من أمدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب وهى كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم

ولقد لدغت يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد ابن على عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالى وأيوالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادرا وبالثمن الكثير

(حكاية)

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعث إلى القاضى أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم ان صاحبها ندم ورغب فى الاقالة فقلت له ان

دللتني على سواها أقلتك فدلني على خادم لعلى أغيول وهو المغربي التادلي الذي أبى أن يرفع شيئاً من أسبابي حين وقعت ناقتي وأبى ان يستقي غلامي الماء حين عطش. فاشتريتها منه وكانت خيراً من الأولى وأقلت صاحبي الأولى ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ورغب في الاقالة وألح في ذلك فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله فكاد ان يجن أو يهلك أسفاً ثم أقلته بعد.

(ذكر معدن النحاس)

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون إلى البلد فيسكبونه في دورهم ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ. فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاري وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا واهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب.

ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة ويحمل النحاس أيضاً منها إلى جوجرة وبلاد المورتبين وسواها.

(ذكر سلطان تكدا)

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تكدا وهو بربري يسمى ازار (بكسر الهمزة وزاى والف وراء) وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركري وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فأردت أن ألقاه فاكتريت دليلاً وتوجهت اليه وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء إلي راكباً فرساً دون سرج وتلك عادتهم.

وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد أخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا اليه وصافحناه وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وأنزلني ببيت من بيوت اليناطبين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوارنا بيت امه واخته فجاءتا الينا وسلمتا علينا وكانت أمه تبعث لنا الحليب

بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء وأحسن الى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت الى تكدا

(ذكر وصول الأمر الكريم الى)

ولما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسى بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا الى الوصول الى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور .

واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتى وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تكدا وفى الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركرى وهى أرض كثيرة الأعشاب يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات الى بلادهم ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهى مسيرة ثلاثة أيام .

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها الا أن بها الماء . ووصلنا الى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجرى على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه

وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا الى بلادهم فى شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل واذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر وسرنا فى بلاد هكار شهرا وهى قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا بأخبار بلادنا وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف أهل القافلة من ذلك ثم وصلنا الى بوادا (بضم الباء الموحدة) وهى من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت

وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقاتلون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه لايطير إذ ذاك لأجل البرد وأقمنا بيودا أياما فى قافلة ووصلنا فى أوسط ذى القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الأضحى الى دار الطمع فأقمت هنالك يوم عيد الأضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فارس حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك وأقمت فى كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار . فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وكان

الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستين وخمسين وسبعمائة

والحمد لله وسلام على عبـــاده الذين اصطفى



(قال ابن جزى)

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطه اكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فارس قرا ومستوطنا بعد طول جولانه الا الماء لما تحقق أن مولانا ايده الله اعظم ملوكها شأنا وأعمهم فضائل واكرمهم احسانا وأشدهم بالواردين عليه عناية وأتمهم بمن ينتمى الى طلب العلم حماية فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى لأن وفقه فى أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التى اختارها هذا الشيخ بعد رحله خمسة وعشرين عاما انها لنعمة لايقدر قدرها ولا يوفى شكرها

والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ويبقى علينا ظل حرمته
ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين . اللهم
وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين . وخصصته بالحلم والعقل
الرصين فمد لملكه أسباب التأييد والتمكين وعرفه عوارف
النصر العزيز والفتح المبين وأجعل الملك فى عقبه
الى يوم الدين . وأره قرة العين فى نفسه
وبنيه وملكه ورعاياته ياأرحم الراحمين
وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا
محمد خاتم النبيين . وامام
المرسلين والحمد لله
رب العالمين

﴿ وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة ﴾

﴿ يقول مصححه العبد الفقير * الراجى عفو ربه القدير ﴾

حمداً لمن شرح صدور الأجلة الألباء . لاستكشاف مافى الاصقاع من العادات
وجميل الأنباء . وصلاة وسلاما على من أطلعه الله على كان . وأرسله الى
الثقلين من انس وجان . وبعد فقد تم طبع هذا السفر المشتمل على معرفة
عوائد الاقطار المسمى (تحفة النظار * فى غرائب الأمصار * وعجائب
الاسفار) تأليف الإمام أبى عبد الله محمد بن عبد الله المعروف
بابن بطوطه رحمه الله . وذلك بمكتبة حضرة الوجيه الفاضل
الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى
بشارع محمد على بمصر المحمية . وقد وافق التمام أوائل
شهر رجب المعظم من عام ١٣٧٧ هجرية عليه
وعلى آله وأصحابه أتم صلاة
وأزكى تحيـــة
آمين

(فهرست الجزء الأول من كتاب رحلة ابن بطوطه)

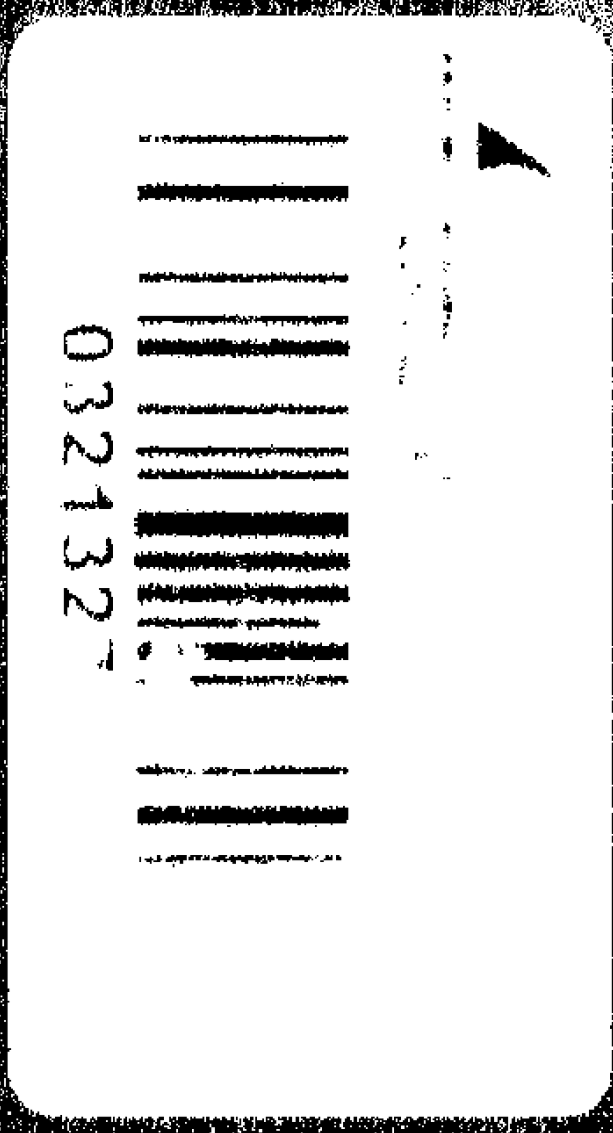
صحيفة

صحيفة

تمت فهرست الجزء الأول

فهرست الجزء الثانى من كتاب رحلة ابن بطوطة

تمت فهرست الجزء الثانى


0321327